رواية

دافيد توسكانا

ترجمة: محمد سالم

Telegram:@mbooks90

David Toscano

The Illuminated Army

El ejército iluminado

هناك مكتب طبيب في 467 شارع ديغويّادو. وقد تمّ إعادةُ تصميم واجهته بطريقة تجعل من المستحيل تمييز المنزل القديم حيث عاش إغناثيو ماتوس وكومودورو البدين. إنه الآن مدهون باللّونَين الأزرق والأبيض، وهناك يافطة مضاءة تعلن عن علاج أمراض الجهاز التنفّسي. في غرفة المعيشة، حيث جرت العديد من المشادّات، وحيث كان هناك دخان السيجار، وألعاب الدومينو، والجعة والضحك والصمت، ستجدُ اليوم امرأة تسأل: كيف يمكنني مساعدتك؟ لأيّ شخص عند دخوله. كان هناك نصب تذكاريّ أقامه أصدقاء ماتوس إلى أن جرى ترميم المبنى. كان عبارة عن كومة خرسانية، ربّما في محاكاة لجبل السرج(1)، تتوّجُه لوحةٌ معدنية تحمل أسطورة «جيش المتنوّرين»، 1968. قام رجلان بإزالة الكومة دقًّا بالمعاول والفؤوس، فحوّلوها إلى ركام لإفساح الطريق لثلاثة مواقف للسيّارات. لم يكن أحد مهتمًّا بحفظ اللوحة، التي لربّما ظُهرت في كومة من المعادن الخردة.

*

تختفي آخر عربة في القطار وراء منعطف بالقرب من محطّة مونتيرّي. على أنّ صراخ العجلات وطقطقة المعادن لا يزال يمكن سماعها عن بعد، لكن فيما خصّ رامون وسانتياغو، فالهدوء يحلّ بمجرد توقّف سائقه عن إطلاق صافرته مرارًا وتكرارًا. ماذا تفعل في مثل هذه الحالات؟ يسأل سانتياغو. لا أعرف، يقول رامون ويحكّ رأسه دلالة على حَيرته في ما يمكن أن تتطلّبه لحظات كهذه، ربّما يجب أن ننتظر الشرطة أو سيّارة الإسعاف أو الصحافة. هناك جسد مقطّع من ثلاث أو أربع قطع ملقاة على القضبان على بُعد بضعة أقدام. حلّ الليل وتحوّلت الألوان إلى الرماديّ والأسود. ومن المستحيل التمييز بين النفط الذي يتسرّب من القطارات وبين الدماء: جِلد الرجل الميت بلون الرصاص؛ والأخضر الزيتونيّ في بنطاله رمادي مائل إلى اللون البنيّ. جزمته العالية وحدها سوداء كما هي في وضح النهار. ماذا يحدث لو جاء قطارٌ آخرُ؟ يسأل سانتياغو. يلوي رامون شفتَيه

Telegram:@mbooks90

ويقوّس حاجبَيه. سمعت أنّ أحذية الجنود تقع عندما يموتون. هذه خرافة، قال سانتياغو، ما يحدث أنّها تُسرق ثم يأتي أحدهم ويرى أنّهم حفاة الأقدام فينتهي به المطاف إلى اختلاق قصة. كلاهما يجلس على الأرض. ماذا عن قنبلة يدوية؟ يسأل رامون، ويرمي صخرة في اتجاه الجادة القريبة. بين فينة وأخرى تمرّ سيارة أو شاحنة، ولكن لا يلاحظهما أيّ من السائقين. يومئ سانتياغو ويجلس في عملية بطيئة، ساقاه تئنّان تحت وطأته. تتغيّر الحال عندما تكون هناك قنبلة يدوية في المسألة. حينها يطيرُ حذاؤك، وبنطالك، وحتّى غائطك في الهواء. يلتقط رائحة مصنع السيجار القريب ويقرّر تغيير الموضوع، لأنّه لم يسبق له رؤية أي شخص مات جراء قنبلة. كأنّها رائحة التبغ، يقول، كما هي دائمًا، كما لو كان هذا اليوم مثل أيّ يوم آخر.

على بُعد عشرة أمتار تقريبًا من الجثّة، هناك رايةٌ بيضاء مصنوعة من القطن الخام وذراع مكنسة، مغروسة في الأرض. يمشي إليها سانتياغو ويقتلعها. في طريق عودته، يجتاز الرجل الميت ويحسب خمسة قضبان للسكة. ثم يعيد غرزها، مائلًا بثقله على السارية. لا يستطيع أحد القول إنّه لم يصل إلى خطّ النهاية. رامون يقف على قدمَيه ويستخرج ميدالية من جيبه. لقد استحقّها، يقول، لا شك في ذلك. يتأمّل الميدالية في ضوء القمر: يَظهر على البرونز المستدير رجلان عاريان يتصافحان، أحدهما واقفٌ والآخر جالس على الأرض. يُظهر الجانب الآخر صورة مشتّتة لا يستطيع رامون أن يتبيّنها، لكنّه يميّز الكتابة في مزيج من الفرنسية والأرقام الرومانية. دورة الألعاب الأولمبية الثامنة، يقرأ بصوت خافت، باريس، 1924 قطعت تلك الميدالية نصف العالم في حياتها، وأخيرًا، بعد أربعة وأربعين عامًا، ستتدلّى من الفائز الشرعي. يقترب من الجثّة. وللمرة الأولى يلاحظها عن قرب ويكتشف بارتياح أنّه لم يجرِ فصل الرأس، وأنه ما زالت هناك رقبة جيدة وقوية لتعليق الميدالية. ومع ذلك، فإنّ وجه الرجل ملقًى في التراب، ورامون لا يريد أن يقلبه، لذلك فهو يسحب الأنشوطة بقوة بين الأرض والجبهة والأنف والفم. يترك الميدالية مسترخية على الجذع المقطوع،

مع الحرص على مواجهة رجال البرونز العراة. يشرفني، باسم الشعب المكسيكي والحركة الأولمبية الدولية، أن نمنحك هذه الميدالية لتكريس إنجازاتك العديدة في الرياضة والتعليم والقضايا الاجتماعية والعسكرية، وأطلب منك أن ترتديها بتواضع المهزوم ومجد البطل، فغالبًا ما يحملُ العَظَمة الخاسرُ، والخزيَ يتحمّلُهُ من يأتي أولًا. ليكن. يشير إلى سانتياغو للوقوف بجانبه. يرفع كلّ واحد يده إلى صدره ويبدآن في غناء النشيد الوطني، وهما عارفان أنه في العديد من الأماكن في البلاد، يلوّح العَلَم ثلاثيّ الألوان، وفي جميع أنحاء العالم يتمّ نطق كلمة المكسيك بلغاته المختلفة بلهجات متنوّعة. إنهما يُنشدان خارج الإيقاع ولكن بحماسة أكبر من التجمّعات المدرسية الغابرة. يُنشدان لأن الرجل على القضبان، الذي قدّم كل شيء للأمة، يستحق ذلك. يُنشدان وهما يتخيّلان ملعبًا كاملًا حولهما، مع عشرات الآلاف من الأصوات المرافقة. يُنشدان، وفي المقطع الثاني يحتاجان إلى رفع الصوت لأنّ سيّارة مفرزة بأضواء حمراء وصراخ محموم من صافرات إنذار تقترب بأقصى سرعة.

*

هناك ثلاثة أحجار دومينو مستلقية على الطاولة. سحابة من الدخان ترتفع حول اللاعبين الأربعة؛ لا تنتقل إلى أيّ مكان، فلا نسيم يدخل عبر النوافذ. أحدهم ينفخ بفارغ الصبر. يتطلّع كومودورو(2) البدين جيئةً وذهابًا بين أحجاره السبعة، والثلاثة المستلقية على الطاولة. إنه دوره، لكنه لا يقوم بخطوة، إنه حذرٌ من لعبة خاطئة. لقد رأى هؤلاء الرجال يلعبون ويعرفون أنهم يبذلون الكثير من الجهد في كلّ مباراة، يركزون، ويرفعون أذرعهم إذا فازوا، ويُدوّرون الأحجار اليتيمة على مراكزها المعدنية، يتوقّعون تحرّكات خصومهم، بالكاد يتحدّثون لأن وقت اللعب هو للشرب، للتدخين، لا للحديث عن أحداث اليوم أو العمل. الأمر ليس بهذه الصعوبة، فهناك سبعة أحجار وينبغي له اختيار أحدها. وهو يفضّل الأبيض بسبب نقائه، لأنّه الأسهل تفسيرًا؛ لكن كومودورو البدين

يعرف أنها ليست مسألة ذوق. اللعبة لها منطق وقواعد ويجب احترامها. يشعر أنه من الأفضل له التوجّه إلى المطبخ وجلب بعض الجعة، وإفراغ منافض السجائر، وسؤالهم عمّا إذا كانوا يريدون أيّ شيء. كان يُفضّل الجلوس في زاوية والاكتفاء بالمشاهدة، مجرّد المشاهدة. لكن أحد الرجال، السيد إيبانييز، غادر المدينة وهذه لعبة لأربعة أشخاص، قال له ماتوس، عليك أن تتعلّم. قضى ماتوس صباح الأحد بأكمله موضحًا مهارات هذه الأحجار الثمانية والعشرين له. لا تدع خصمك يراها، ولا حتى أن يتخيّلها. هذا صعب لأن يدي كومودورو خرقاوان وعدة مرات أثناء التدرّب أوقع حجرًا وتركه مكشوفًا لأعين العدو؛ هذا هو السبب في أنه الآن يجفف العرق من أصابعه بمسحها على بنطاله. ينفث سانتياغو سحابة من الدخان باتجاه وسط الطاولة. هذه ليست لعبة شطرنج نلعبها هنا أيها البدين. يرفع ماتوس يده لإسكاته ويسأله الصبر ثم يتحوّل إلى كومودورو. تذكّر كيف فعلتها هذا الصباح: لمّا كان هناك ثلاثة في نهاية الصف، فقُمتَ بمطابقته بثلاثة، وكان هناك أربعة، فقُمتَ بمطابقته بأربعة. ليس من المفترض أن تتحدّث، يخرج رامون عن خموله، أنت تقدّم له الإرشادات. اللعنة على إيبانييز لقراره الرحيل إلى مزرعته، إنه يخبرنا أن نذهب إلى الجحيم، قال سانتياغو، ما الذي سنفعله الآن؟ يجب أن يكون هناك قانون ضد الذين يتركون أصدقاءهم في وضعٍ حرج، كان هذا اتفاقًا رباعيًا، وماذا ستكون النهاية؟ من المرجّح أن إيبانييز يجلس الآن على المصطبة دون أن يفعل شيئًا، في مكان ما حيث ينطفئ كل شيء بعد العشاء مباشرة. كومودورو لا يمكنه سماع أي شيء، إنه يدرس الحجر الأبيض(3)، أمّ الحجارة الطاهرة التي تُصلّي من أجلنا، أنتِ وحدكِ من بين جميع الحجارة والنساء، ويلعنُ شروط هذه اللعبة، لأنني أريد أن ألعب الحجر الأبيض، فأحيانًا ينبغي لك فعل ما تريد وليس ما يريده الجميع، وربما مع قليل من الحظّ، تكون هذه هي الخطوة الصائبة التي يجب أن يقوم بها الشخص الرابح. يرفع يده ويتقدّم بإبهامه وسبّابته ببطء لالتقاط الحجر المختار. أخيرًا، يقول سانتياغو، ولو أننا على هذا المعدّل سنظلّ هنا إلى الغد. يضع كومودورو الحجر بجوار

الصفّ الذي ينتهي برقم ثلاثة بصفعة قوية إلى الطاولة، كما يرى الرجال يفعلون عندما يفوزون باللعبة. لا أحد يتكلم؛ فرؤية الحجرَين غير المتطابقَين تتركهم مشدوهين. يظنّ كومودورو أنه قام بحركة بارعة، والآن حان دور الآخرين للتفكّر في الخطوة التالية بينما يمسحون أيديهم المتعرّقة على بناطيلهم. مَليص(4)، قال سانتياغو، كل هذا انتظارًا لمليص. كومودورو ينظر إلى أعين الرجال؛ لا يوجّهونها إلى اللعبة، بل ينظرون إليه صعودًا ونزولًا. يودّ أن يأخذ الحجر، ويعيده إلى الصف مع الستة الآخرين ويتظاهر بأن لم يره أحد، ويختار مرة أخرى، وربّما يكون خيارًا صحيحًا هذه المرة، ويترك الطاهرة لحركة لاحقة. لكنّهم رأوه، وماتوس أخبره عن الأسرار التي يجب عليهم حفظها. ربما يستطيع بسهولة أن يهرب، يُفكّر في الفرار، وترك الرجال، يرحل بعيدًا كما فعل السيد إيبانييز، لو أن الشجعان وحدهم هم من يحقّ لهم الفرار. يضرب ماتوس الأحجار ويُسقط بعضًا منها على الأرض. أخرق، ينهض ويقترب ويشدّ كومودورو من شعره الأملس، ما جدوى كل ما تحدثنا عنه؟ منفضة سجائر تسقط أرضًا أيضًا. وعليهم كنسها، والبحث عن العقب الذي لا يزال مشتعلًا. يحاول كومودورو أن يقول شيئًا، فهو لا يحبّ أن يطلق عليه أخرق، قال له أستاذه إنه لا ينبغي له أن يقبل الإساءة من أيّ شخص. الآن ليست يداه وحدهما اللتان تعرقان، جبهته أيضًا مغطاة بالعرق، رقبته مبلّلة؛ يصعب عليه التعبير عندما يكون غاضبًا. ينزل إلى الأرض ويزحف حتى يجد الطاهرة. ها هي هناك، بجانب ساق الكرسي. يلتقطها ويقف. يحاول مرة أخرى أن يقول ما يشعر به، وبالكاد يمكنه أن ينطق بكلمة ظلم. ظلم، يكرر، ظلم، والحجر هو رقاقة القربان(5) التي يرفعها كومودورو بكلتا يديه.

*

يسير كومودورو البدين في شارع هيدالغو، ممسكًا بيد ماتوس. لم يتحدثا إلى بعضهما منذ البارحة، فهما يتصوّران أنّ البادرة الأخوية لأحدهما بحمل يد

الأخر اليسرى بيمينه أكثر بلاغة من أي تفسير، أو ردّ على اتهام، أو اعتذار. في أيّ حدثٍ، وللتعويض عن إذلاله، كومودورو، كان ينتقم لنفسه. كالعادة، نظّف المنزل بعد أن غادره سانتياغو ورامون وذهاب ماتوس إلى الفراش. التقط الزجاجات الفارغة، كنس الرماد من الأرض، وأفرغ القمامة. عندما حان الوقت لتخزين أحجار الدومينو في الصندوق الخشبي، وضع سبعة وعشرين حجرًا فقط. ودسّ السيدة الطاهرة في جيبه، بينما هو يهمّ بعبور الشارع، ويضغط عليها بيده الحرّة. إنه غير متأكّد ممّا سيفعله بها، سواء إن كان عليه أن يرميها بعيدًا، أو يخفيها، أو يقدّمها هدية؛ إنه متأكّد فقط من أنه لن يعيدها. خطوات ماتوس متضامّة، فهو دائمًا في عجلة من أمره. يحاول كومودورو مواكبته، يتأرجح جسمه في خطوته القصيرة، مُتلِفًا بنطاله من جهة منفرجه. عليك ممارسة التمارين، يقول ماتوس، أو سينتهي بك المطاف إلى الانفجار. عندما كنت في سنك... سبق لي سماع هذه القصة مرات عديدة، يُقاطعه كومودورو، لكن المعلم أخبرنا أنه لم يكن أحد في أيّ وقت مضى في عمرنا، وأن أعمارنا هي شيء مختلف، وهذا شيء آخر يجمعنا نحن المستنيرين. لذا لا تقل لي مرة أخرى عمّا فعلتَه عندما كُنتَ صغيرًا أو تنعتني بالأخرق كما فعلت البارحة. أفلتا أيديهما. في النهاية، لم يمنعهما ضمّ الأيدي من التحدّث. كومودورو ينظر إلى المنزل قبالته. إنه قديم، من طابقَين. يفكّر في رمي السيدة الطاهرة على السطح حتى لا يتمكّن أحدٌ من العثور عليها، لكنّه يخشى أن يخطئ فيراها تصطدم بواجهة البيت وترتدّ على الرصيف. أنا آسف، قال ماتوس، لن أنعتك بذلك مرة أخرى. وقد تنكسر وهذا أسوأ من فقدانها إلى الأبد، أسوأ من وضعها في الصندوق الخشبي مع سبعة وعشرين آخرين. حسنًا، قال كومودورو، لا تنعتني بذلك مرة أخرى، ويعيد الحجر في جيبه. بعد بضع خطوات أبعد، يشبكان أيديهما مرة أخرى.

هذا ليس بعمل رجولي، يقول صوت وراءهما، يجب أن يكون لديك فتاة جميلة قرب ذراعك. يستدير كومودورو فتُقدم أثوثينا له يدها. لقد تأخرتُ قال ماتوس، أظن أن بوسعكما أن تجدا طريقكما معاً، وانفصل عنهما كأنه يعدو.

هو لم يتأخّر، إنها بالكاد السابعة والنصف، والمدرسة التي يعلّم فيها تبعد خمس دقائق. لكنّه ليست لديه الرغبة في أن يخوض مع كومودورو هذا الصباح، وبدرجة أدنى كثيرًا الدخول في محادثة مع أثوثينا. لماذا سمحت لها أمّها بالخروج وحدها؟ ألا تفكّر في المخاطر؟ ربّما نعم، تعرفُ أمّها المخاطر ولهذا السبب على وجه التحديد ترسلها وحدها، مع قليل من الحظّ السيّئ ستعبر الشارع بشكل خاطئ أو تسقط في مَصرِف مفتوح.

يحيّي ماتوس الحارس عند المدخل ويلحظ أنه يتّجه نحو مكتب المدير. يدخلُ إلى فصله ويستقرّ على كرسي. يُظهر الجدار الخلفي خريطةً قديمةً، حيث يمكنك رؤية منطقة ضخمة شمال ريو غراندي(6) على أنّها جزء من المكسيك. إنه يبني أكثر فصول التاريخ حماسة عليها، حيث يضع إصبعه على سلسلة من المدن: سان أنطونيو، لوس أنجلوس، سان فرانسيسكو، سانتا باربرا، ويسأل طلابه لماذا تجدون أن لديها أسماء إسبانية؟ ويشير إلى خليج مونتيرّي ويقول إن هذا المكان يحمل اسم مدينتنا نفسه للسبب ذاته، لتكريم دون غاسبار دي ثونيغا يا آثيفيدو(7)، كونت مونتيرّي، نائب الملك في إسبانيا الجديدة، إسباني، وليس بإنجليزي، رجل نبيل، وإنْ حَذَف الغرينجو(8) أحد حرفي "الراء" فلأنهم لا يعرفون كيف ينطقون الاثنين معًا. في كلّ عامٍ يوبّخه المدير للطريقة التي يثير بها الجلبة حول الموضوع، ولأنّه يُهلّل للكيفية التي أجهز بها الجنرال سانتا آنّا(9) على المدافعين التعسين عن ألامو(10)، بعضهم في المعركة والبقية بِحزٍّ رقابهم، موتوا أيّها الكلاب، فالاستسلام ليس سببًا للعفو عن المتشرّدين الذين يسرقون بلدنا؛ يروي بتلذذٍ كيف كدّس المكسيكيون جثث الغرينجو، وراكموها مثل حطب الموقد وأشعلوا نارًا عظيمة كانت فيها شُعورهم أول ما علقت به اللهب؛ يراقب ماتوس كيف ينقسم طلابه إلى مجموعات، الجبناء، وهم الأغلبية، والمتحمّسون، بالكاد ثلاثة أو أربعة. يعرف أنه سيواجه بعض المشكلات هذا الصباح لأنه دعا طلابه يوم الجمعة بالجبناء والخونة؛ أنتم حاليًا أيّها الصغار

تولدون انهزاميين، عاجزين عن رفع سراويلكم، غير قادرين على حمل بندقية إن لم تكن لعبة. وقف أحدهم، اسمه آريتشاڤاليتا، وقال إنه في الولايات المتحدة لا تملأ الشوارع الحفر، والملابس أجود وأرخص، والأجهزة الإلكترونية حقًا تعمل، والحكومة لا تسرق، وأن حالهم كان يمكن أن يصير أفضل لو أن الحدود لم تقف عند ريو غراندي بل أبعد إلى الأسفل، جنوب مونتيرّي، وهكذا سنصير من الغرينجو وأجورنا تدفع بالدولار و... توقّفَ لأن ماتوس قبض عليه من أذنه وألقاه خارج الفصل.

الآن، تحديدًا على تلك الخريطة، يمكنه رؤية الانتقام الأول. رسم أحدهم خطًا بحبر أحمر سميك فوق الحدود التي تمرّ عبر ريو غراندي، مع عبارة تقول: افهم، يا ماتوس، هذا الخطّ هو حيث تنتهي المكسيك. الخطّ جميل، والفواصل في مواضعها الصحيحة، ليس هناك أدنى شكّ في ذهن ماتوس أن آريتشاڤاليتا هو مَن كتب ذلك. مخذولًا، يسند مرفقَيه على المنضدة. كان يفكّر بأن يستهلّ اليوم باختبار قصير، سؤال واحد فقط: لمن تنتمي ولاية تكساس؟ واستنادًا إلى الأجوبة، سيتمكّن من التمييز بين الخانعين والحالمين، وبين الخائفين والأبطال، أو، عوضًا من ذلك، سيجد أنّ الإجابة موحّدة لديهم جميعًا.

يسمع ماتوس وقع أقدام. لا حاجة به لرفع رأسه لكي يعرف أنّه المدير.

*

انتهى سانتياغو ورامون من غناء النشيد الوطني وابتعدا عن الجثّة. وسرعان ما ركنت سيارة المفرزة إلى جانب الجادة، ونزل منها شرطيّان على عَجَل، وتركا بابَيها مشرعَين. لم يجدا مشكلة في العثور على المتوفّى، في البقعة التي لا يسطع فيها ضوء قمر على القضبان. يتحرّكان باتجاه البقعة، يتحدّثان في أمر لا يستطيع سانتياغو ولا رامون تبيانه. أحد الرجلين في الزيّ العسكريّ يصدر ضحكة ويسحب مسدسه متظاهرًا بأنه سيطلق رصاصة الرحمة. الآن كلاهما يضحك. سانتياغو يلعنُ القطارات المكسيكية، التي تزحف على طول الطريق

مثل أكوام من القمامة، ويودُ لو أن قطارًا يابانيًا يظهر على المسار في تلك اللحظة تحديدًا ليفاجئ الرجلين، ويقتل ضحكهما. ينحني أحد رجلي الشرطة ويأخذ الميدالية بين إصبعيه. لا تلمسها، يقترب رامون ويعتذر من فوره للهجته المتسلّطة، فهو يعلم أنّه كان من الأفضل لو قال من فضلك. يعيد الشرطي مسدسه إلى جرابه ويمشي نحو رامون وسانتياغو. هل تعرفان هذا الرجل؟ أومأ رامون دون رغبة في إهدار الكلمات على رجل شرطة متواضع؛ هو يفضّل التحدّث إلى الصحافة، أمام ميكروفون، حتى يُسمع صوته من الساحل إلى الساحل. من كان هذا؟ يسأل الشرطي. أحقًا لا تستطيع التعرّف عليه؟ يقول سانتياغو، وهو يلكزه، ويسمح بضع لحظات بالمرور قبل أن يكمل: إنه إغناثيو ماتوس، الجنرال إغناثيو ماتوس، ابن هذه المدينة، المدافع عن بلدنا، آخر الأبطال الوطنيين، منقذ الوطن الأم.

يغيّر الشرطي سلوكه، فهو لم يعد يبتسم أو يبدو متعجرفًا، على أن الشك في تقاسيم وجهه يُظهر أنه لم يسمع عن الجنرال ماتوس، يتحوّل إلى رفيقه ويبدأ في إعطاء الأوامر: لا تلمس شيئًا واطلب سيارة إسعاف من أجل رفات الجنرال، أخبرهم أن يتعجّلوا لأنّ قطارًا آخرَ قد يكون في الطريق.

*

إنّهم يقدّمون اليوم حلوى جيلو خضراء. يلتهمها كومودورو في ملء ثلاث ملاعق ويترك طبقه البلاستيكي يسقط عن الطاولة لإظهار أنه أول من فرِغ. بينما ميلاغرو لم يقم حتّى بتذوّقه، قام بمحاولتين، وفي المرتين يُسقط اللقمة المرتعشة قبل أن تصل إلى فمه. قرّب رأسك من الطبق، تخبره أثوثينا، ليس مهمًا إن كنت تأكل مثل كلب، فإنّ الأهمّ ألا ينتهي بك الأمر إلى الجوع. لقد انتهيت، يُعلن كومودورو. في ما مضى كنتُ قادرًا على القيام بذلك، يضع ميلاغرو الملعقة على الطبق، لم اعتد إسقاط الأشياء. الآن لا يسمحون لي حتى باستخدام كؤوس الزجاج أو المقص. يلتقط كومودورو البدين الملعقة ويقدّم له الطعام كما لو أنه

يقوم بتلقيم طفل. يزم ميلاغرو شفتَيه بإحكام ويقول لا. الجميع يجدون الجيلو صعبًا. تدنو أثوثينا من ميلاغرو وتقرص أنفه مغلقة إياه بأصابعها لكي يفتح فمه. ويلقمه كومودورو الجيلو، متحسرًا لأنّه ظنّ أنه سيحصل على طبقي حلوى. أكلت الخبز دون أيّ مشكلة يوم الجمعة. أعلم، لكن الخبز لا يتطلّب أي مهارة خاصة. فهو ليس تمامًا مثل تقطيع اللحوم. ميلاغرو يأكل ما تبقّى من جيلو دون اضطرارهم إلى قرص أنفه. كومودورو يشعر بالارتياح من خاطرة أن صديقه لن يكون قادرًا كذلك على رفع أحجار الدومينو؛ إذ يجب على أحدهم أن يكون في آخر الطابور وهو مسرور لأنه لن يكون هو. من الجائز أن يتخلّى ماتوس عن ميلاغرو من التسويغ الأولى، فما الفرق إذا كان المرء يعرف الأرقام ودلالة النقاط السوداء إذا كان غير قادرٍ على صفّ سبعة أحجار وظهورها لخصمه، والدومينو تتطلّب يدين ثابتتين أكثر من عقل مميز. الثلاثة في الفناء لأنّهم لا يريدون الاستماع إلى القصة اليومية. تمكّنوا من رؤية المعلمة داخل الفصل تلوح بسيف خيالي بذراعها اليمنى؛ معظمهم منتبهون، عدا سيريّو الذي يُرولّ(11) وهو مغمض العينين.

يمشى الثلاثة إلى البوّابة الأمامية لرؤية ما يجري في شارع هيدالغو. تتوقّف إحدى الحافلات في محطّة لالتقاط امرأة تحمل أكياس بقالة وتنطلق وهي تتقيّأ الدخان الأبيض. هذه الحافلة ستندلع فيها النيران، قال كومودورو، ولن تتمكّن المرأة من الخروج. ماذا تحمل في الأكياس؟ تسأل أثوثينا. نصف كيلوغرام من لحم الخنزير، عشرة نقانق، وعاء من القشطة وآخر من القهوة، سكّر، خيار، طماطم، ورأس من الخس. ودفتر مفكرة أيضًا، قال ميلاغرو. وأنت ألن تنقذها؟ لا سبيل لذلك، أجاب كومودورو، لأن الحافلة قد انطلقت بعيدًا، وبحلول الوقت الذي أصل إليها، ستكون المرأة شحمًا له نشيش. ستحاول الهروب مثل الآخرين، لكنها لن تُفلِت أكياسها أبدًا، ولذلك ستشغل حيّزًا أكبر في الممر، ثم يضيق الناس ذرعًا، فيجادلها رجل بشراسة ثم يطرحها أرضًا ليعبر الآخرون فوق ظهرها.

سيحترق شبشبها(12) أولًا وهي تصرخ، لكنها لن تستطيع النهوض لأن وركيها محشوران بين المقاعد. ثم ستمسك النار بثوبها ويسمعها الناس خارج الحافلة تطلب المساعدة، وحتى لا يكون موتها مأساويًا ستدس المرأة يدها في إحدى الأكياس وتقضم خيارة. يبدو لي الأمر أكثر مأساوية إذا أكلت خيارة، قال ميلاغرو. في البداية بدت لي فكرة جيدة أن تحترق المرأة، بينما الآن، ونصف جسدها غارق في اللهب وهي تأكل الخيار، تعتريني رغبة في البكاء. هذا ما أراه أنا أيضًا، أثوثينا تمسك السور المطلّ على الشارع، إذا كنت لن تنقذها، دعها تحترق دون مضغها أي شيء.

كومودورو البدين لا ينصت لهم لأنه تبيّن ماتوس للتوّ عبر الشارع. إنه يسير ورأسه مطأطئ وليس على وتيرته المتغطرسة السريعة المعتادة. ربما يكون حزينًا لأنه يعشق المرأة في الحافلة.

*

يتصل ماتوس على رقم سانتياغو ويحصل على إشارة الانشغال. يأخذ جرعة من زجاجة البراندي، مع أنّ هذه الساعة الملتبسة تفاجؤه بأنّ الوقت مبكر جدًا للدخول إلى حالة سكر. نفسه تُحدّثه بمحاولة الاتصال مرة أخرى. إذا حصل على الإشارة المشغولة مرة أخرى، فسوف يتصل برقم رامون. يخطئ أثناء تدوير القرص وتنزلق سبابته قبل أن يتمكن من إكمال الرقم. يحوي رقم سانتياغو على تسعتين وصفر، ويجب عليه إدارة القرص بالكامل ثلاث مرات تقريبًا؛ من الطبيعي لإصبعه المتورّم المتعرّق أن ينزلق من أيّ من الفتحات. قال ذات مرة لسانتياغو إن الرجل الذي صمم أجهزة الهاتف لا يحسن العدّ لأنه وضع الصفر بعد التسعة، وهذه مشكلة وقت بقدر ما هي مشكلة نظام، فطلب الرقم واحد يستغرق حوالي ثانية واحدة، أخذًا في الحسبان دوران القرص إلى الأمام والخلف، في حين أنّ الصفر يستغرق خمس ثوانٍ؛ ولمّا كان جميع أرقام هواتف الخدمة في هذا البلد تبدأ بالصفر، فإنّ النتيجة النهائية هي أنّ ملايين

الساعات تضيع كلّ عام في انتظار أن يتوقّف القرص عن الدوران. حتى في حالات الطوارئ، عوضًا عن عدد صغير من الأرقام، مثل واحد ثم واحد، عليك الاتصال بالرقم صفر ثم ستة، وبناءً على ما يحدث، قد ينزف الشخص المصاب حتى الموت، أو يحترق المنزل، أو يهرب اللّص، بينما يكون قرص الهاتف لا يزال يكمل رحلته. قبل محاولة معاودة الاتصال بسانتياغو للمرة الأخيرة، يتّصل بصفر ثم ثلاثة. يخبره صوت المرأة أنها الساعة الحادية عشرة وسبعة عشر دقيقة. يأخذ جرعة من الزجاجة ويلاحظ كم هو رائق. جميل أن تستمع إلى صوت امرأة. ولاختبار اليقين في إصبعه فقط، اتصل بالرقم ثانية. الصوت نفسه يخبره أنها لا تزال الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة.

*

وَقِّغ فوق الخطّ الأيسر، قال المدير، مشيرًا إلى المكان بسبّابته. ينظر ماتوس إلى الخطّ، شريط أسود بطول خمسة أو سبعة سنتيمترات. كان يتوقّع على الأقلّ أن يرى اسمه مكتوبًا أدناه، حتى دون لقب المعلم. لا يحتاج إلى قراءة المستندات. يمكنه إدراك معناها من طريقة المدير في النظر إليه، في الطريقة الرسمية التي طلب بها منه أن يدخل إلى مكتبه، وبخاصة الطريقة الودية التي عرض بها عليه مقعدًا. هل هذا كلّ شيء؟ يرسم ماتوس خطًّا على الصحيفة التي على الطاولة، يريد التأكد من أن الحبر يتدفّق من بداية توقيعه. ماذا توقّعت؟ أنني سأحتملك كما في كل عام؟ تخيّلتُ أنّ لدينا اتفاقًا؛ تتظاهر أنت بالانزعاج، وأعدك أنا بإصلاح شأني. هذا العام مختلف، يا سيد ماتوس، يقف المدير ويدير له ظهره. آخر شيء نريد فعله في هذا الوقت هو إثارة الأطفال. مونتيرّي منطقة مسالمة، تعمل بجدّ، ولديها قيم، لا أفكارٌ هوجاء طائشة؛ لا نريد لما يحدث في العاصمة أن ينتقل إلى هنا، حيث الكثير من الطلاب لا يتعلّمون ويخرجون إلى الشوارع وهم يصيحون بالشعارات. يدورُ حول المكتب ويقف وراء ماتوس ليضع يده على كتفه في لفتةٍ يقصد بها أن تكون أخوية. إلا إنها تضايق ماتوس فيهزّ

جسمه ليتخلّص من التلامس. نبرة المدير تصير أقلّ ودية. أفكارك غير متّسقة مع الزمن، ليس من الجيد إيقاظ دوافع عنيفة لدى الأطفال. إنها ليست أفكاري، يقول ماتوس، هي في النشيد الوطني وكلّ يوم اثنين نجعلهم يقسمون بأنهم جنود جاهزون للقتال ضدّ العدو، كلّ ما أطلب منهم فعله هو أن يحافظوا على عهدهم. أتمنّى لو أني أستطيع إيقاظ بعض الاندفاع في نفوسهم، لكنّني قضيت نصف حياتي في سرد خسارة تكساس، وكلّ عام يكون الطلاب أكثر تبلّدًا في المشاعر. آريتشاڤاليتا قال في الصفّ يوم الجمعة... والدة آريتشاڤاليتا تحديدًا هي التي اتصلت بي، يقاطعه المدير. لقد تجاوزتَ حدود درس التاريخ، يجب عليك الالتزام بالتواريخ، الأسماء، الأحداث. وكلّ ما هو خارج الكتاب المدرسي فهو سياسة، ولا يذهب الأطفال إلى المدرسة لينهمكوا في السياسة. اتهمَتك السيدة آريتشاڤاليتا بتحويل المدرسة إلى وكر للشيوعيين. لم يكن عليك الحديث معهم عن تلك الحرب أو جعل الولايات المتحدة تبدو وكأنّها عدوّنا، كل ما كان عليك فعله هو أن تخبرهم أن سانتا آنا باعهم الأرض. من الأفضل أن تُبغض رئيسًا ميتًا على أن تكره جيراننا في الشمال. ينفجر ماتوس ويرفع صوته في ثورة للكرامة. أعتقد أنه من واجبي إبلاغ الطلاب... لكن المدير يرفع صوته أكثر. المدرسة مكان للتشكيل، لا الإحاطة، لذا وقّع مرة واحدة وأخيرة وواجه حقيقة أنك، مثل المكسيك، خسرت الحرب. ماتوس يخربش اسمه بغضب، ويده مرتعشة جدًا حتّى إنّه لا يتعرّف على توقيعه.

يدقّ الجرس. صراخ الأطفال الذين يركضون ليصطفّوا في التشكيل يأتي من النافذة. يلاحظ ماتوس مقدّمة فصله كلّما سمحت له الستارة المهفهفة في الريح؛ آريتشاڤاليتا يقف متقدّمًا الطابور. إنه متّقد، ويبدو فخورًا، واعٍ للغاية بالكيفية التي تمكن بها هو وأمّه من طرد ماتوس، ليس هنالك من شكّ بأنّ المجموعة لا ينبغي تركها مهجورة، فالآنسة دومينغِز تطلب بالفعل من الأطفال أن يكونوا هادئين، ويقفوا باستقامة، ويسيروا إلى الفصل بطريقة منظمة.

سأذهب لوداع للأطفال، قال ماتوس. ابتسم مدير المدرسة. لن يكون ذلك ضروريًا، فالآنسة دومينغِز تشرح لهم في هذه اللحظة أنّك لن تعود. إذن سأذهب إلى الفصل لأجمع متعلّقاتي الشخصية. كلّ شيء في انتظارك عند بوابة الخروج، بما في ذلك خريطتك العتيدة. خَطَا ماتوس إلى خارج المكتب. مخمّنًا أنّ المدير يعرفه جيّدًا، فهو لم تكن لديه نية لتوديع الطلاب، بل كان سيقبض بحنق على أُذن آريتشاڤاليتا مرة ثانية.

*

رأيتك تتجوّل في منتصف النهار. نعم، يا كومودورو، تركتُ المدرسة باكرًا اليوم. كنتَ تبدو حزينًا. نعم، حزين قليلًا. هل هو بسبب المرأة التي ماتت في الحافلة؟ ماتوس يمسّد شعره. يغادران شارع هيدالغو، ينحرفان يمينًا ليسيرا في شارع ديغويّادو. هناك محطّة وقود في نهاية هذا الحيّ، ينتقلان إلى الجانب الأخر، فالرصيف اختفى ولا شيء هناك غير السيّارات جيئة وذهابًا والسائقين في عجلة من أمرهم طلبًا للبنزين الأحمر أو الأخضر أو الأصفر. بمجرّد تجاوزهما محطة الوقود، يعودان إلى الرصيف الأيمن ويدخلان السوق. يرى كومودورو أنّ هذا لا بدّ وأن يكون آخر مكان زارته المرأة إذ لا يوجد أيّ مكان آخر بالقرب يبيع أغراض البقالة. يتمشّى بين صفوف الأرفف بينما يضع ماتوس منتجات مختلفة في سلّة. يبتسم عندما يكتشف علبًا من مسحوق الجيلو الأخضر: الجيلو في الصورة جامد، ميلاغرو يمكنه تناوله دون صعوبة. يلتقط علبة ويأخذها إلى ماتوس، الذي يقول من فوره لا. الأوقات القادمة صعبة، علينا أن نقتصد. يومئ كومودورو البدين، ويقول حسنًا، لكنّي أظنّ أن لدينا ما يكفي من المال لحبّتي خيار. يتظاهر بأنّه سيعيد الجيلو إلى مكانه، وفي منتصف الطريق، حيث لا يراه أحد، يدسّه في بنطاله. احرسيني، أيتها السيدة الطاهرة، من أيّ عين تراني. يعود ماتوس إلى موضع الخضار، ويتحقّق من أن الخيار رخيص ويضع اثنتين في السلة، مستغربًا متى بدأ كومودورو في الميل إلى مثل هذا النبات القبيح.

*

محطة البنزين لا تزال هناك، على تقاطع شارع الأب مييير وديغويّادو؛ أما السوق فلا. أغلقوها في السبعينيات، عندما قدمت السلاسل التجارية الكبرى إلى مونتيرّي. وعلى أن غالبية المنازل في المنطقة انتهى بها المطاف بتحويلها إلى مكاتب، أو مدارس، أو مطاعم، أو عيادات أطباء، فلا يزال هناك أشخاص اليوم يتذكّرون ماتوس. بعضهم لم يعرفه باسمه. فقط يقولون إنهم سنوات عديدة، في كلّ يوم تقريبًا، كانوا يُشاهدون رجلًا يركض عبر الحيّ ويقوم بدورة أو اثنتين أو أكثر حول الشارع الذي يطوق تلّة أوبيسبادو. لم يكن الجري شائعًا في تلك الأيام، كما تقول السيدة أوليفيا مورغويزا، وهي جارة من شارع ديغويّادو، ولهذا كان على المسكين احتمال السخرية والإهانات وبعض الأشياء التي تُرمى اتجاهه أحيانًا. شعرتُ بالأسى عليه، على أنني صحت عليه في يوم من الأيام بكلام سيّئ، شيء يتعلّق بقدمَيه. كنت مجرّد فتاة صغيرة، لا بدّ وأنها كانت الخمسينيات، كنت مع مجموعة من الأصدقاء، ودائمًا ما تمتلك شجاعة أكثر عندما تكون جزءًا من حشد. لكنّه لم يكترث، حتّى إنّ بعض الناس قالوا إنّه أصمُّ لأنّه لم يكن يردّ قطّ على الاستفزازات. وفي يوم ما توقّف عن المجيء؛ قالوا إنّه مات، لكنّني لا أتذكّر متى كان ذلك.

إدواردو إسبينا، الذي يقطن أيضًا في الحيّ، كان أكثر إيجازًا. كان اسمه إغناثيو ماتوس، قال، ولم يكن مجرد عدّاء، بل كان عدّاء مسافات طويلة، أولهم في هذه المدينة. أظنّ بأنه ذهب إلى الأولمبياد.

*

كان الظلام قد حلّ بالفعل عندما سمع كومودورو طرقات ضعيفة على الباب وهرع إلى الإجابة. لقد تأخّرت، قال وهو يأخذ ماتوس من ذراعه لمساعدته، ظننت بأنك أُصبت بنوبة قلبية أو أن أحدهم دعسك. على العكس من ذلك، قال ماتوس، لم أشعر بمثل هذه الصحة منذ وقت طويل. ركضتُ مثل صبيّ، وربّما

أفضل، اليوم كنت صبيًا بينما كنتُ أجري. يتفحّصه كومودورو بعينيه، غير قادر على إيجاد أيّ أثرٍ لذلك الصبي. وبصرف النظر عن ابتسامته الجديدة الغامضة، يبدو ماتوس وكأنّه الرجل العجوز نفسه كما كان دائمًا، على حافّة الانهيار. أجل، يقول، تبدو أصغر من المعتاد. يسيران معا عبر الصالة صوب غرفة المعيشة. الخيارتان وزجاجة من الجعة على الطاولة. أظنّها دافئة الآن، يقول كومودورو، أخرجتها منذ ساعة. يجرّ ماتوس نفسه لأنّ عضلاته تتصلّب، ويغوص في الأريكة وهو يئنّ. في المرة القادمة التي تخرجُ فيها للجري، يشير كومودورو إلى الخيار، خذ واحدة من هاتين. إذا دهمتك نوبة قلبية حقًّا، يجب عليك أن تعضّ عليها. ربّما سترتخي ساقاك وتقع على وجهك، ولكن لا تحاول وضع يديك على الأرض، فلربّما تكون ميتًا قبل ذلك. الخيار أولًا. ماتوس يزدرد الجعة في جرعة متّصلة طويلة، وهو يشعر بالإرهاق والسعادة معًا. في بعض الأحيان، يا كومودورو، أنا لا أقهر عندما أركض، على الأقلّ بضع لحظات أستمتعُ باليقين بأنّني لا أقهر، وأنني في العشرين، وأنني محبوب؛ عندما أركض، أستطيع الصبر على سخرية المشاة وسائقي السيارات لأنني أعرف أن قبضتي يديّ يمكنهما تحطيم وجوههم. لبضع دقائق، بعد تعب الكيلومتر الأول، تصبح عضلاتي خفيفة وأتوقّف عن اللهاث، ثم أصبح شخصًا مختلفًا عن ماتوس المعلّم، أصير بطلًا، طائشًا، وأنّني قويّ وأفعالي ليس لها عواقب؛ أستطيع ركل آريتشاقاليتا، أسحقه واستمتع بصراخه، أعبر الشارع وأجبر السيارات على التوقّف وأسمع المزيد من الإهانات والتزمير، وعلى النقيض من أثر الكحول، لا يمرّ شعور العظمة من خلال دماغي المسدود إنّما عبر صفاء أفكاري. تمضي تلك اللحظات، ويصير جسدي متعبًا، وأرجع مرة أخرى ضئيلًا، شائخًا، ضعيفًا، وكلّ مفاصلي تؤلمني أكثر ممّا كانت تفعل قبل أن أخرج إلى الجري. ومع ذلك فالأمر يستحقّ العناء لأنه تركني مع ذكرياتٍ من شبابي ووعدٍ قد يحلّ في أيّ يوم، ربّما غدًا، وسأكرّره مجدّدًا. لبضع لحظات، يا كومودورو، أنا شابّ وقويّ، لبضع لحظات فقط. سلفًا توجد زجاجة أخرى على الطاولة يفرغها ماتوس في بضع رشفات. يربّت على الأريكة داعيًا كومودورو

للجلوس بجانبه، لكن البدين يرفض العرض. اليوم استمرت تلك اللحظات وقتاً أطولَ، اليوم حدّدت بصري حتى أتمكّن من تجاهل عضلات ساقي، وجِلد ذراعيّ، حتّى إنني تمكّنت من القيام بعشر أو عشرين خطوة واسعة مغمض العينين؛ ثم جاء الليل وكان الأمر كلّه أسهل بكثير. اليوم امتدّت الدقائق إلى أكثر من ساعة، يا كومودورو، أو اثنتين، لم أركل آريتشاڤاليتا ولا ذهبت إلى السرير مع الفتاة ذات الساقين الممتلئتين ولم أسحق أية رؤوس. اليوم رأيتني أقود جيشًا من آلاف الرجال، في طريقنا إلى تكساس، موحلة أحذيتنا، مُتَمتمِين بأغنية. يُدرك كومودورو أنّ الوقت قد حان للجعة الثالثة فيتّجه إلى المطبخ من أجلها. الخيار، صاح ماتوس، أيمكنه إنقاذ حياتي؟ الجواب لا يأتي من فوره. أولًا ثُوصد الثلاجة ويقع غطاء زجاجةٍ على الأرض. لا، يُجيب كومودورو، سوف تنهار في الشارع ويحيط بك الفضوليون بسرعة؛ من الأفضل لك قضم الخيار. الجعة باقية دون مساس. يغلق ماتوس عينيه ويسند ظهره مبتسمًا ذات الابتسامة التي كانت تعلو وجهه عند عودته، شادًا على قبضتَيه، مطمئنة أنفاسه. أما زلت ترى ذلك؟ يسأل كومودورو وهو يُطفئ الضوء. يعرف أنّ الرجل العجوز سيبقى على الأريكة إلى الفجر. سوف نعبر ريو غراندي، يقول ماتوس هامسًا، وهذه المرة لن نُهزم.

*

يُنهي ماتوس صنع ملصقه ويثبّته بمسمارين على جدار غرفة الطعام. ثم يتراجع على طول القاعة تجاه الباب الرئيس. يعلم أنه على بعد سبعة أمتار تقريبًا من هذه النقطة؛ وهو راضٍ بأن العنوان والخاتمة مقروءان. ينادي على كومودورو وعندما يقف إلى جواره يسأله ماتوس عن رأيه بالملصق، وهل يرى بأنه سيلاقي النجاح؟ خلوّه من المسامير في الجزء السفلي يجعل الملصق يبدأ في الالتفاف. ينظر كومودورو إليه بضع ثوانٍ، دون أن يوليَه الكثير من الاهتمام. هل تسخر مني؟ أنا لا أطلب منك أن تقرأه، مثلما لا أطلب منك كم يبلغ حاصل ضرب خمسة في خمسة؛ أنا أتحدّث عن الفنّ، الألوان، النسب، الحجم. إنّها مجرّد

كلمات، لذلك لا تسألني عمّا إذا كانت تبدو جميلة؛ لا يوجد جمال في الكلمات، حتى لو كتب بعضها باللون الأسود وبقيّتها باللون الأحمر، ولا حتى في الحرف O، وهو الحرف المثالي. أنت على حقّ، يا كومودورو، يبدو وكأنّه الإعلان عن اجتماع نقابة، ماذا تقترح؟ يجب أن تشتمل الدعوة إلى الحرب على سحابة نووية على شكل الفطر، لكنك لم تترك أي فراغ، مجرد شريط رفيع يكفي لسيف أو بندقية صيد حسب. يتوجّه ماتوس إلى الملصق ويرسم في أعلاه سيفًا يشبه المِحشّ(13). ما رأيك الآن؟ يسأل كومودورو، كل من لا ينخرط هو طائر طنّان يستحقّ الموت مُقطّعًا إلى شرائح بوساطة المحش، والسيف أفضل من البندقية لأنه يدلّ على القتال المتلاحم. البندقية تجعلني أتخيّل طائر الدرّاج(14) الميت. يكتشف ماتوس مساحة فارغة أخرى في الملصق فيرسم مستطيلًا متطاولًا فيه فتيل. لماذا تضع شمعة؟ يكتب ماتوس اختصار TNTداخل المستطيل وكومودورو لم يفهم أيضًا. ماذا تعني الحروف باللون الأحمر؟ التي بالأعلى تقول أيها المكسيكيون، هُبّوا إلى الحرب، أمّا تلك التي في الأسفل، الوطن الأم يناديكم. لا شك أن الكتابة لا شيء مقارنةً بالرسم؛ الرسالة من السيف تصلني، ولكن حفنة الكلمات لا تدفعني إلى الخروج إلى جانبك. يتراجع ماتوس إلى الخلف بضع خطوات ويبتسم. لدينا الآن جيش وسنقاتل متى ما طلبت الحكومة ذلك، وهو أمر لن يحدث أبدًا؛ في الماضي كان يتمّ ذلك عبر الدعوات، وكانت هنالك حرب كلّما كان الناس يبغضون الرئيس أو إمبراطور الساعة، أو إذا كانوا مستائين من أمور مثل الضرائب أو الدين. أيمكنني الانضمام؟ أخذ كومودورو وقته ليطرح السؤال، كان في ذهنه منذ اللحظة التي سمع فيها ماتوس يتحدّث عن الجيش الذي يزحف صوب تكساس. يتوجّه إلى المرآة، يتجرّد من قميصه ويعيد لنفسه عشرات المرات بأنّه يملك جسد محارب. افترضْ أنه سيُدعى، لكنّهم الآن يطلبون منه الحكم على ملصق يُدعى عَبْره كلّ الناس، وليس هو فقط. أيمكنني الذهاب؟ أريد أن أذهب، يصرّ. لا، يا كومودورو، يجب أن تبقى هنا وتعتني بالبيت، لأنه هو المكان الذي يبدأ عنده الوطن. الجواب، وإن كان قطعيًا في ذهن ماتوس، إلا

أنه يبدو ساذجًا عندما يُعبّر عنه. لا تخاطبني وكأنني أحمق، أخبرني الحقيقة. لن تذهب لأن الذي يسبب الفوضى في الدومينو لا يصلح للشطرنج العسكري. هذا الجواب يناسبني في الواقع، قال كومودورو. يلتقط القلم الأحمر لإشعال الفتيل ويصعد إلى الطابق العلوي لينفّس عن غضبه.

*

يحوم رامون بسيارته حول ميدان سرقسطة دون العثور على موقف. في المرة الثانية يجد مكانًا أمام مبنى البلدية. يمكنه رؤية ماتوس من هناك، جالسًا على مقعد قرب الكشك. الملصق صار معوجًا في الشمس والريح، وماتوس لم يفعل أيّ شيء لتسويته. ما الفائدة؟ لا بدّ وأنه يقول لنفسه، يكفيني أنني هنا، ولو أنني من بين الآلاف من الرجال في هذه المدينة لا أتمكّن من العثور على واحد لديه أيّ قدر من الشجاعة.

في الليلة السابقة، حاول رامون وسانتياغو ثنيه. ماذا تريد أن تثبت؟ أنّهم كانوا على حق عندما فصلوك من المدرسة؟ ولكن بعد ذلك دارت الخمر، انتهى الأمر بالثلاثة وهم يتغنّون بحب الوطن. ومع ذلك لم تكن البسالة في القصائد كافية ليوافقوا على المشاركة في تلك المغامرة. كلّا، يا ماتوس، نحن هَرِمون للغاية ومحطّمون، وأقدامنا لا تتقن الجريّ مثل قدمَيك. تتناوب عبارات الحرب والأفكار حول الشيخوخة عدّة مرّات مع مشاعر النشوة والأسى. وعندما أقبل الصباح، اتصلوا بالسيد إيبانييز وأقنعوه ببيعهم بنادقه القديمة. سيدفعون لي مبلغًا جيّدًا في المدرسة، قال ماتوس لكسب ثقته، وفي حال لم أعد حيًّا، فسوف أوقع رسالة تمكّنك من صرف الشيك الخاصّ بي.

يترجّل رامون من السيارة ويمشي إلى حيث يجلس صديقه، متبرّمًا. هل حالفك أيّ حظ؟ هذا الرجل كان يحدّق بي طوال اليوم، يشير ماتوس إلى رجل يبدو وكأنّه دركيّ، أراهن أنّه هو من أخاف زبائني. ربّما في وقت آخر، قال رامون، ربّما عندما تنتهي الألعاب الأولمبية(15) ويصير كلّ ما يتعلّق بالسلام

والأخوة بين أمم العالم موضة عتيقة. ينزع ماتوس الملصق ويلفّه. يمرّ بهما صبيان يجريان ويسمعان أحدهما يضحك. ماتوس واثقٌ أنهما يسخران منه. قبل مئة وعشرين وبضع سنوات خلت، كانت هذه الساحة مليئة بجنود الغرينجو المدجّجين بالأسلحة. لحسن الحظّ لم أشهد ذلك، فمن المهين أن يعطي جيش غازٍ الأوامر في مدينتك. هذا صحيح، يا ماتوس، إنه مهين، لكن ذلك كان منذ زمن بعيد فلا أحد يتذكره والقليل يدرسونه، لذا فلننسَ الأمر ودعنا نمنح كومودورو البدين فرصة أخرى. فلعلّه اليوم يلعب الحجر الصحيح. نَقَدَني رجلّ قطعتي بيزو(16)، قال ماتوس، ومدّ يده في جيبه ليخرج العملتين المعدنيتين. تقديم بعض المال يعني شيئًا ما، إنها وطنية الجبناء. قال، هاك، يا صاحبي، هذا سيسدّد ثمن رصاصتين، وليست أيّ رصاصتين، أؤكد لك أنني سأشتري تلك التي تصيب الغرينجو في الجبهة. كان عليّ أن أقذف بالقطع النقدية عليه، ولكن بعد ساعات طويلة من تجاوز الناس، بدا لي أن أخذ أحدهم لي على محمل الجدّ انتصارًا. قال رامون، اثنين بيزو لا تعني أنّه يأخذك على محمل الجدّ، بل هي إهانة أكبر من التجاهل.

بينما هما يشرعان في ركوب السيارة أقبل صوبهما الدركيّ. هل تخطّط للمجيء غدًا؟ هزّ ماتوس رأسه أن لا. ذلك أفضل، قال الرجل، لأنهم سيرسلون بي لأراقبك طوال اليوم. أمرني رئيسي: اتركه وشأنه إذا لم يكن أحدٌ يهتم به، فهو مضطرب، ولكن إذا قام بتجنيد أي شخص فسوف يتعيّن عليك القبض عليه، لأن ذلك سيكون بمثابة إشعال فتنة. هل تهدّدني؟ لا يوجد أي تلميح بالغضب في صوت ماتوس كما يستدعي مثل هذا السؤال. يهزّ الشرطي كتفيه، إشعال الفتنة، يا لها من عبارة، قمت بالقبض على السكارى، واللصوص، وقاتلًا ذات مرة، لكن جريمتك لم آلفها. خذ، أيها الرجل الطيب، يعطيه ماتوس قطعتي البيزو، لقاء المتاعب التي سببتها لك. من غير المهم ما إذا كان المال مزحة أم تبرعًا، في كلا الحالين فالرجل الذي أعطاني إياه قد ربح، وحتى لو مررت به في مناسبة أخرى، يمكنه أن يثير الأمر بالقول: أعطيتك اثنين بيزو فماذا فعلت بهما؟ لم أر شيئًا

في الأخبار عن أيّ غزو للولايات المتحدة، ولم أقرأ شيئًا عن جنديين قتيلين، أطلقت رصاصة فضيّة حقيقية من بنك المكسيك علي كليهما. لا يا سيدي لأن الحرب لم تقع قطّ. إذن رُدّ إليّ نقودي، مع الفوائد والعمولة على الخديعة، وأدنى ما سأقبل به هو عملة أولمبية، تساوي خمسة وعشرين بيزو، سيدي، ألا تظنّ أنّ هذا كثير؟ أوَلا تظنّ أنت أنه من الكثير الإبقاء على هذين الغرينجو على قيد الحياة؟ يطرق ماتوس برأسه شاعرًا بالعار. الآن قد دُحِر، في الحرب والحياة، لم يبقَ له شيء سوى الوصول متأخّرًا. ليس لديه طلابٌ ولا جنود ولا حتّى طلقة بداية. يزعجه تخيُّل انطلاق الألعاب الأولمبية في غضون أيام قليلة، وكما هو معتاد، فإنّ الغرينجو سوف يتفوّقون على جميع منافسيهم، ثم مرة أخرى سوف يلوح علمهم في الهواء في العاصمة المكسيكية، مثلما فعل جيشهم(17) في عام 1848، وسوف يرفعون أصواتهم مرارًا وتكرارًا بنشيدهم الوطنيّ، ما يدفع الناس للوقوف والتحية، وستضطرّ البلدان الأخرى للاكتفاء بالمركز الثاني أو ما هو دون، والمكسيك تنحدر أكثر نحو الحضيض حيث يقدّمون الفتات.

ليس اليوم، قال ماتوس، لا دومينو ولا فرصة ثانية لكومودورو.

تمضي السيارة بعيدًا، مُخلّفةً الشرطي مبتسمًا، قابضًا على النقود المعدنية في راحة يده.

تعلو دمدمة السيارة، وصوت صفق باب. فيزيح كومودورو الستارة ليلقي نظرة إلى الخارج. تمضي السيارة، تاركة ماتوس واقفًا في وسط الشارع، مع لافتته مطويةً تحت ذراعه. يظلُّ واقفًا هناك، كخيالِ جامدٍ داكن، إلى أن تدفعه أضواء سيّارة لينتقل إلى الرصيف. هل غمزت السنارة؟ يسأل كومودورو من النافذة. يلِجُ ماتوس ويرمي اللافتة على أرضية المدخل، ويسير ببطء نحو غرفة المعيشة، مُنسابًا بحذائه المُترب، ويتّكئ على الكرسي بقدمٍ واحدة في الهواء، والثانية على الأرض. يدنو منه كومودورو وينحني بجانبه. هل تريد أن تثمل؟ يُقبّل ماتوس يده ويداعب بها خدّ كومودورو. لقد حان الوقت الآن للإشادة،

لذبح عجل والاحتفال، قال، مباركٌ أنت، يا كومودورو البدين، لأن السماء وهبتك اليقين بعدم التقدّم في السنّ.

*

تطلب المعلّمة منهم أن يحافظوا على هدوئهم، فلديها بعض الأعمال التي تهتمّ بها في الإدارة، ويمكنهم تناول أقلامهم الملوّنة ورسم شيءٍ إذا رغبوا بذلك، أو يمكنهم أخذ غفوة، لكن تناول الطعام أو مضغ العلكة أو سرد قصص الأشباح ممنوع. بمجرد أن تختفي عن الأنظار ولا يعود من الممكن سماع صوت كعبها العالي، يذهب كومودورو البدين إلى مقدّمة الفصل حاملًا لافتة ماتوس المطوية. أيّها السيدات والسادة، لقد حُكم علينا بالدمار، ولم يبقَ أمامنا سوى القبض على الغرينجو، وبين إصبعي الإبهام والسبّابة في يده اليمنى يمسك بالعذراء الطاهرة، حجارة الدومينو مزدوجة البياض(18). معظمهم يتحدّثون، عدد قليل منهم فقط يستمع لخطاب كومودورو حول الحاجة إلى حمل السلاح، والدفاع عن البلاد من زمرة البرابرة الذين يعيشون شمال ريو غراندي. هم ليسوا مثلنا، يقول، يلوح بذراعيه كالواعظ، يُشير إلى صدره عندما يقول لنا، لا مثل الآخرين. يداه الآن ترسمان نصف دائرة في الهواء، لا يوجد أي شخص مستنير هناك. فهم يستخدمونهم للتجارب، وإذا كان أحد منا سيعبر الحدود، فعليه أن يدرك أنه سيموت، أو حتّى أسوأ من ذلك، أن يؤخذ إلى الأسر وينتهي به المطاف في معمل حيث سيربطون الأسلاك إلى رأسه ويسقونه الحليب المشعّ. تضع أثوثينا لعبتها وتطلب من أوبالدو الانتباه. وأخيرًا هذا رجل حقيقيّ، تخبره. في هذه الليلة، قبل أن أغفو، سأتخيّل وجود كومودورو في سريري، مرتديًا اللون الأخضر معتمرًا خوذة معدنية، هامسًا بكلمات في أذني مثل "البرابرة" و"الدفاع عن الوطن" و"أسير". هذا لأنك امرأة، نحن الرجال لا تحرّكنا الكلمات؛ إذا أراد الولد البدين إقناعنا فعليه القدوم بمسدس وإطلاق عدّة رَصاصات على السقف. علينا أن نستعدّ لبذل أرواحنا، يقول كومودورو، ترفع أثوثينا حاجبيها وتسأل أوبالدو

إذا كان قادرًا على قول أشياء كهذه. يلتقط علبة ألوانٍ ويرسم بسرعة صورة صبي بدين ممدّدًا بين الأشجار؛ عيناه صليبان ولونٌ أحمر يتدفّق من بطنه. الشهيد كومودوريس، قال عندما انتهى، حوالي عام 1968. صعد ميلاغرو على نضد، وصالب ذراعيه على امتدادهما وعيناه مغمضتان، مهمهمًا بنغمة مهيبة. تُلقي طائرته خمسة قذائف: ثلاثة منها تسقط في الغابة فتتطاير فروع وأوراق شجر في الهواء؛ سقط الآخران في وسط المدينة فتعالت صيحات النساء؛ رجل يلوح براية صغيرة في الهواء وهو يبكي. يرفع كومودورو اللافتة عاليًا دون أن ينشرها كاملة، مظهرًا رسم السيف فقط. ارفعوا أيديكم، أي شخص مستعد لبذل نفسه في سبيل قضية أجلُّ من قضاء اليوم في الإنصات إلى القصص والأغاني. على الفور يرفع كل من أثوثينا، وميلاغرو سبابتيهما عاليًا. أوبالدو يخبر أثوثينا أنه مستعد لمرافقتهم إذا لم يُداخل البدين الغرور. فقط ثلاثة؟ يتساءل كومودورو، وهو واقع بين خيبة الأمل والغضب. أوبالدو أيضًا، قالت أثوثينا، وأنا متأكدة لو كان سيريّو مستيقظًا لرفع ذراعه. ثم أمسكت بإصبعه ورفعتها. يا لنا من قلّة سعيدة، قال كومودورو، لأن بلد الأجداد يفضّل قبضة من الرجال الشجعان على جماعة من الجبناء. حافظوا على مخطّطنا في أقصى درجات السرية حتى نتلقى الأوامر من القيادة العليا. أثوثينا لم يعد بوسعها الصبر أكثر وتذهب صوب كومودورو وتعانقه. يتعالى صوت التصفيق فتعود المعلمة لتأمرهم بالتزام الهدوء.

*

يرن الهاتف ويتوجّه ماتوس للإجابة عليه؛ مع ذلك يظهر كومودورو في مدخل المطبخ، مسرعًا نحو الهاتف. قد يكون لي، يقول، يضع يده على السماعة دون رفعها، تاركًا صوت الرنين يغمر البيت. لا أحد يتّصل من أجلك أبدًا، يقول ماتوس، هيا أجب عليه. إن كان رامون أو سانتياغو، أخبرهم أنني لا أريد رؤية أحد اليوم، أو أعطه لي، يمكنني إبلاغهما بنفسي. تجتمع يديهما في صراع واهن

على السماعة. أخيرًا يلتقطها كومودورو. مرحبًا، مرحبًا، يقول في الهاتف بصوت صارم، أيّ أخبار؟ يستند ماتوس على عضادة الباب، شابكًا ذراعيه، ما زال يظنّ المكالمة الهاتفية له. بالتأكيد، يقول كومودورو، كلّ الأسلحة التي يمكنك وضع يديك عليها، من الأفضل إذا كانت بعيدة المدى، ولا تنسَ إحضار شيء للقتال المتلاحم. يمشي ماتوس صوبه متحيّرًا. من هذا؟ سأل. من تعرف لتتحدّث معه حول أشياء كهذه؟ يبلغه كومودورو أن يصمت واضعًا إصبعه على شفتيه، هدوءًا، من فضلك، هذا مهمّ، اذهب واجلس على الأريكة، سوف أخبرك عن كلّ شيء لاحقًا، ثم يعود إلى الإنصات إلى الصوت على الطرف الآخر من الخطّ. عُلِم، يقول، ليست فكرة سيّئة أن نأخذ معنا جَرعة من السمّ. لا أعرف، أظنّ سمّ الجرذان سيكون مناسبًا، تأكد فقط أنه في هيئة مسحوق، مع سمٍّ سائلٍ قد يحصل حادث، قد يشربه أحدنا حتى وإن كان يحمل علامة جمجمة وعظمتين متقاطعتين. مع من تتحدث يا كومودورو؟ هل فعلت شيئًا من وراء ظهري؟ أين لافتتي؟ عُلِم، ينبغي أن يتم في أقرب وقت ممكن إذا أردنا أن يكون عنصر المفاجأة في مصلحتنا. لا، لست على دراية بالطريق، ولكنه لا بدّ أن يكون على الخريطة؛ نعم، تلك الأرض لنا، كل ما يُدعى تكساس هو ملك لنا، كنت أظن الأمر قانونيًا. يصفع كومودورو جبهته براحة يده. هذا سيكون معناه انهيارنا، ويُرخي جسده، ويمسح العرق من فوق شفته، في هذه الحالة ستذهب خططنا إلى الجحيم. لا أعرف أي شيء عن مثل هذه الأمور، لكن ماتوس موجود هنا، سوف أسأله. يغطي كومودورو سماعة الهاتف بيده ويتحوّل إلى ماتوس بصوت مرتجف. هل صحيح أنك بحاجة إلى جواز سفر إلى تكساس؟

*

في تلك الليلة شعر ماتوس وكومودورو بأنهما أقرب إلى بعضهما من أيّ وقت مضى. احتضنا بعضهما بعضاً في صمت عدّة دقائق، إلى أن حان وقت النوم. كل منهما في سريره، يفصلهما عرض تسريحة بين السريرين، وهما متماسكا

الأيدي، يدغدغان بعضهما بعضًا بأصابعهما بلمسات تشبه في بعض الأحيان حركة النمل، وفي أوقات أخرى لعب أصابع البيانو أو الآلة الكاتبة، حتى يحين الوقت لأحدهما، ولن تعرف أبدًا أي واحد، سيُفلت يد صاحبه ويخلد للنوم.

*

تلتئم يداهما مجدّدًا أثناء سيرهما إلى المعهد. كلاهما مشغول بصنع الخطط، يتخيل انتصاراته، يحصي الجثث في جانب الخصم. هذه آخر مرة نشبك بها يدينا هكذا، قال كومودورو، لا يبدو الأمر صوابًا بين رفاق السلاح. لا توجد شوارع لعبورها في ساحة المعركة، قال ماتوس، بالإضافة إلى أنه يجب عليك إبقاء يديك مشغولتين في حمل بندقية أو خنجر. انتفخ صدر كومودورو وهو يسمع الكلمة الأخيرة. فالسكاكين وُجدت لتقطيع الطماطم، أما الخناجر فينتهي بها المطاف مغروزة في أجساد الأعداء. فقط تأكد بأن الناس لا يعلمون، يجب أن تُنفّذ مهمتنا في سِريّة، لا أحد من أصدقائك ينبغي له الحديث عن ذلك مع والديه أو مع المعلمين. يرسم كومودورو علامة الصليب. أعطيك وعدًا بصمتي وصمت الفوج بأكمله. يكمل الاثنان الشوارع الباقية ويداهما في جيبيهما. عندما يعبران بوينوتسيانو كارانسا(19)، لا يمكن لماتوس سوى تخيّل الولد البدين تحت عجلات سيارة ما.

*

لقد اكتشفت للتو أنك تخطط لأخذ ابني في تلك المغامرة الغبية. مع أنّ ماتوس لا يتعرّف إلى المرأة على الجانب الآخر من الباب، إلا أنه يخمّن أنها أمّ لأحد أصدقاء كومودورو. يجزّ على أسنانه ويشتم في صمت. لقد كنتُ واهمًا حين ظننت أن هؤلاء البُله سيكونون قادرين على الاحتفاظ بسرّ. تفضلي، سيدتي، يشعل ماتوس الضوء في الردهة ويقف هناك إلى جوار الباب حتى تدخل المرأة. أعرف أنك طلبت من الفتية ألا ينبسوا بكلمة، ولكن ابني يخبرني بكل شيء، إنه يفعل دائمًا لذا لا تعدها خيانة. وما إن جلسا في غرفة المعيشة قبالة بعضهم

بعضًا، حتى بدأت الثواني تعبر دون أن يقولوا كلمة لبعضهما، يحركان أيديهما، نظراتهما هائمة، وأقدامهما وأصابعها تتقلب في أحذيتهما. دعيني أحضر لنا شيئًا نشربه، يقف ماتوس ويتوجّه إلى المطبخ. يقف أمام الثلاجة المفتوحة، متأمّلًا مرطبان المايونيز. يبدأ بالتفكير في الأمهات الباحثات عن أبنائهن، باكيات ربّما أو مغتمّات أو يشعرن بالارتياح. لم يخطر له أن تظهر أحداهنّ في بيته، وأنها ستخاطبه بهدوء، فالمرأة لم تشرع بإلقاء الاتهامات، ولم تصرخ عليه أو تصفعه كما كان يتوقّع، لم تَقدِم مع زوجها أو صحبة شرطي لإرهابه. كانت فقط قد أهانته بوصف مهمته بالمغامرة الغبية، والتي، على أنها قد لا تؤدّي إلى نصر عسكريّ، فهي بالكاد تستحقّ إطلاق هذه الصفة عليها. ما إن يغلق الثلاجة حتى يدرك أنّه يحمل مرطبان المايونيز في يده. يذهب إلى الحوض ويملأ كأسين بالماء. يدخل غرفة المعيشة، بعد أن عزم على إخبار المرأة أن مهمته ليست طائشة وأن الاشتراك بها طوعي. تأخذ المرأة الكأس وتبدأ الشرب. الأمر طوعي، قال ماتوس، إن كنتِ لا تريدينه... أنا أم سيريّو، تقاطعه المرأة، وعلى أن الناس يظنون أنه ضعيف العقل، فأنا أحبّه أكثر من بقية أطفالي. المعلمون في المعهد أناس طيبون، لكنهم يخبرونهم قصص الأطفال، يتحدثون إليهم كما لو كانوا قردةً محشوة، ينظمون مسابقات لا تمثل تحدّيًا لهم، يطلبون منهم تقليد أصوات حيوانات المزرعة، يعلمونهم الخوار عوضًا عن تعليمهم الشعر؛ لا أعرف ما إن كانوا هم الذين يجعلون من ابني يُرذَل خاملًا. لا يسمح لهم المعلمون بتغيير المصباح لأنهم يقولون إنهم سيصعقون أنفسهم بالكهرباء، بينما اكتشفُ الآن أنك تريد إعطاءهم أسلحة نارية وأوامر عسكرية وفرصة لقتل العدو: مُخَطَّطًا لهجوم بدلًا من دفاتر التلوين، وخندقًا عوض الوسائد. تنحني المرأة قرب ماتوس وتُمسك يده اليسرى. أيمكنك جعله بطلًا لخاطري؟ هل يمكنك ترتيب وضع تمثال لسيريّو في يوم من الأيام في ساحة مدينة مونتيرّي، تمثال برونزي أو رخامي أو من أي نوع من المواد غير القادرة على الترويل؟ ينحني ماتوس أيضًا ويحتضن المرأة. ابنك بطلٌ من اللحظة التي قرّر فيها أن يصبح مجنّدًا، لكنني لا أملك

السلطة على التماثيل في الساحات أو أسماء الشوارع؛ حتى أنني لا أستطيع أن أضمن لك أننا سوف نعود أحياء، ولكنك على أي حال تعرفين أن الأبطال الميتين أعظم من الجرحى، وأن الجرحى أعظم من أولئك الذين يعودون سالمين، وأن أولئك الذين عادوا سالمين أعظم من الذين بقوا في بيوتهم. يضغط ماتوس على ذراعها ويسألها هل تريدينه حيًّا؟ تحرّر المرأة نفسها وتقفز إلى الوراء لتحطّ مجدّدًا في الكرسي. بالطبع أريده حيًّا، أنا لا أريدك أن تظنّ بأنني مثل والدة أثوثينا التي تحلم باليوم الذي تدعسها به سيّارة، لا تتوهّم بأنني أسلمه إليك لكي تطلق عليه النار ليلًا في أرض ما ثم تعود لتخبرني بأن سيريّو كان جنديًا جريئًا. أريدك أن تقسم لي في التوّ. ماتوس كان ما يزال جالسًا على عقبيه عندما هزّ رأسه. احلِف لي يمينًا أنه لو قدّر لابني العودة ميتًا، فسيكون ذلك بسبب قتاله ضد العدو، ولأنه كان يحمل بندقية في يديه ويداه تشتعلان من كثافة إطلاقه للنار، وأنه هتف تحيا المكسيك قبل أن يزفر نَفَسه الأخير في ساحة المعركة الغارقة بالدماء، وأن الجرائد والمؤرّخين ومؤلفي الكتب المدرسية سيسكبون الكثير من الحبر بسببه. يُمدد ماتوس ساقيه ويتجول في أرجاء الغرفة. لو لم أكن أخاطب أمًّا لشعرت بالإهانة، لكنه من المستحيل القسوة مع كلمات لا تنبع من العقل، لذا، يا سيدتي، أقول لك نعم، أقسم بذلك، ابنك سيموت في ساحة المعركة أو يعود على قيد الحياة، سيُمزَّقُ جسد ابنك إلى فتات بالسيوف أو تسحقه دبابة أو أنه سيعود سالمًا معافًا وفخورًا؛ عليّ أن أخبرك مرارًا أنه سيتعرض بلا شكّ إلى الهلاك، فالعدو قاسٍ وغفير وحاقد. أطفالي الآخرون يشعرون بالتميّز، قالت المرأة، يحصلون على درجات جيدة، يُسمنون(20) نساءهم أو يُحصون أموالهم، ولا يقدمون خدمة أخرى للوطن أكثر من تسديد ضرائبهم والتصويت كل ست سنوات. لن يحصل أي منهم على تمثال. كنت أظن سيريّو سيصبح مغني أوبرا، هذا ما كنت أقوم بتدريبه عليه، والآن أجدُ أنك تقدم له فرصة أفضل للقيام بشيء مبجّلٍ بحياته. تُخرج المرأة محفظة من جيبها وتسحب صورة منها. انظر، هذا هو سيريّو. نعم، يا سيدتي، أعرفه، غالبًا ما أراه في المعهد. غدًا سوف التقط

Telegram:@mbooks90

له الكثير من الصور، بملابس متنوّعة، في أوضاع مختلفة، وأوضاع حربية أيضًا، كأن يقف مستعدًا، أو كأنّه يحمل بندقية أو يلقي قنبلة يدوية، أحتاج إلى صورة يستطيع النحات استخدامها؛ وكذلك صورة لسيريّو وهو نائم للشخص الذي سيُعدّ النعش. يتقدّم ماتوس إلى المرأة ويقبّلها على جبينها. التقطي كل الصور التي تريدينها، ولكن يجب أن يكون في المعهد بحلول الساعة 11 صباحًا أو سننطلق دونه. يأخذها من ذراعها ليقودها إلى الباب. سيكون هناك في الساعة 8 صباحا، كما هي العادة في كل يوم.

عندما ترحل المرأة، يقفل ماتوس الباب مرتين ويحطم قبضته في الجدار.

*

غدًا هو اليوم المشهود، قال ماتوس، ثم تلتقي زجاجاتهم إعلاءً لنخب. الثاني من أكتوبر 1968 لن يُنسى، وفي غضون عامين سوف يدخل في الكتب المدرسية، ولن يضطروا إلى تسريح المعلّمين الذين يتحدّثون عن الحرب ضدّ الغرينجو، لأنّها الآن ستكون حربًا خالدة؛ الأساتذة الذين سيطلبون مُستقبَلاً من طلابهم كتابة مقالة عن هؤلاء الرجال الباسلين، سيقيّمون درجاتهم استنادًا إلى الدقّة التاريخية للحقائق كما على النغمة الملحمية في كلماتهم؛ سيذهب الأطفال إلى متجر كتبٍ لشراء ملصقات لواجباتهم المدرسية، وسيقولون أعطني جنرال ماتوس، ويطلب آخرُ كومودورو البدين، وآخر سيريّو، وسيلصقونها في كراساتهم، ويكتبون أدناها تواريخ الولادة والوفاة والأعمال المجيدة، ولأن هناك الكثير من الملصقات، ستسأل البائعة الطفل إن كان يريد صورة جانبية لكومودورو البدين أو وهو يطلق النار على العدو أو وهو بين الخنادق أو وهو يرفع العلم المكسيكي، وبالطبع سيكون الملصق الأكثر شعبية لكومودورو والدخان يتصاعد من بندقيّته، والذي سيُدوَّنُ على ظهره عدد الأعداء الذين صرعتهم دقته في الرماية، مؤكّدين على أن الغرينجو أعطوه لقب حبّة الفاصوليا التي لا تقهر. على النقيض من ذلك، لن يكون هنالك طلب كبير على ملصق

كومودورو البدين وهو يرفع العلم في المكتبات، لأن كتاب التاريخ سيُضفيها في غلافه. أجل، يا سيدي، غدًا سوف يتم تذكّره على أنه اليوم الذي خرجت فيه مجموعة من الرجال الأشدّاء ليقدموا أرواحهم من أجل أن يعود للمكسيك صيتها القديم. يعود كومودورو من المطبخ بثلاث زجاجات من الجعة الباردة. يضعها على الطاولة ويلتقط الفوارغ. يراقبه ماتوس وهو يدخل إلى المطبخ مرة أخرى، ويتلاشى حماسه في الدخان: فهو لا يشبه الرجل على الملصق في شيء، ولا يستطيع تخيّله ببندقية أو بعلم أو، أو ما هو دون ذلك، أن يكون منيعًا. يلحظ سانتياغو كآبةً تترسخ في الغرفة. فيتسلّق كرسيًا، ويرفع زجاجة ويصرخ يعيش جيش المتنورين. ڤيڤا(21)، يهتف رامون. يستعيد ماتوس ابتسامته، لا حماسهُ. يأتي الصوت البلوري للزجاجات الثلاثة من المطبخ وهي تُرمى في سلة المهملات. يترجّل سانتياغو عن الكرسي ويهمس: لم يفت الأوان بعد لإلغاء كل شيء، يا ماتوس، جِد وظيفة أخرى في مدرسة ثانية. هذا ما تريدانه، أنتما الاثنان، رؤيتي فاشلًا، مذعنًا، تمامًا مثلك أنت وآريتشاڤاليتا. يطالع سانتياغو ساعته. حان وقت الذهاب. فقط عِدني أن هذه المغامرة هي من أجل الوطن، وليست انتقامًا للميدالية التي سرقها الغرينجو منك. يعبُ ماتوس المتبقي من جعته وتضيع نظراته في الثقبين الذين تركتهما المسامير في الجدار. إنهما يشبهان ثقبين خلّفَهُما الرصاص.

*

يوم الأحد، 13 يوليو 1924 تاريخ آخر لا يمكن لماتوس نسيانه. ساعة الكاتدرائية تعلن أنها الساعة 7:59 صباحًا، ويقول برنامج الألعاب الأولمبية أنه بحلول الدقيقة التالية ستُرمى طلقة البداية في باريس ليستهل عداؤو الماراثون سباقهم. قال كاتب عمود من الصحيفة المحلية في طبعة الجمعة أن هذا السباق لم يكن فقط التحدّي الأكثر صعوبة الذي يواجهه أيّ رياضي، بل أي إنسان، لأنه على النقيض من الألعاب التي تنتهي في بضع ثوان أو دقائق، يستمر هذه السباق

لأكثر من ساعتين، ما يعني أن بعض سباقات الدراجات فقط تستمر وقتاً أطول؛ وعلى النقيض أيضًا، لا يمتلك عداؤو الماراثون مقاعد يستريحون عليها في المنحدرات ولا يملكون أي موز لإخماد جوعهم. وخلص الكاتب إلى أن التحدي المتمثّل في الماراثون هو أنه ليس منافسة للسرعة، بل على قدرة التحمل. لحسن الحظ، فإن الحكومة المكسيكية قد انضمت إلى مناطق التوقيت العالمية قبل عامين، ولذا فإنّ ماتوس لديه اليقين في الشروع بالتزامن مع العدّائين الأولمبيين. ينظر حوله ويشعر بخيبة أمل، إذ لم يظهر رامون أو سانتياغو، ولا إيبانييز، بالطبع، الذي رفض المشاركة منذ البداية. تدقّ الساعة الثامنة صباحًا، ومع أول قرعة للجرس، يُطلق ماتوس النار في الهواء ويشغّل المؤقّت(22). يريد أن يكون كل شيء كما في باريس البعيدة، والتي لا يعرفها إلا بفضل كتاب الصور الذي شاهد فيه برج إيفل وسواه من المعالم الأثرية. في الصور الملتقطة في الكتاب، يمكنك أن تدرك أنها مدينة مسطحة، صديقة للعدائين. هذا ما دعاه إلى تجنب تلال مونتيرّي وجبالها، والبحث عن امتداد مسطح كما في تلك الصور، ولهذا فلا مسار أفضل من سكّة القطار، فقد شيّدها المهندسون والعمّال لتكون مسطّحة تمامًا. ومع ذلك، يدرك ماتوس أن التماثل وهمٌ، لأن العدّائين في باريس سوف ينطلقون وسط التهليل، بينما ينظرُ إليه الناس في مونتيرّي باحتقار. من ثُرى يفكّر في ارتداء سراويل الأطفال وإطلاق النار كما لو أنه ثمل جزئيًا؟ لماذا يركض؟ ممّن يفرّ؟ ستظنّ أنّه لصٌ، يلوح بمسدس مهدّدًا رجل أعمال نزيه ليسلبه مبلغًا كبيرًا من المال، بما في ذلك ساعته السويسرية الجميلة.

أكد له صانع الساعات أنها واحدة من أرقى الآلات التي صنعت على الإطلاق، وحتّى إن دعس حصان عليها فلا يمكن أن يؤثّر في دقّاتها، وهذا هو السبب الذي يجعل رجال المدفعية، وهم الوحيدون في الجيش الذين تعني لهم الدقّة شيئًا، يفضّلونها. هذه الآلة لا تفقد أكثر من ثلاث دقائق في اليوم. ثلاث دقائق زائدة أم ثلاث دقائق ناقصة؟ سأل ماتوس. هزّ الرجل كتفه. ليس من سبيل للتأكّد، ولكن لمّا كان مناخ مونتيرّي أكثر دفئًا منه في سويسرا، فأظنها تسير ببطء. دفع

ماتوس قيمتها وشكر الرجل. لم تكن كلمات صانع الساعات مريحة له؛ فحيدٌ يومي بمقدار ثلاث دقائق يوازي عشرين ثانية تقريبًا أثناء ساعتين ونصف.

يتقدم شمالًا عبر شارع زوازوا(23)؛ يعلمُ أن الكيلومتر الأول صعب، فساقاه لا تزالان متيبّستين وذهنه شاخص على المسافة الشاسعة التي يتعيّن عليه خوضها. قاس المسافة على دراجته من الكاتدرائية إلى محطة غولفو، وهو يَعُدّ دورات العجلة؛ بداية من المحطة. زوّدته خطوط السكك الحديدية بالمسافة الدقيقة اللازمة لإكمال 42 كيلومترًا و 195 مترًا التي انتهت إلى ما هو أبعد قليلًا من فيا دو غارثيا. يتطلّع إلى ترك مونتيرّي خلفه ليجري في الحقول المفتوحة، حيث لا حركة مرور لسيارات، أو أحصنة، أو أشخاص، أو عربات، وحيث لا حمقى يسخرون من عبوره الخاطف. ما إن يصل إلى شارع تابيا(24) حتّى يغدو ممتنًا للوزن الزائد للمسدس، لأن مخمورًا يقف هناك ممدّدًا ذراعيه. يصوّب ماتوس إلى رأسه فيتحرك المخمور إلى الجانب قبل أن يصطدما بعضهما ببعض. يمكن سماع بعض القهقات وصيحات الاستهجان؛ بالإضافة إلى شتائم المخمور. وبينما هو يتفرّس في كلّ المشاة، يشعر ماتوس بالحسد تجاه المتسابقين في باريس، فالمسار ممهد والإداريون يراقبون مشيهم، وكلٌّ منهم يرتدي رقمًا وعلم بلاده على صدره. عندما يصل إلى إسحاق غارزا(25) يمكنه سماع حصان يخِبُّ خلفه. أنا متأخّر، يقول رامون عندما يدركه. لقد تركتني أجري حاملًا المسدس، يقول ماتوس وهو يلهث، وذلك يمنح الآخرين ميزة، وسيكون من حسن حظي ألّا يوقفني شرطي. يمدّ رامون ذراعه ليأخذ المسدس. ليس هذا ذنبي، بل هي فكرتك أن يكون لديك طلقة بداية بينما كان كلّ ما تحتاجه هو عقرب ساعة الكاتدرائية. يجب أن يكون الأمر مثل باريس، يقول وهو يعبُّ الهواء قبل أن يتابع، على أن الفتيات على طول الرصيف لا يرسلن إليّ القبلات في الهواء.

يزعم عدد السبت من الصحيفة أن المرشّح للفوز هو غرينجو يُدعى كلارنس

ديمار(26)، فيتخيل ماتوس رؤية زوج من السيقان البيضاء الشاحبة أمامه، وأحذية براقة ترفس الغبار لكي يبتلعه، أبله معتدّ بنفسه، مستقيم الظهر تمامًا وبذراعين متأرجحين كراقص. وعندما يخِفُّ هذا القفا أمامه، يضاعف ماتوس جهوده للّحاق به. لا يهمّ إن كانت الفتيات ترسلن القبلات في الهواء للغرينجو، أن تسمح العاهرات الفرنسيات الصغيرات لأنفسهن بالخضوع لإغواء تصميم من النجوم والأشرطة ملائم لملهى أكثر من علمٍ لأي بلد، لا يهم إن كان الرجل، المليونير، يجري مع ابتسامة تعلو وجهه، فخطة ماتوس هي ملاحقة خطواته طول السباق، وفي النهاية يتجاوزه بخطوات سريعة. أراك عند خط النهاية، أيها الغرينجو القذر، سأقول له، وسيستدعي طاقته المتبقية لترك الفتيات الفرنسيات الصغيرات خائبات، لأن أغصان الزيتون والميدالية الذهبية ستحطّ على مكسيكي منتن لا يملك بنسًا واحدًا، ومن ثم سنرى من بحقّ الجحيم ستأتي لعناقي وتقبيلي وترطيب فستانِ أحَدِها بعَرَقي، ومن ستصطف لالتقاط صورة معي وتتقلب في السرير مع همجي من جزر الأنتيل أو أميركا الوسطى أو الكاريبي أو أي جحيم تقع فيه المكسيك.

يصل إلى محطّة غولفو ويواصل من هناك بمحاذاة سكة القطار. تكمن فكرته في أن العوارض المغروزة تعطي الأرض بنيةً مشابهةً لمضمار السباق في استاد الكولومب(27)، والذي تصفه الصحف بأنه مرنٌ وناعم، مغطىً بطبقات متعددة من الحصى. ينظر إلى اليسار وهو يعبر بينو سواريز(28). هذا هو قوس الاستقلال، ربما كان كلارنس ديمار يتطلّع إلى قوس النصر. يفترض أنه ما يزال جزءًا من العصبة، محاطًا بمجموعة من المتسابقين يطلق عليهم «الفنلنديون الطائرون»(29). إلى يساره إنجليزيان يسيران وراءه بمسافة قصيرة، يمكنه سماع وقع أقدام البقية، بما في ذلك الفريق الفرنسي واثنان من الأمريكان اللاتينيين، أحدهما من تشيلي والآخر من الإكوادور. كيف يمكنني التغلّب على أعداء غير مرئيين يتقدّمونه بأكثر من مئة خطوة؟ لا يعرف ما إذا كان يسير

وفق التسارع الصحيح ويقرّر زيادة سرعته قليلًا. يهزأ بينه وبين نفسه من جهل الصحافي الذي وصف الماراثون بأنه اختبار للقدرة على التحمل. سيكون ذلك مساويًا للركض حتى يسقط الجميع صرعى باستثناء أحدهم، وفي تلك الحالة لم يكن لدى ماتوس أي شك في فوزه. هيا، يا كلارنس، اركض بأقصى ما تستطيع بحذائك اللامع، لأني سأكون هنا، وراءك، تحت المطر أو في الصحو، إلى أن تنهار في النهاية؛ ومع ذلك، فسباق الماراثون، كما سباق 100 متر، هو اختبار للسرعة، ينبغي عليك قطع أكبر قدر من المسافة في أقصر وقت. ما هي السرعة المثالية؟ يسأل ماتوس نفسه، غير قادر على تقديم إجابة. إذا ركضتُ بسرعةٍ كبيرة، فسأنهك في منتصف الطريق. وإذا تهاونتُ، فلن تصفق لي حتى خادمة باريسية عجوز.

يشير بيده إلى رامون ليقترب بالحصان إلى جانبه. هاك، يقول، ويعطيه الساعة المؤقّتة، تعامل مع هذه. على أنّ صانع الساعات أكّد له أنّه لن تكون هناك مشكلة، إلا أنّه يطوّح بذراعَيه كثيرًا مع كل خطوة. وعَرَقُه يبلّل الإطار الذهبي والواجهة، ومن الأفضل الحفاظ على دقّتها. يمكنه الشعور بأنفاس حفنة من العدّائين؛ يُسارع خطواته إلى أن يدرك أنه سانتياغو على صهوة الحصان، شاكيًا بقوله، من أين أتيت بفكرة سباقٍ في صباح الأحد تحت شمس الصيف الحارقة؟

*

عندما تصير الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق، يتكئ ماتوس قبالة بوّابة المدرسة. من هناك يستطيع مراقبة السيارة التي أقرضه رامون إياها، وصَفّها على بعد بضعة أمتار في الشارع، عند الناصية، ليضمن عدم عرقلة أيّ مركبة لمساره. يحيط علمًا بأن لا أحد ينتظره ويستبعد فكرة أن المجندين سيكونون جاهزين قبل الساعة المحدّدة. تجتازه امرأة وتتطلّع إليه دون نظرة محدّدة في عينيها، لكنّه على استعداد للارتياب بأيّ من المارة. وعلى أنه لا يدخن، إلا أن ماتوس يتمنى لو كان يمسك سيجارة مشتعلة بين أصابعه، وبهذه الطريقة

يمكنه أن يُبقي نفسه مشغولًا في القيام بشيء عوضًا عن مجرد الوقوف هناك: رجل ينتظر، يمكن لأي شخصٍ أن يتساءل عن هويته، وكم له من الوقت هناك، وإلى متى سيظل هناك، إن كان سيلتقي أحدًا أو يتسكع فقط؛ يمكن لأحدهم أن يتصل بالشرطة ويتهمه بتحسس التلميذات فيذهب كل شيءٍ إلى الجحيم. على النقيض من ذلك، فلا أحد يشك في المدخنين في الشارع، متكئين إلى جدار، بقدمٍ واحدة على الأرض والأخرى مسندة وراءهم؛ كان يُدخّن، سيقول العابرون، ولا جدوى في محاولة تذكر وجهه إذا طلبت الشرطة وصفًا.

مع عدم وجود سيجارة أو حتى بعض العلكة لمضغها بصخبٍ، يبصق إلى اليسار. يتبادر له أن تلك حركة يمكنها بعث الاحترام لدى أي شخص ينظر إليه. يشكّل لعابه لطخة داكنة شبيهة بالأميبا على الرصيف، يصالب ماتوس ذراعيه بارتياح. إنه الحادية عشرة ولا أثر لكومودورو البدين أو أي من رفاقه.

تمر بالقرب سيدة شابة تبدو على هيئة سكرتيرة. وتغيّر طريقها قليلا لتتجنب كتلة البصاق. يأمل ماتوس أن تتبخر سريعًا، وعلى النقيض من ذلك تتضاعف الأميبا في ذهنه. بعد بضع دقائق، يقترب عابر آخر، رجل يرتدي ربطة عنق لكن دون سترة. يسأله ماتوس سيجارة. يتجاهله الرجل ويمشي عنه.

كومودورو هو أول الواصلين. هذا أفضل، قال ماتوس، بدأت أشك أن لا أحد بينكم يعرف الوقت أو أنكم جبنتم. البقية لن يتأخروا، يقول كومودورو بإشارة بالِغة التكلّف؛ كان يُفضل قول ذلك مرتديًا قلنسوة سوداء وزيًا مموهًا. ماذا ينتظرون؟

طُلِب إلينا رسم منظر طبيعي، ولم يرغب أحد في تركه نصف منتهٍ. سيريّو يخربش؛ وأوبالدو أمامه جبال وأرنب؛ أوبالدو فنان. لا أريد البقاء هنا طويلًا فيرانا الناس نتجاذب الحديث، لذا سأدور حول الشارع. وإن كنتم جاهزين عندما أعود إلى المعهد، اغمز لي وسأفتح البوابة. أبلِغ أصدقاءك بأن عليهم الخروج، بهدوء، دونما صراخ أو ركض قد يجذب الانتباه. عُلِم، يقول كومودورو،

حوّل. يطالع ماتوس ساعته ويبدأ سيره، يريد حساب الوقت الذي يستغرقه في الدوران حول المبنى. كان يفضّل الركض، ليظهر لهؤلاء الأولاد أنّه في سنّه هذه قادر على العمل الجسدي، لكنّه عَدَل عن ذلك عندما فكّر أنّه في وقت لاحق، وهم محشورون في السيارة، قد يشتكي أحدهم من أنه نتن مثل رجل عجوز متعرّق. بينما يدور حول الزاوية الأولى، يتخيّل خمسة عشر مستنيرا يسيرون صفًا واحدًا نحو السيّارة. سيتعيّن على عشرة أن يتكوّموا في الخلف وخمسة في المقدمة، لا أكثر، وإلا فلن أتمكن من التحكم بعجلة القيادة والتعامل مع الدواسات، وسأضطر إلى تجنب أي شارع به إشارات مرور، لأنه إن استوقفتني إشارة حمراء فسيكون من المستحيل على أي شخص ألا يرانا. سيرى أحدهم أنه من المضحك رؤية هذا القدر من الناس في سيارة، وقد يرى آخر أنه أمر مريب فيدوّن رقم اللوحة. وماذا لو كان هناك أكثر من خمسة عشر؟ وماذا لو أن الخمسة عشر لا تتسع لهم السيارة أصلًا؟ تحوّل المشهد الآن إلى ماتوس وهو يعتذر بشدّة للاثنين أو الثلاثة الذين لم يمكن استيعابهم، فهنالك باب يجب أن يُغلق، وسيارة تنطلق بعيدًا مبدّدةً وراءها أحلام المجد لأولئك الذين قدِموا متأخرين، خذوني معكم، سيصيح أحدهم. ويقول آخر أنه من الأفضل ركل سيريّو خارجًا واصطحاب أحد هذين الولدين أو الثلاثة، ويتحيّر ماتوس بين مسؤوليته الأساسية: الالتزام بالمهمة، أو الوعد الذي قطعه لوالدة سيريّو. يتنهد مدركًا أنه سيرمي سيريّو خارج النافذة. آسف جدًا، سيتدبّر القول، الوطن يأتي قبل نُصبك التذكاريّ، وواجبي يتفوّق على وعدي، ويمكنني دائما الكذب على أمّك، فأخبرها بأنك متّ وأنت تقاتل لا لأنك قُذفت من سيّارة متحرّكة، ولأننا لن نعرف أبدًا ما إذا كنت قد خسرت حياتك أثناء ارتطامك بالرصيف، أو عندما مشت إحدى الحافلات فوق جسدك. بينما كان يدور حول الزاوية الأخيرة ماشيًا صوب المعهد، كان بإمكانه رؤية ذراع كومودورو البدين تلوّح من بين قضبان البوابة. يعجّل ماتوس في خطوته، وما إن يصل إلى هناك، يصفعُ كومودورو على يده. قلت لك أن تغمز لي. يتطلّع كومودورو إلى جلده وهو يحمرّ جراء الصفعة.

هل كلكم جاهزون؟ يهمس ماتوس، وظهره إلى المعهد، يتكئ على البوابة وكأنه يدخّن، ويتأكد من عدم وجود شهود في الشارع. جاهزون. كم عددكم؟ نحن ستة، أنا من ضمنهم. ستة فقط؟ هل سيأتي المزيد؟ يحرر ماتوس مزلاج البوابة ويتقدّم الطريق إلى السيارة؛ يفتح الباب الخلفي والأمامي من فوره. لا يتطلع إلى الخلف لمعرفة ما إذا كان الأخير قد أغلق البوابة؛ كل ما يفعله هو الجلوس على عجلة القيادة وانتظار الإشارة. يتقدمهم أوبالدو وميلاغرو، وبينهما سيريّو وهما يمسكان بيديه؛ تتبعهم أثوثينا، وأخيرًا، كومودورو البدين، كل واحد منهم يحمل حقيبته المدرسية. يدير ماتوس مفتاح التشغيل. يعرف أوبالدو أن السيارات لا تدور في الظروف الصعبة أبدًا، عليك أن تجرّب ثلاث أو أربع مرات والعدو يدنو أقرب فأقرب، ولكنّ المحرّك يدور مباشرة هذه المرة، ولا يرى أيًا من معلّمي المعهد يركضون صوبهم. كلّنا هنا، يقول كومودورو من المقعد الخلفي، وفي اللحظة التي تبدأ فيها السيّارة بالتقدّم نحو شارع هيدالغو، تنطلق موجة من الضحك والتصفيق. وعلى مبعدة ثلاث بنايات من هناك حيث يمرّ أمام ما كانت مدرسته، يتمتم ماتوس شتيمة لمدير المدرسة ولآريتشافاليتا بشكل خاصّ.

كومودورو البدين غير مرتاح في المقعد الخلفي. فليس من اللائق أن يعامل مثل الآخرين، وهو الذي أخذ على عاتقه تجنيد المتطوعين، وإبلاغ زملائه بأنه من واجبهم محاربة العدو. لا، يا سيدي، مكاني في المقعد الأمامي. ينزع الحقيبة المدرسية، وبعد كفاحٍ محدود مع وزنه وتجاهلٍ لأوامر ماتوس بالبقاء ساكنًا، وفي اللحظة التي يوشك بها عبور الحاجز، تفرمل السيارة عند ممرٍ للمشاة. يدفع عزم القصور الذاتي كومودورو للسقوط وخبط رأسه على لوحة العدادات. يتدفق ينبوع دم من أنفه. على أن المجندين يودون أن ينفجروا ضاحكين، إلا أنهم يؤثرون الصمت وهم يرون علامات الاستياء في وجه ماتوس.

يواصلون التقدم في شارع هيدالغو ثم يتجون شمالًا إلى كواتيموك. لم يهدأ

ماتوس ويتوقف عن تصور كل سيارة كمركبة مطاردة محتملة حتى وصلوا إلى الطريق السريع المؤدي إلى لاريدو. حينها ناول كومودورو منديله، وهو ما يزال يحاول وقف نزيف أنفه. هاك، قال، غطّ منخرك بهذا وأسند رأسك إلى الخلف.

متى سنصل إلى هناك؟ تسأل أثوثينا. يتعرف ماتوس على الصوت ويحرك مرآة الرؤية الخلفية ليتفحص المقعد الخلفي. يجدها جالسة إلى أقصى اليمين، تنظر من النافذة. تُقلّص السيارة من سرعتها إلى أن تتوقف في فضاء على يمين الطريق. يُريح ماتوس جبهته على المقود؛ ويُبدي هيئة المهدود، وكأنه خلد إلى النوم. امرأة! يقول بصوت ناعم؛ علينا العودة إلى المعهد.

*

يجلس كارالامبيو على المرحاض ويسمع همسات آتية عبر النافذة، وعلى أنه يميز صوت كومودورو، إلا أنه لا يستطيع أن يتبيّن ما يقوله؛ ثم يسمع بعض الخطوات المسرعة، وأحدهم يفتح البوابة ويغلقها بهدوء. لا، يتمتم لنفسه، لا، أرجوكم، ويمد يده إلى ورق المرحاض. عندما لا يجده في الموضع الذي يجب أن يكون فيه، يُخمّن أنه وراءه، فوق المرحاض، ولكن في الظرف الراهن، ينتابه أن استخدامه رفاهية؛ يقف وبالكاد يسحب سرواله الداخلي وبنطاله إلى أعلى ساقيه، بما يسعفه على الجري إلى الفناء. يجده فارغًا وهادئًا. الجندي كارالامبيو، نداءً بالاسم(30)، ويجيب عن نفسه بلهجة عسكرية: حاضر. ينطلق إلى البوّابة، يتفحّص الشارع دون أن يرى أيًا من رفاقه. لحظة، يترك بنطاله ليمسح العرق عن جبينه؛ ثم يدنو ويسحبه إلى فخذيه. والآن يهرع إلى الفصل. يرى بعض المقاعد فارغة. أين كومودورو؟ يسأل بصوتٍ مرتجف، كومودورو، أين أنت؟ توبّخه المعلمة. شدّ بنطالك، تأمره، وتخبر الجميع بأن يغمضوا أعينهم. كارالامبيو يتجاهلها. أين أثوثينا، أوبالدو، سيريّو، وميلاغرو؟ ينتقل إلى منتصف الفناء ويتطلّع حوله ولكنه لا يتمكن من العثور على أيّ من الصبية الذين رفعوا أيديهم بعد خطبة كومودورو. يُدرك أنهم تخلّوا عنه، وأن المجد انزلق منه في رمشة

عين، خلال الوقت الذي لزمه لقضاء حاجته؛ أبحرت السفينة تاركة حمولتها الأثمن على المرسى. ينظر إلى صورته في زجاج نافذة ويقرّر إغماض عينيه كما لم يفعل الطلاب، حيث إن صخب ضحكاتهم يتردّد الآن في جميع أنحاء المبنى. كارالامبيو يبكي، لأنه يدرك أنّ أحدًا لن يتذكّره بسبب شجاعته في المعركة، بل على الوقت الذي تسمّر فيه كالصنم وسط الفناء، ببنطاله الذي ينزلق ببطء على ساقيه ليتجمّع حول كاحليه، بقميصه قصير الكمّين معتليًا سرّته، بعضوه وهو يقطر. بالتأكيد أتذكّرُ كارالامبيو، البكّاء ذا السروال المتّسخ. لا عزاء له، ولا حتى عندما يجذبه المدير من شعره ويسحبه إلى المكتب ويحبسه هناك، ويتركز اهتمام الجميع إلى ما يدعوه الاختصاصي النفسي بالافتضاحية(31) الواضحة، وهذا هو السبب في عدم ملاحظة أي من المعلّمين غياب الصبية الخمسة الآخرين، ليس إلى أن تظهر أم أوبالدو قرابة الساعة الواحدة والربع لتسأل، أين ابني؟

*

ما يهم هو الشجاعة والتصميم والقدرة العسكرية ودقة الرماية. وبصفتك جنرالنا لا ينبغي لك أن تنسى ذلك، ليس من الصواب أن تستبعد إحدى جنودك فقط لأنها حلمت يومًا بأن تصبح أميرة. ألقِ نظرة فاحصة عليها، ها هي ترتدي بنطالًا مثل البقية، وماذا لو لم يخطّ لها شارب بعد؟ هذا ينطبق أيضًا على بقية القوّة. وإن لم يكن ذلك كافيًا، فقد أقسم أفراد جيشك أن يعاملوها على قدم المساواة، ولن يضعوا يدًا عليها، دون انتباهة من مروءتهم، ولن نناقش معها أي نوع آخر من الحب عدا حب الوطن، أو ربما الحب الأخوي بين الرفاق. سنقدم لك عرضًا لجدارة أثوثينا بأن تكون في صفّنا. ينحني كومودورو البدين لالتقاط علبة جعة فارغة، ألقتها إلى جانب الطريق سيارة عابرة؛ ينفض عنها الغبار، ويطرد الحشرات التي تعشعش بداخلها، ويضعها فوق صخرة. أثوثينا، يصرخ كومودورو، تعالي أظهري للجنرال ماتوس معدنكِ. تتطلع حولها باضطراب،

وعيناها غارقتان بالدموع، لا تدري ماذا تصنع. التقطي حجرًا، يخبرها كومودورو، والآن تخيلي أن العلبة هي النقطة الدقيقة التي ينتهي إليها أنف الغرينجو عند جبهته، ونحن جميعًا عزّل، وهذا الرجل يقترب منا بحربته المثبتة ليمزق أحشاءنا. تتفحص أثوثينا الأرض إلى أن تجد حجرًا مستديرًا. تشعر أنه مناسب في يدها، يبدو وزنه مثاليًا لفلق رأس العدو. تفصلها عشر خطوات عن علبة الجعة، عشر خطوات من المجد، المسافة بين العودة إلى الديار وعبور الحدود. يا أثوثينا، يُلحّ كومودورو، هناك عدوٌّ أمامك تمامًا، وبندقيّتي عالقة، وأوبالدو نفد منه الرصاص، وسيريّو غافٍ، وميلاغرو دهمته نوبة ارتعاش، وحدكِ تستطيعين إنقاذنا؛ اقضي على الغرينجو الأحمق أخضر العينين، وأنقذي أرواحنا التي على وشك أن تُزهق. أثوثينا لا تشك في قدرتها على ضرب علبة الجعة، فقد فعلتها في البقعة القفر قرب منزلها، ولكنها الآن تحتاج إلى أكثر من التصويب الجيد. تلزمها رباطة جأش، لتجد اللحظة المناسبة لسحب الزناد على هدف متحرّك. هيا، يا أثوثينا، انقذينا وخلّصي نفسك أيضًا. تدنو شاحنة تدمدم في الطريق وعصفة ريحٍ تركل غيمة من الغبار عاليًا. يُطلق كومودورو آهة ويجثم لأنه يرى الغرينجو وهو يسدد صوبه، إنه على بعد خطوات قليلة فقط، ولن يستغرق الأمر سوى بضع ثوان قبل أن يشعر بالحربة في أحشائه. أسرعي يا أثوثينا، ترُدُدكِ في اتخاذ القرار يعني موتي، يهمس كومودورو؛ والمعدن يمزق الجسد، مخترقًا طبقة الدهون. يدرك الغرينجو أنه يلزمه الطعن ما لا يقل عن عشر مرات إذا كان يريد الإجهاز على هذا المكسيكي العنيد. يطعنه مرارًا وتكرارًا في حركة تماثل خفق الزبدة. كومودورو غير قادر على النهوض ومواصلة القتال، لذا يتمدد على الأرض ويتدحرج إلى أسفل التل، في اتجاه الطريق السريع، والغرينجو يتبعه، وهو يغرز نصله مرارًا وتكرارًا في شحوب جسدٍ بضٍّ يطلب الرحمة أو على أدنى تقديرٍ طلقةً في العنق، أرجوك. افعلي شيئًا يا أثوثينا، أنا أنزف حتى الموت. وأخيرًا عقدت عزمها، وسحبت ذراعها إلى الوراء، ورمت القذيفة وكأنّها تقلّد لاعب بيسبول. مُت، أيها الحثالة التّعِس، تقول في اللحظة

التي تقذف بها الحجر القاتل. ينحرف الحجر إلى يسار هدفه، لم يكن ذاك خطًا مستقيمًا بل انحرافًا دقيقًا واضحًا وانتهى به الأمر إلى إصابة أجمة. العلبة تومض سليمة وكومودورو يطبق عينيه. لم يعد يُصارع من أجل حياته، هو فقط يُفلح في توسّلهم لدفنه في مونتيرّي، في مدافن دولوريس، لا تترك جسدي يتعفّن في تكساس، وسط مراكز التسوق وآبار النفط، تلتهمه الديدان الخضراء الوثنية التي نجدها في أراضي العدو؛ دَعُوا أثوثينا تتحمل تكاليف النقل. يدنو أوبالدو من الجثمان. لقد مات، لقد كان رجلًا صالحًا، ولكنه الآن كتلة أكبر من الطاقة على حملها إلى مونتيرّي. إنه ذنبي، تقول أثوثينا، ثم تتحلّق العصبة حول الفقيد. هكذا هي الحرب، يضيف ميلاغرو، الناس يموتون، لكنه ليس بذنب أحد، ولا حتى الغرينجو الذي قتله. يُمسك أوبالدو بكاحلي كومودورو ويحاول جرّه؛ يستسلم عندما يشعر بأوداجه تخفق. من الأفضل أن ندفنه هنا، يقول، يمكننا أن نحدّد البقعة جيدًا، فلا نضيّعها، وقبل أن تمضي السنة، عندما يمكننا وضعه في كيس بقالة، سنرجع إليه. يفتح كومودورو عينيه، مغتمًا. احترموا رغباتي الأخيرة، لا يمكنكم حرمان أي شخص من ذلك. يلتقط ماتوس صخرة ويلقي بها صوب العلبة؛ يخطئ هو أيضًا. تتّجه أثوثينا صوبه وتأخذ بذراعه. إذا كنّا جميعًا مستعدين لسفك دمائنا، فإن أفضلنا هو من تعلّم أن يسكبها كل شهر، تتنهّد بعمق. يشعر ماتوس بالغبطة، فهذا هو ما يحتاج إليه: أشخاص حازمون عاقدو العزم، شجعان، لا كأولئك الطلاب الذين يشتكونه لآبائهم. لن يكون هناك أي معاملة تفضيلية، يقول؛ تومئ أثوثينا بالموافقة وتجيب بأنها لن تقبل بسوى ذلك، إلا عندما تحتاج الذهاب إلى الحمام. يعودون إلى السيارة. يحرس سيريّو نومهم على المقعد الخلفي، متلبّسًا وجه من حَلُمَ بالغيوم والبالونات المبهرجة، مصالبًا ذراعيه، فاتحًا فمه وخيطٌ من الزّبَد يمتد من فمه إلى صدره.

*

بعد مسير لمدة نصف ساعة على طريق غير ممهدة، يوقف ماتوس السيارة

بجانب زريبة ويطلق الزمّور. تعدو حفنة من الدجاج بعيدًا، وبعضها الآخر لا يتحرك أو يتنقّل في مكانه منقّرًا خلف الطعام. أين نحن؟ يسأل كومودورو. يَخرج رجلٌ من منزل قريب، ويرفع ذراعيه للتحية ويقول شيئًا غير مسموع داخل السيارة. أهو صديقٌ أم عدو؟ يُبرز ميلاغرو رأسه من النافذة. نحن هنا في مركز تدريبنا، يقول ماتوس، سوف تخرجون من هنا جنودًا في خدمة الوطن، محاربين في الذهن والجسد والروح. هل أخذتنا من المعهد لتجعلنا نقوم بمزيد من الدروس؟ يسأل أوبالدو، فقط أعطني مدفع هاوتزر لأبدأ بإطلاق النار، لا أريد تلوين صور الجنود أو ترديد القصائد عن الحرب. الشجاعة هي الميزة الأولى لكل مقاتل، يقول ماتوس، وقد أغطَيتم بالفعل ما يكفي من الأدلة على ذلك من خلال حقيقة صغيرة تتمثل في وجودكم هنا. يلزمكم الآن أن تعرفوا أن الشجاعة لا قيمة لها بدون دقة الرماية، بلا خطط عسكرية، من دون مبادئ، من غير تدابير البقاء على قيد الحياة. على أن السيارة قد تحولت إلى فرن حقيقةً منذ أن توقّفت تحت أشعة الشمس، ولكن لا أحد يخرج، بينما يقول لهم ماتوس إنهم لا ينبغي أن يُفاجؤوا عندما يسمعون كلمة مبادئ. أجل، أيها الرجال، سيكون أمامكم الوقت لحفظ وتأدية قَسَم الجنود، وقائمة المفاهيم التي تُسبغ الصواب على فعل القتل، بحيث لا تستطيع ضمائرنا ولا كنيسة الأمّ المقدّسة تقديم أي اعتراضات علينا. كومودورو يود الانتباه إلى خطاب ماتوس، ولكنّه لا يستطيع ذلك. فمنذ أن سمع كلمة تدريب، هجمت عليه صورته الخاصة، مرتديًا لباس الباليه الضيق، متعرّقًا، يدور عدة مراتٍ حول الساحة؛ أناس يحملون فروع الأشجار الرفيعة ويضربونه بها في كل مرة يتوانى فيها. هيا، يا مدهن، لا يزال أمامك مئة جولة.

أثوثينا تقاطع ماتوس وهو على وشك إعلان المبدأ الأول من بيان التجنيد. علينا أن نجد بعض الظلّ، تقول، سيريّو المسكين على وشك الإصابة بضربة شمس. يذعن ماتوس، بالتأكيد، أنتم تستحقّون عصير ليمون بارد. يخرج الجميع ويتوجّهون إلى الرجل الذي لا يزال يحييهم بذراعيه في الهواء. يدخلون المنزل ويرون أن هناك، واقعًا، جرّة من عصير الليمون بمكعّبات ثلج متلألئة. يرحب

الرجل بهم، ولا ينادي سوى كومودورو باسمه، يلتقط الجرّة ويسكب لهم في أكواب من الألمنيوم. وباستثناء سيريّو، يرفض الآخرون قبول عصير الليمون، قائلين إنهم يفضلون الماء، لأنه يبدو لهم أليق بالجنود.

*

كل من يتجوّل في تلك الأيام على طول شارع هيدالغو صوب الشرق، منطلقًا من معهد كومودورو البدين، سيمرّ على أربع مدارس على امتداد خمسة مبانٍ: المعهد الفرانكو-مكسيكي، ومدرسة سيرافين بينيا، وكلية البلاد الأميركية، والمعهد الأميركي في مونتيرّي. عمل ماتوس في أوّلها، الواقع في 856 غرب هيدالغو.

في الكتب السنوية السابقة للعام الدراسي 1969-1968، تظهر صورة السيد ماتوس تحت عناوين لأقسام مختلفة. هناك صورة التقطت من داخل الفصل، حيث يمكنك أن ترى على الجدار في الخلفية مخطّطًا للجهاز الهضمي وخريطة قديمة للجمهورية المكسيكية. في الكتاب السنوي لعامي 1969-1968، في القسم B من الصف السادس، الذي كانت معلمته في ذلك الوقت الآنسة دومينغِز، يمكنك أن ترى طالبًا اسمه آريتشاڤاليتا. تُظهر الصورة طفلًا بشعر منسدل أملس ووجه متغطرس، بالكاد تستلطفه إن كُنتَ ستعتمد على الصورة فقط، على أنه يرتدي سترته وربطة عنقه بأناقة تُميّزه عن الآخرين. يخبرنا الكتاب السنوي نفسه بأن المدير في ذلك الوقت هو خوان فرانسيسكو هينوخوسا، المعروف اختصارًا باسم الأخ فرانسيسكو، والذي سيموت في عام 1981 في غوادالاخارا.

في عام 2005 بلغ عمر المدرسة مئة عام، ووصف الكتاب السنوي الاحتفالات التي أقيمت بهذه المناسبة، وعرَض أربعة طلاب من الصف 6B في عام 1968. قدّمَ ثلاثة منهم تعليقات عامة قليلة الأهمية حول ماتوس، ومتناقضة بعضها مع بعض، وربّما تخلط بينه وبين معلم آخر. مثل هذا الغموض أمر طبيعي، إذا أخذنا في الاعتبار أنه كان بالكاد معلمهم مدة شهر، لا شك لأنه جرى فصله في نهاية

سبتمبر. أحدهم فقط استذكر حماس ماتوس عندما كان يتحدث عن الحرب ضد الولايات المتحدة. أظنّ أنه تقاعد، قال، فقد كان رجلًا مسنًا.

*

هل تعلم ما هذه؟ ماتوس يحمل بندقية عتيقة، يمكنك ملاحظة قدمها من اهتراء عقبها وكدر المعدن، حتى إن بعض الصدأ يظهر على الماسورة. يتبادل المستنيرون نظراتهم التي تنتهي إلى أوبالدو كإشارة بأنّ المفترض منه هو أن يجيب. دعنا نتخطّى الدرس الأول، يردّ، ونذهب لنؤدي بعض الرماية، فالحرب لا ترتبط بالنظريات قدر الممارسة. كومودورو يريّث على ظهره، شاكرًا إياه على الردّ. كنتُ متحيّرًا عمّا إذا كان بندقية أو بارودة وما إذا كانا الشيء نفسه. يخفض ماتوس السلاح، يفتش حوله في رفوف إيبانييز إلى أن يعثر على زجاجة يظنّ أن لها ثمنًا باهظًا: براندي إسباني. هذه تساوي أكثر من حياة غرينجو. يخرج إلى الساحة الخالية، يتبعه المستنيرون، ويضع الزجاجة على جدار منخفض. لن نلقي بالحجارة بل سنطلق الرصاص الآن. من يودّ أن يبدأ؟ يرفع أربعة أيديهم قائلين أنا، سيريّو يبتسم ويتقدّم خطوة إلى الأمام. يرى ماتوس تصميمًا أكبر في هذه الخطوة من الأيادي المرتفعة، لذا اختار سيريّو. يطلب إليه أن يتمدّد على الأرض، ويشرح أهمية عدم رفع رأسه أكثر من اللازم حتى لا يقع ضحية لنيران العدوّ، بالإضافة إلى أن دقة تسديدك ستكون أفضل إذا قمت بإراحة سلاحك وذراعيك على الأرض. وعندما انتهى من شرح كيفية موازنة منظار التسديد، كان سيريّو قد غفا. يركله ماتوس بين أضلاعه. الجندي النائم هو جندي ميت، إمّا لأن العدو أصابه أو لأن مسؤولهُ أمر بإعدامه. سدّد وارمِ، لديك ثلاث محاولات، إذا كان منظارك يعمل وأصبع واحد كذلك على الأقلّ، يمكنك القيام بذلك. مغرورق العينين جرّاء ألم الركلة في خاصرته، يجرّبُ سيريّو الزناد بإصبعه السبّابة. كن يقظًا، يا رفيق، يقول أوبالدو، البراندي قفز فوق الجدار ويثّجه صوبك. إنه تام التجهيز، بزيٍّ كامل يمتزج مع الغطاء النباتي، ولكن ذلك يجعله أكثر وضوحًا

هنا في الصحراء، فلا سبب لديك لتُخطئه كما فعل حجر أثوثينا. إنه يحمل صهريجين فوق ظهره وسلاحه يلوح بلسان من النار. إنّها مبارزة غير متكافئة، يقول ميلاغرو، وسأكون سعيدًا بمبادلة بندقيتي بقاذف اللهب الخاصّ به، بل قد أزيدُهُ بعض الخردة. أطلق النار، تصرخ أثوثينا، سوف يرميك. يطلق سيريّو النار أول مرة وتختفي الطلقة في الفضاء. أخرق، يقول أوبالدو، لا تسمع أبدًا لكلام النساء، مهما بلغ انغرازك في الأرض فقد كشفتَ موقعك، أمامك القليل من الوقت قبل أن تجد نفسك مطوّقًا باللهب. تتبعُ طلقتان بسرعة وزجاجة البراندي لا تزال منتصبة على الجدار القصير مثل لعنة. يرشق العدوّ دفقةً من النفط المشتعل وسيريّو يخفضُ رأسه ويتوقّف عن الحركة. ساعدوه، تصرخ أثوثينا، وتُلقي بنفسها فوقه لإخماد ألسنة اللهب. اليوم صادفنا اثنين من الغرينجو، يركل ميلاغرو الدجاج للتنفيس عن غضبه، وكلاهما تغلّب علينا. هل مات؟ أوبالدو يسأل. كومودورو يقوم بفحص سيريّو باشمئزاز ويقرّر أنّه ما زال يتنفّس. أمر سيّئ، يقول، سيبقى وجهه مشوّهًا إلى الأبد. لا يهمّ، يقول ميلاغرو، الحرب ليست مسابقة جمال. بالطبع لا، تساعده أثوثينا على النهوض، ماسحةً التراب عن بدلته البيضاء، ولكن حتّى وإن بقي الرجل على قيد الحياة وعاد إلى الوطن، ومنحه التاريخ شهرةً بالغة، فستخفّض النساء أبصارهن عندما يمر ولن يعرف من الحبّ سوى حبّ أمّه.

يلتقط كومودورو البندقية ويقول إنّه حان دوره الآن. يعلم أنّه يجب عليه القضاء على العدوّ فهو لن يكون محظوظًا مثل سيريّو؛ سيتحوّل من فوره إلى كرة مشتعلة من الشحم ولن يتطوع أي شخص لإخماده. قد يفتقر مصيره إلى الكرامة كما سيدة الخيار، أو أسوأ من ذلك، لأن أصدقاءه سيكونون مشغولين في تقطيع النقانق والغناء والرقص حول موقد جسمه الذي يستحيل إطفاؤه.

يشعر ماتوس بالارتياح عندما يرى كيف تطيش طلقة كومودورو الأولى، ويتمنّى لو يفشل في محاولتيه التاليتين؛ يصلي لفشل أثوثينا وأوبالدو

وميلاغرو، لأنّه في تلك اللحظة لا شيء أفضل لديه من أن يمصّ الزجاجة ويلعب دورة دومينو أخيرة مع رفاقه.

*

ممّا لا شكّ فيه، هذه المرة الأخيرة التي نكون فيها معًا، يقول ماتوس، ويربّت على ظهري إيبانييز ورامون. يجلس سانتياغو قبالته، لذا فهو يبتسم له فقط. تحوي الطاولة نصف زجاجة البراندي التي نجت من الرصاص؛ هناك أربعة أكواب، ومنافض مليئة بأعقاب السجائر، ومكعبات ثلج في دلو، وفي المنتصف، يزهو الصندوق الخشبي الذي يحوي قطع الدومينو. إيبانييز هو شريك رامون، يمضغ سانتياغو سيجاره ويبدأ في إزاحة الجزء العلوي من الصندوق. بمجرد فتحها، يمكنك ملاحظة أنّ هناك قطعة مفقودة. يشرب رامون كأسه كله ويقوم. يا لها من لعبة أخيرة ممتازة، يقول، لم أكن لأزعج نفسي بالمجيء إلى هذا المكان النائي. كومودورو كان يراقب الرجال من الزاوية، منتظرًا اللحظة التي سيصيح فيها ماتوس باسمه. لكنّه فوجئ بسماع صوت رزين. أين هي أيها الفتى البدين؟ تحفر يديه في جيوب بنطاله ويداعب السيدة الطاهرة بيده اليسرى. لا أعلم، أجاب، وضعت كل الأحجار هناك. كان سيعيدها تحت أيّ ظرف آخر؛ لا يستطيع الآن، إنه ذاهب إلى الحرب ويحتاج إلى أن يستودع نفسه لدى شخص ما. يكرع ماتوس جرعة من البراندي ويمشي إلى حيث يُحاصر كومودورو المتوتّر. تُسرع أثوثينا لتقف بين الرجلين. لا تلمس الصبي. يحضر أوبالدو إلى المكان قائلًا إنه لا يعارض نيل البدين ضربًا مبرحًا. ما يزعجني هو أن ماتوس ليست لديه خطة بديلة. هناك حجر مفقود، وماذا في ذلك؟ إنه فقط جنديّ سقط ميتًا بسبب الملاريا قبل المعركة؛ ويتوجّب علينا الاستغناء عنه. يمشي حول الطاولة شابكًا يديه خلف ظهره. أعطني عهدًا أن ذلك لن يكون أنت في أولى المعارك الحقيقية، وأنك لن توقّع هدنة عند أول قطرة دم، وأنك تعرف كيف تلعب جيدًا بثمانية وعشرين حجرًا، وبذات الإجادة مع أحجارٍ أقل. أستطيع العناية بنفسي في المعركة، يردّ

ماتوس لمجرد أن يقول شيئًا جريئًا، لأنه لن يترك هذا الفتى الضلف يناكده، لكن هل لك أن تقدّم لي معروفًا بشرح كيف يمكنك اللعب دون أحد الأحجار. يطلب أوبالدو من إيبانييز وسانتياغو إخلاء مكانيهما للمتنوّرين، بحيث يتكوّن الشركاء من كومودورو وميلاغرو أولًا، ومن أثوثينا وسيريّو ثانيًا. يلقي الأحجار على الطاولة ويمزجها. تعلمت العدّ وأنا ألعب هذه اللعبة، يقول أوبالدو، بداية إلى العدد ستة، ثم إلى ثمانية وعشرين، وأخيرا بعدّ كل النقاط السوداء وصلت إلى مئة وثمانية وستين. لم يتفوّق أحد في المعهد على هذا الإنجاز. يرفع كومودورو حاجبيه دَهِشًا. أثوثينا تخلع حذاءها حتى تتمكّن من دعك قدميها معه تحت الطاولة؛ يقول ميلاغرو إنه في وقت ما كان يستطيع التعامل مع الأرقام بالمئات والآلاف، وحتى بلغة أخرى، ويؤكّد لهم أنّه سوف يستعيد مهاراته في الرياضيات. أجل، أيها السادة، مجدّدًا، سأتمكن من حساب سعر اثنتي عشرة بيضة إذا كانت كل واحدة تكلف خمسين سنتًا. أقسم على ذلك. يطلب أوبالدو من كل لاعب أن يلتقط أحجاره. فيفعلون، وبعد أن يتمّ التوزيع، يكون لدى سيريّو ستة فقط. لا داعي للانزعاج، أيها الأصدقاء، لا يعدو الأمر مسألة تخيّل أنكم تأخرتم على اللعبة، وقد سبقكم سيريّو بالفعل بوضع أول حجر. أيمكنك معرفة أي واحد كان؟ يتفحّص الرجال أحجارهم ولكن هو ماتوس الذي يجيب. أتصوّر أنّني أعرف أي حجر كان. يجلس ميلاغرو إلى يمين سيريّو؛ إنه دوره. الرجال الأربعة يفحصون أحجارهم ويعرفون أنه لا يوجد بديل؛ لذا يضعون الحجر خمسة-فراغ. الآن هم ينظرون إلى أثوثينا ويختارون بالإجماع الحجر خمسة-خمسة. وعندما لا يكون هناك خيار آخر، فإنهم يلعبون الحجر الوحيد المسموح به أو يتجاوزون اللاعب؛ لمّا يكون عليهم الاختيار، يتوافقون دائمًا على ما يجب القيام به. هذا يجعلهم مزهويّن. يمكنك ملاحظة أننا خبراء، يقول رامون عندما تنتهي اللعبة، اتخذنا نحن الأربعة القرارات ذاتها. بالنتيجة يكون سيريّو هو الفائز، لكنه لا يصحو إلى أن تحتضنه أثوثينا. لقد فُزنا، تُخبره وسط القبلات، أنت عبقري. يمكننا إلغاء المزيد من الأحجار، يقول أوبالدو، وتظلّ اللعبة كما هي، عليك فقط أن تتخيّل

أنك وصلت إلى اللعبة في وقت لاحق. أشعر بالملل، يقول سانتياغو ويبدأ في تعاطي الشراب. أنت تحتاج فقط إلى أربعة أحجار لأربعة لاعبين، يواصل أوبالدو، وما عليك سوى عدّ النقاط السوداء؛ ومن لديه نقاط أكثر هو الرابح. هذه لعبة مختلفة، يقول رامون. إنه هي ذاتها، فأنت لن تربح أكثر ولا ستخسر أقل، يمزج أوبالدو القطع على الطاولة، لكنك بالتأكيد توفّر بعض الوقت. لا تزال أثوثينا تعانق سيريّو سعيدةً. لقد مضى وقت طويل منذ أن فزت بأي شيء، تُقبّلهُ على جبينه، كانت آخر مرة عندما وجدتُ الأحرف الساكنة. يخرج ماتوس طلبًا للهواء النقي. وبينما يتأمّل السماء المظلمة يدرك أنه سُلب جزءً كبيرٌ من حياته بين أوبالدو وكومودورو. يهزّ كتفه. لعل الأمرَ غير مهمّ، يحدّثُ نفسه، لعلّ تلك كانت هي آخر لعبة في حياتي؛ بقطع أكثر أو أقل، فأنا لن أتمكّن من اللعب إذا تمكّن غرينجو من اختراق دماغي برصاصة.

*

استيقظوا أيها الجنود. حان وقت الذهاب. يفتح كومودورو عينًا واحدةً ويرى أنه لا ضوء يعبر من خلال النافذة. الظلام ليس وقتًا للاستيقاظ أو الذهاب إلى أيّ مكان، الظلام يصلح فقط للموت في نومك أن كنت كبيرًا في السنّ، وما زلتُ بعيدًا عن ذلك. يتقلّبُ في فراشه ويعاودُ النوم. يثبُ أوبالدو من السرير ويسأل ماتوس إن كان يريده أن ينخس الآخرين، على أنه شاهد القوات تستيقظ دومًا على البوق الذي يعزف خارج الثكنات، أعلى التلّ حيث بالكاد يمكنك تمييز خيال عازف البوق. ليس لدينا بوق ولا طبل ولا دف أيضًا، فاذهب واصرخ في آذانهم، هزّهم واسحب أرجلهم؛ بعد عشر دقائق، أريدهم في غرفة الطعام لأن فطورهم سيبرد.

يقوم أوبالدو بعمل جيد، لأنه قبل انقضاء الدقائق العشر، يجلسون جميعًا حول المائدة، مرتدين ملابس مناسبة، باستثناء كومودورو، الذي على غير عادته حضر بملابسه الداخلية فقط. أدرك غلطته عندما لم تلمس أثوثينا طعامها وجلست

هناك تحدّق به. حسنًا، يقول، ولكن لا تدعوا أي شخص يلمس طعامي. يعود إلى غرفة النوم ويجد ملابسه متناثرة في كلّ مكان على الأرض. إذ إنه نزع ثيابه بسرعة للحصول على أفضل سرير، سرير طويل بفراش سميك، ولوح أمامي خشبي، وغطاء من الصوف. أثبتت جهوده عدم جدواها، لأنه بينما كان مرتاحًا ومتدثّرًا في الملاءات، أصرّ رفاقه على أن ذلك كان سرير سيريّو؛ والبقية يمكنهم أن يتدبّروا أمورهم مع المراتب الرقيقة التي رتبوها على الأرض، ويمكن لأثوثينا أن تستخدم الأريكة في الغرفة الأمامية. على مضض احتلّ كومودورو واحدة من المراتب الرقيقة، وهناك، قبل أن تُطفأ الأنوار، ووجهه مستوٍ مع الأرض، تمكّن من رؤية زوج من الأحذية المطاطية السوداء تحت السرير. لم يخلد إلى النوم على الفور، إذ صلّى أن تكون على قياسه. حلُم بنفسه عابرًا كل ساحات القتال في العالم، مُصدرًا صريرًا بخطوات من مادة اصطناعية، مطوّحًا بالجنود سواءً كانوا مسلّحين ببندقية أو سيف أو سيف معقوف. نجح ماتوس وأثوثينا في إدخال سيريّو في بيجامة قطنية صفراء، وغنت أثوثينا له بصوت رقيق إلى أن تأكّدت من نومه.

كومودورو الآن يرتدي ملابسه على عَجَل، لأنه يعلم أن ترك طبق من اللحم والبيض بالقرب من رفاقه مجازفة؛ يمكن لامرئٍ إفراغ محتوى مملحة عليه أو أن يبصق فيه، أو أسوأ من ذلك، أن يقضي عليه. جوارب رمادية، وقميص أزرق، وبنطال بنّي أوثق جيدًا بالحزام، الذي اعتلى إبزيمه الثقيل مكانًا ما بين سرّته وثدييه. عندما يحين وقت وضع حذائه، يمدّ يده تحت السرير ويسحب الجزمتين خارجًا: مطاط لامع من الخارج مبطن من الداخل بكتّان أبيض، وبإطار يحاكي شكل الخياطة. كومودورو يُصلّب(32) ويزجُّ بقدميه فيهما. إنها واسعة جدًا؛ لا شيء لا يمكن علاجه بثلاث طبقات من الجوارب. يذهب إلى المرآة وينظر بإعجاب لأنه يبدو كسائس خيل. إنه مقتنع بأن هذه الأحذية العالية التي

كومودورو بصوت عميق، ويبدأ بالتجوّل في دوائر حتى يتسنى لجمهوره أن يتملّى من أناقة أقدامه، وصفات الرجولة في خطواته. أيها السيدات والسادة، سيقول كومودورو، عاقدًا ذراعيه أمام المرآة ثم عليه أن يصمت فجأة، تمامًا مثل جمهوره، لأن التوقّع ثمين والكلمات رخيصة.

يعود إلى الطاولة ويفترس وجبة إفطاره سريعًا لأن غرفة الطعام فارغة، ويمكنه التقاط الصخب في الخارج وصيحات هيا بنا نذهب. عندما يخرج يتمكّن من رؤية أصدقائه في عربة. وماتوس يقرع البغل بسوطه والبغل يهمُّ بالمشي. يركض كومودورو بطريقة خرقاء صوبهم، وجهه أحمر وقطعة من اللحم عالقةٌ بين أسنانه؛ يمسك بأيدي أثوثينا وأوبالدو، ويساعدانه على صعود العربة. يتداعى إلى جانب سيريّو، قرب الحقائب المدرسية والبنادق المختلفة الملفوفة في بطانيات الصوف. ويريحُ رأسه على كيس من الفاكهة والمؤونة. يتقلّص صرير العجلات مع كلّ دورة إلى أن يختفي تمامًا. يفترض كومودورو أنه لولا جزمته المطاطية، لما تمكّن أبدًا من الوصول إلى العربة. ظننت أننا ذاهبون بالسيارة، قال عندما تمكّن من التقاط أنفاسه، أو بالحافلة أو القطار، تسافر الجيوش في قطار الشحن. يومئ أوبالدو برأسه دون أن ينبس بكلمة، وعلى أن الشمس قد بزغت للتو، فإن كومودورو يتمكّن من رؤية الغضب والمكر في وجهه.

*

هناك بعض الأوراق البيضاء وقلم حبر جاف في حقيبة كومودورو المدرسية لأنه يريد أن يطلب من أثوثينا أن تكتب له رسالة، فلا ينبغي لجندي أن يذهب إلى الجبهة دون رسائل من فَتاته؛ لديه أيضًا أربعة أزواج من الجوارب وخمسة أزواج من السراويل، التي إن عددت ما يرتديه منها لصارت سبعة وستة، على التوالي، لأنه ارتدى ثلاثة أزواج من الجوارب ليجعل حذاءه مناسبًا. حقيبة كومودورو المدرسية ليست باللون الأخضر الجيشي، وليس عليها أوراق شجر مزيفة توفّر التمويه في الغابة، ولا تشبه لون الرمل لتنسجم مع الصحراء؛ هي

مصنوعة من جلد سميك مصبوغ باللون الأزرق، مع مقصورة كبيرة مخصصة للدفاتر والكتب المدرسية، بجيبين خارجيين يمكنك تخزين أقلام الحبر، وأقلام الرصاص، والمحايات، وبوصلة، ومنقلة، وعلكة. وعلامة معلقة من أحد طرفيها تقول معمل أوبرايان للحقائب المدرسية الفاخرة، الطراز الأولمبي، صنع في المكسيك، مئة بالمئة من جلد الأبقار. وبما أنه ليس لديه كتب مدرسية، يحمل كومودورو علبة الجيلو الأخضر والخيارتين؛ يعرف أن الجيلو يمدّ بالطاقة، ويمكن تناول الخيارتين بديلًا للماء عند عبور الصحراء، على أنه يرغب في الاحتفاظ بإحداهما لحظة وفاته. عندما لا يمكن العثور على الطاهرة في أحد جيوب بنطاله، فهي تسافر مرتاحة في جيب الحقيبة الأيمن، لأن كومودورو يضع أمواله في الجيب الأيسر، بعض الأوراق والقطع النقدية التي ادّخرها، من بينها عملة تذكارية من الألعاب الأولمبية، بقيمة خمسة وعشرين بيزو. جلبها فقط للطوارئ، فليس لديه نيّة في إنفاقها؛ فقد صار مولعًا بصورة الهندي الأحمر الأثري المختوم عليها، راقصًا فوق خمسة أطواق وبجسم كروي في يده يصلح أن يُعدّ قنبلة يدوية. إن لم تكن الرصاصة التي ستقتله ستفعل ذلك من فورها، فسيكون لديه الوقت لإخراج رسالة أثوثينا وقراءة فقرة غرامية، ثم يضمّ قبضته على الورقة ليقول للعالم إنه، أيًا تكن كيفية موتك، فالسبب دائمًا هو قلبٌ كسير. ثم يقضم الخيارة. ارقد بسلام، يا كومودورو، سوف تتذكّرك أرملتك، وستحصل أرملتك على أشيائك التي تتكوّن من بعض السراويل، وجزمة مطاطية، وبعض الخردة، وعملة عليها التمسّك بها تذكارًا.

كومودورو لديه المزيد من الأشياء في حقيبته المدرسية. فقبل مغادرته إلى المعهد في ذلك الصباح، جال في البيت آخذًا كلّ شيء يظن أنه ذو فائدة. علبة ثقاب لإحراق حقل من الذرة الرفيعة أو لتسخين قدر من الطعام في المخيم؛ كولونيا ما بعد الحلاقة، بيد أنّه لا يدري الآن لماذا ظنّ أنه قد يكون ذا فائدة؛ سكين، وشوكة، وملعقة؛ حزمة من ذات الخمسين محرّمة. وقطعة صابون. أخيرًا، لإخفاء المحتويات في حال قام أحدهم بالتطفّل على ممتلكاته، وضع

فوقها كتابًا مفتوحًا على هيئة السقف المزدوج المائل، وهو كتاب يظهر غلافه دجاجة تضع تاجًا وتحمل صولجانًا. كان سرقه في تلك الظهيرة من رف كتب المعهد، وحكمًا على الرسم، فهو يحوي قصة قرؤوها قبل شهر وكان سيريّو قد استطابها كثيرًا.

حقيبة أثوثينا المدرسية وردية اللون تحمل صورة لفتاة شقراء تتزلج على الجليد. لها مقبض لحملها باليد وحزام لتعليقها على الظهر. تحوي قلماً جافاً بسنّ دقيق، علبة من الألوان، ورغيف الخبز. لم يخطُر لأثوثينا أن تحزم غيارًا واحدًا على الأقل من الثياب، ولا حتى الملابس الداخلية. ولكنها وضعت إبرةً وخيطًا فقط تحسّبًا لتمزُّق شيء. جلبت دمية جامدةً باستثناء شعرها الاصطناعي والطريقة التي تغلق بها عينيها عندما تطرحُها جانبًا، لكن تعليقًا متحذلقًا من كومودورو دفعها لترك الدمية في المعهد، فوق رف الفصل. إنها تفتقد الدمية، وتغضب حينما تفكّر بأن شخصًا آخر قد أخذها الآن. من المستحيل افتراض أن بعض رفاق الصف لم يسرقوها. لديها مبراة، وقلم رصاص، وقلم حبر جافّ من النوع الذي يطقطق. ولديها دفتر ملاحظات لولبي يحوي كتابات في صفحتين فقط؛ في الأولى كتبت حصانا، كلبا، قطا، فيلا؛ وفي الثانية، كتبت بالحبر الأخضر، كومودورو وسيم، الوسامة هي كلّ ما عليه كومودورو، إنه وسيم، ذاك الكومودورو، ليس كثيرا، بقدرٍ ما، ليس على الإطلاق. ومن أجل يوم المعركة، التقطت أثوثينا بعض عدة ماكياج أمّها. إذا اقترب منها الموت، فإنها تريد أن تبدو جميلة وهي ممدّدة على الأرض أو المتراس، شفاهها حسنة وحمراء، برموش زائفة طويلة، وجهها مغطّى جيدًا بالمساحيق لتجنب ضربات الإضاءة غير المرغوب فيها في الصور، وخدّاها متوردان حتى لا تبدو مثل جثة، إلا أنها لم تكن واثقة من ذلك، إذ أنّ أحمق، ظنًا منه أنها لا تزال على قيد الحياة، قد يُقدم على تسديد طلقة الرحمة التي لن ينتج عنها إلا سَلْبها كل أثرٍ للجمال. ولذا تحملُ شيئًا من العطر برائحة الزنبق، حتى لا تكون هي الوحيدة بين الموتى التي تفوح منهم رائحة الجيفة. كما أنّها لا تزال بحاجة إلى توقيع ماتوس على إقرار.

ستطلب فيه من العدو، بصرف النظر عن مدى جاذبيتها، أن لا ينقلوها معهم غنيمة، بل يعيدونها إلى وطنها متفضلين.

لا يحمل ميلاغرو شيئًا يستحقّ الذكر في حقيبته المدرسية، مجرد أشياء عادية، بما فيها قشر الموزة تلك التي أكلها قبل أن يأتي ماتوس في طلبه.

اعتاد سيريّو حمل حقيبة منسوجة إلى المعهد، واحدة تكاد تكون نسائية، تتدلّى من كتفه بحبل من الصوف السميك وتثبت بزرّ أصفر بحجم دولار فضّي. لم يضع أيّ شيء بها، تولّت أمّه ذلك. إنه يحمل رسالتين موجّهتين إلى ماتوس؛ واحدة كتب عليها أنّه يجب عليه فضّها في أقرب وقت ممكن، والأخرى يجب عليه قراءتها قبل الدخول في المعركة. لن يبدي ماتوس أيّ اهتمام لترتيب الرسالة الثانية وسيفتحها في أيّ مكان على الطريق، عندما يقرّر ذلك. سيريّو لديه وسادة أرجوانية وبطانية صغيرة، وكتاب صلاة للأطفال، وفرشاة أسنان ومعجون، ومشط وكريم للشعر، وغيار مماثل لما يرتديه إلّا أنّه قد يكون أكثر بياضًا، وزوج من البيجامات الصفراء، والسراويل الداخلية، وصبغ أبيض لحذائه، وزجاجة من غسول الفم بنكهة النعناع، وكولونيا، ولفافة ورق التواليت، وزوج من قصّافات الأظافر، وبودرة تَلْك للأطفال، ومرطب بشرة للأطفال. العلامة الوحيدة التي تشير إلى أنّ والدته ترسله إلى الحرب هي عبارة عن لفافة من الضمادات.

يبدو أن أوبالدو وحده كان مدركًا تمامًا لمهمّته عندما ذهب لحزم حقيبته المدرسية صبيحة رحيلهم. فحمل ثلاثة سكاكين مخصّصة لتقطيع اللحم، وإبرتا حياكة، ونازعة سدادات الفلّين، ومقلاع، ومنظار، وعلبة دبابيس، معظمها صدئ. هو يحلم باللحظة التي يلاحقه فيها حشد من البرابرة الشماليين؛ سوف يرمي الدبابيس في طريقهم ويستمع إلى صيحاتهم وهم يتقافزون على قدم واحدة. كما حمل أيضًا قاموسًا ثنائيّ اللغة، مُلاحظًا ضرورة إفهام حديثه للعدو، حيث وضع خطًا تحت الكلمات لتسهيل العثور عليها، كلمات مثل استسلام، وإعدام،

وسجين، وهدنة، وصفح.

ولكي نكون منصفين، على المرء أن يوضّح أن كارالامبيو أيضًا كان مدركًا لمهمّته. فإلى جانب كيس الكيلوغرام من سمّ الجرذان، فهو يحمل مسدسًا، وقد أطلقه في الهواء وسط الجلبة التي ثارت في المعهد عندما اكتشفوا أخيرًا غياب المتنوّرين الخمسة. هذا هو السبب في أنّ أول ما طرأ في ذهن الناس هو أنّ كارالامبيو قد أطلق النار عليهم، فبحثوا عن الجثث في الحمامات، في العيادة، وفوق السطح. الظنّ الثاني الذي عرض لهم، بعد أن تجاوزوا رُعب إطلاق النار، تمثّل في أنّ كارالامبيو هدّد بقتل رفاقه، لذا فرّ الخمسة من المعهد. وعلى ذلك فليس هناك ما يدعو إلى القلق، وما هي إلا مسألة دقائق قبل أن نتمكّن من العثور عليهم على بعد بضعة مبانٍ من هنا.

*

يتفقّد ماتوس جنوده الخمسة. لم يعد يزعجه وجود امرأة في فرقته، فهو قلق الآن بشأن الهيئة التي يبدو عليها سيريّو، مكسوًا بملابس بيضاء، مرتديًا بنطالًا قصيرًا، وجوارب تصعد قريبًا من ركبتيه، وقميصًا من الدانتيل مكشكشًا حول الرقبة، وربطة عنق زرقاء صافية، وحذاءً جلدياً لمّاعاً، وكأنّه متأنّق لحفلة بانياتا(33) من القرن التاسع عشر أو للدفن الفوري. يمكنني إطلاق النار على رأسك الآن، يقول ماتوس، أضع ماسورة المسدس في مؤخّرة رقبتك وآمرك أن تتلو صلاة أخيرة للربّ وينتهي كلّ شيء: تدخل الرصاصة وتخرج دون فوضى، وأعيدك، متخشّبًا، إلى أمّك مع مذكّرة صغيرة تشرح كيف كنت أشجّع رجالي ونسائي وأطفالي؛ ويمكن تركك تحت ظلّ شجرة ونتكدّس جميعًا في العربة وأنخس البغل ليتحرّك. وستظلّ هناك واقفًا دون حراك، أبيض ونظيفًا تمامًا تحت ضوء القمر لأنه سيكون من العار أخذك إلى الحرب حيث تتّسخ ملابسك؛ يمكن أن أحملك وأضعك على جانب الطريق، وقبل أن تُدرك، ستأتي امرأة وتغرقك بالقبلات قائلة إنّ هذا هو الطفل الذي كنت أرغب دائمًا في الحصول عليه.

ثم تضعك في سيارتها لتكبرَ في أحضان عائلة أرستقراطية جديرة وقميصك الدانتيلي، تحصل على الشاي والكعك في معاده، ذاك الكعك الذي يتفتّت إلى ذرّات عندما تعضّه، وانتبه كيلا يتعرّض الطفل لكثير من الشمس لأننا لا نريده أن يبدو مثل هندي. أستطيع تخيّل الكثير من الأمور، لكن لا يمكنني تخيّلك في ساحة معركة تنزل بها قنابل تثير الطين، فحتى أثوثينا تبدو أقرب لرجل أكثر منك؛ هي تُطلق الرصاص من بندقية وأنت تُنشد ترنيمة عيد الميلاد كفتًى من فيينا، يمكنها القبض على خنجر وأنت تضع عصابة على العينين وتدور ثلاث مرّات قبل أن تعلق الذيل على الحمار، هي تنزف وأنت تُروِل. أي نوع من الأبطال تريده أمّك؟ بطل كرتوني يظهر في إعلان نوع من المنظّفات؟ لا، يا سيريّو، أريد أن أراك مرتديًا لباسًا مختلفًا: بطريقة تبعث الخوف أو الاحترام في خصمك. هل هو دائما بهذه البهرجة؟ ماتوس يسأل البقية. لا، يجيب أوبالدو، لقد حضر هذه المرة متأنّقًا لحفلة، وقد يكون ذلك لا بأس به، تبعًا للكيفية التي يرى بها الحرب؛ سيختلُّ التناغم إذا وضعنا بندقية في يده، لكننا إذا أعطيناه رأسًا نوويًا، فسيكون صورة حية لعفريت الفناء(34). لننظر إن كنتَ جلبتَ أي ملابس أخرى، يقول ماتوس وهو يفتش في حقيبته المدرسية. ينعقد وجهه عندما يجد بذلةً أخرى مماثلة ومجموعة كاملة من مستحضرات النظافة والجمال. يستخرج الخِطابين ويلاحظ أنهما موجّهان إليه، جناب قائد الجيش ماتوس. يدسّ الخطاب المفترض منه فتحه قبل المعركة في جيبه، ويفضُّ الخطاب الآخر.

*

يُخلّفُ ماتوس سكة حديد سالتيّو(35) وراءه وينعطف يمينًا، متتبعًا خطّ السكة إلى بييدراس نيغراس(36). يعرف أنّه لا يزال أمامه خمسة كيلومترات وثلاثمئة متر، وإذا أراد أن تكون له فرصة في الفوز فإنه يلزمه الوصول إلى تلك النقطة في غضون ساعتين. حذاؤه الأيمن يضايقه منذ أن وصل إلى فيلا دو غارثيّا، كانت أربطة حذائه مرتخية واحتكاك الجلد بجواربه السّمِل أحدَثَ جُرحًا

نازفًا في كاحله. تبعًا لحسابه خلُص إلى أن ربط حذائه سيكلّفه عشرين ثانية؛ لا يملك هذا الترف وكلارنس ديمار يطبق على رقبته. عشرون ثانية تساوي مئة متر أو أكثر لأن تلك الحوادث تصب في مصلحة العدو فيتعجّل، مُخلّفًا ماتوس محبطًا وفوق ذلك مرهقًا. لتنزف قدمي، ولتقع أظافري، تظهر بثور وثفنات وكدمات، ليئنّ جسدي كما يشاء فلن أنصت له، لا تَدَّعِ النصر، يا كلارنس، أنا هنا بإزائك، خطوة بخطوة حتى تنهار.

كيف نُبلي مع الوقت؟ يتلفّظ بالكلمات لاهثًا. يتفقّد رامون الساعة ويدفع بحصانه ليلحق بماتوس. ساعتان وثلاث دقائق. يتلقّى ماتوس الإفادة بغضب. ثلاث دقائق زائدة على الوقت، وهذا يعني أن قفا كلارنس ديمار قد تضاءل، يكاد يستحيل اللحاق به وهو على هذه المسافة، هو متأكّد من أنه يرفع يديه دلالة على الفوز. وإضافة إلى كلّ شيء آخر، يستمتع كلارنس بنسيم باريس القادم من النهر مخشخشًا عبر الغطاء النباتي الكثيف. تجاوزت الساعة الخامسة هناك، وستنحسر شمس الصيف. وهي توًا اجتازت العاشرة صباحًا هنا، والشمس لم تشتدّ بعد، ومع ذلك فهو يتصبّب عرقًا حتّى مع وجود رقعة من الملح على جلده بالفعل. يُسرع ماتوس ويتحوّل تنفّسه إلى نشيج؛ يشعر وكأنّه لوحٌ خشبيّ ويداه مثبتتان بالمسامير وذراعاه تتحركان بخَرَقٍ خشبي. تهبّ الريح وتُدوّم الغبار الذي يثيره كلارنس ديمار، والفنلنديون الطائرون وعددٌ آخر من المتسابقين الآخرين الذين لم يضيعوا ثلاث دقائق على شيء تافه. التشيلي مانويل بلازا دون شكٍّ ضمن المجموعة لأن الصحف زعمت أنّ لديه فرصةً للفوز بميدالية وأطلقت عليه لقب أمل أميركا اللاتينية. على الرغم أن ماتوس يبذل أقصى جهده، إلّا أنه من الواضح لسانتياغو ورامون أن سرعته قد تضاءلت. كلاهما يظنّ أن صديقه سوف ينهار مع كلّ خطوة. يقرّب سانتياغو حصانه إلى جانبه ويسكب الماء من الجرّة على رأس ماتوس. هل ستدع الغرينجو اللعين يفوز؟ ينهمر الماء طازجًا ومالحًا ويهيّج عينيه. لم تعد الفتيات الفرنسيات على طول الحلبة يصفقن، فقد سئمن من ذلك بعد العدائين الأوائل، أبناء الدول المتحضّرة؛ يشاهدن ماتوس بصمت

Telegram:@mbooks90

وحنو، فجهوده عديمة الجدوى تثير الشفقة. إنه مكسيكي، تقول أحداهن، وأخرى تعلّق أن المكسيكيين رائحتهم كريهة.

تمضي الدقائق، عشرون دقيقة ربّما، أو نصف ساعة أو أكثر. ماتوس ظمآن: فمه صار دبقًا، غير قادر على البصق. المشقّة ثقيلة على جسمه كله، وهو متداعٍ للغاية، حتى إنّ الاعتراف طواعية بجريمة. نعم، لقد قتلته؛ أرجوك لا تجعلني أركض بعد الآن. ومع ذلك فهو يواصل ويتخيل استاد الكولومب، إنه واثقٌ من أنه يستطيع أن يراه هناك حيث ينحرف مسار القطار خلف تلّة، أو يمرّ على جسر يمتدّ فوق نهرٍ خالٍ من الاسم ومن المياه. لا يزال يتعيّن عليه القيام بدورة حول المسار. هنالك مصوّرون وحكم من شأنه أن يخبره بمدى أهمّية التنافس، وأنّ من الأفضل له إظهار العزيمة حتّى عبور خطّ النهاية، وإن لم يتمكّن من ذلك فسيرسل الحكم اثنين من موظّفي الإغاثة لمعاونته، وانطلاقا من ذلك يعطيان لهم سببًا وجيهًا لاستبعاده، ولكن لا تقلق، يا سيد ماتوس، سنقدّم لك لقاء جهودك شهادةً موقّعةً من البارون دي كوبرتان(37) شخصيًا، ينادون على كثيرين ولكن الفائز واحد. يتعثّر ماتوس بإحدى الرباطات. يصعب عليه استعادة وتيرته، إنه غير واثق من قدرته على المواصلة. يستمرّ التعذيب وينبغي له أن يعترف. لقد قتلته، يقول، لاهثًا، قتلته لأسرق ساعته السويسرية بالغة الدقة.

*

الجنرال ماتوس المبجّل، أُرسل لك هذه السطور لأعطيك بعض الإرشادات بخصوص سيريّو؛ لا أنوي أن أشُقّ عليك بذلك، فغايتي أن تجدَه دائمًا محاربًا مستعدًا وراغبًا. ولمّا كنت تعرف أن الجندي الذي لا ينام بشكل جيد ليس جنديًا متأهّبًا، فإنني أتوسّل إليك أن تغطّيه بشكل جيد ليلًا ببطانيته والتأكّد من أنّه لا ينسى أبدًا وسادته الأرجوانية، فليست تريحه أي وسادة سواها. هُشّ البعوض بعيدًا واستخدم الكولونيا مادة طاردة. فكرت في إرسال بعض قصص الأطفال معه، لكنها ثقيلة جدًا وأفترض أنك تعرف بعض القصص التي تستحقّ أن تُروى.

أرجو أن تتجنّب تلك التي تظهر فيها الأقزام، لأنّها سوف تُبقي سيريّو مستيقظًا حتّى الفجر. لقد وضعتُ كتاب الصلاة في حقيبته المدرسية؛ به رسوم ملوّنة ويمكنه المساعدة في رفع معنويات ابني ومعنويات بقية الفوج إذا غدت الرحلة مُضجرة. أفكّر بشكل خاصّ في الصفحة السابعة عشرة. أما فيما يخصّ ملابسه، فقد ضَمَّنتُ غيارًا لزيّه وخمسة أزواجٍ من الملابس الداخلية. يرجى التحقق للتأكد من أنه يغير جواربه كل يومين. يجب عليك غسلها بالمبيض، ويفضل أن يكون ذلك في ماء مغلي في مدّة تتراوح بين أربعين إلى خمسين دقيقة.

يتنهّد ماتوس ويلقي نظرة على سيريّو. يبتسم الولد ابتسامة عريضة وهو ينظر بإعجاب من مقعد السائق إلى مؤخّرة البغل. لا ينبغي له تناول الطعام اللاذع، تُواصلُ الرسالة، وعليك تقطيع اللحم له إلى قطع صغيرة. لا يقرأ ماتوس أبعد من ذلك، يرمي الأوراق بعيدًا حتى دون تخيُّل ما سيتبع. بعد تدويمة قصيرة في الهواء، تستقرّ الأوراق بين الأجمات.

كومودورو وأثوثينا في ظهر العربة، وأقدامهما ترفس في الهواء. يشاهدان الأوراق التي تسقط إلى الخلف، متهادية برفق مع الريح. شهادةُ وفاتِكِ، يقول كومودورو. نعم، تردّ أثوثينا، كنتُ سيدة عظيمة.

*

تتوقّف العربة إلى جانب طريق. يمكن رؤية أضواءٍ ملوّنةٍ وامضةٍ في نهايته. ماتوس يستدير ويخاطب بضاعته الغافية. هناك قانون عسكريّ منذ زمن الرومان، وهو أنّ على كلّ جندي أنْ يشرب، ويرقص، ويضاجع قبل دخوله المعركة، وهذا يضمن له، في حال موته، أنه غادر هذه الأرض مع شعورٍ بأن حياته لم تكن عبثا. ولكن فوق كلّ شيء آخر، سيبثُّ رغبةً هائلة في مواصلة العيش، وهو ما يُترجَم إلى إحساسٍ بالصبر والإقدام عندما يحين وقت المعركة. الكحول هو منشّط المحاربين، جرعةُ المِيتة الملائمة. يراقبهم ماتوس وهم يفركون أعينهم، يتثاءبون، يحكّون أعضاءهم، ويعلم أنه سيكون من الصعب عليه أن

يصنع منهم جنودًا حقيقيين، لأنّ الصبية يخسرون الحروب دائمًا. إنهم الرجال الحقيقيون، أولئك الذين لديهم نساء ينتظرن عودتهم، هم الوحيدون القادرون على الإجهاز على خصومهم، لأنه في النهاية، لا تُربحُ الحروب من أجل بلد الآباء والأجداد، بل من أجل النساء اللواتي تركناهنّ خلفنا، ويَظهرُ أن المرأة الوحيدة التي حلم بها هؤلاء الأولاد هي تلك التي تركب بجوارهم، مستلقية على وجهها، مُبديةً ظهرًا عريضًا ناعمًا، مُحتَضَنًا ببنطالٍ صناعي ذي رباطات توشك أن تنهار، وأيّ خيالات لديهم عن الوجود معها لا ريب وأنها عن دورة في دوّامة الخيل لا أكثر. هل وصلنا إلى تكساس؟ يسأل أحدهم. العريف أثوثينا، يقول ماتوس بحزم، مهمّتكِ الليلة هي حراسة العربة والأسلحة، وانطلاقا من هذه المهمة أؤكدُ أنني لا أجدُ أيّ فرق بينك وبين بقية القوة لأسباب تتعلّق بالجنس، أو العمر، أو المعتقد الديني، أو الجمال الجسدي: سوف نعود قبل الفجر بقليل وعليكِ أن تضعي حياتك على المحك لحماية متاعنا وتجهيزاتنا. عُلِم، يا ماتوس، أجابت أثوثينا وهي تقف مستعدة بحركة خاطفة ويدها على قلبها. فليتبعني بقيتكم بهدوء. بلا أسلحة؟ يسأل كومودورو. يقفز الثلاثة أولًا، ثم ينتظرون حركة سيريّو البطيئة. في الظلام، هو كتلة لزجة هائلة تتمكّن في النهاية من السقوط من العربة إلى الأرض. لا يمكننا انتظارك ولا نستطيع حملك، يُخبره ماتوس، عليك استيعاب ذلك. هل ترى اللافتة الوامضة؟ هذا هو المكان الذي نتّجه إليه. يبتسم سيريّو ويمشي خلفهم.

على مبعدة خطواتٍ قليلةٍ من المدخل يسمعون موسيقا الأكورديون. يتخيّل كومودورو مكانًا متّقدًا ونساء يرقصن وهن يعتمرن قبّعات مغطّاة بالفاكهة ورجالًا يغنّون وأذرعهم حول أكتاف أقرب أصدقائهم. ويُدهش من طريقة ماتوس الواثقة أثناء دخوله دون أن يطرق الباب ودون النطق بكلمة مرور سرية. تأتي الموسيقا من صندوق في الزاوية. رجل على البار يشرب، منكّسًا رأسَه. يهمس أوبالدو لكومودورو بأنه يعرف سلفاً هذا النوع من الأماكن. يقول: يجب أن تحترس، دون أيّ سبب على الإطلاق، ستُحطّمُ رأسَك زجاجة ويسكي. هناك

خمس طاولات للاختيار من بينها، يشير ماتوس إلى أبعدها عن الباب، تحت مصباح إضاءة محترق. يتوقّف صندوق الموسيقي عن اللعب ويمكنك سماع قعقعة مروحة السقف. ما يدهشني، يُتابع أوبالدو، أن لا عازف بيانو مع امرأة تجلس فوقه. الخدمة، يصرخ ماتوس، فتتقدّم إليه امرأة أربعينية ترتدي مئزرًا. يقف ويعانقها، تقول ظننت أنك ميت؛ كلاهما يضحك بصوت عالٍ.

أيها الجنود، هذه لُوز، وستقدّم لنا بعض المشروبات التي ستصنع منكم رجالًا. يتخيّل كومودورو نفسه وهو يكرع زجاجة: يرتدي ربطة عنق قصيرة وحذاءً لامعًا. يتفوّه بجملة تحوي كلماتٍ مثل الاقتصاد والسياسة والتعددية. وهناك شابة قبالته ترتدي تنورة قصيرة يخاطبها بقوله يا آنسة؛ وتناديه يا سيدى. هناك آلة كاتبة لا يستخدمها أحد، ومكاتب، وورق جدران مخطط باللونين الأزرق والأخضر. يا آنسة، أنت جميلة جدًا. شكرا لك، يا سيدي. يا آنسة، من الأفضل الكتابة على ورق مسطّر. نعم، يا سيدي. يا آنسة، عندما يكون الاقتصاد هو السياسة يصبح تعددية. أنت تعرف الكثير، يا سيدي.

يضرب كومودورو بقبضته على الطاولة. أحتاج شرابًا.

تأتي لوز بشراب ميزكال(38) وتملأ أربعة أكواب. هل تريدون الليمون والملح؟ ما إن يتذوّقه كومودورو حتى يشمئز وجهه. يخشى ميلاغرو أن يسيل بعضه فيطلب مصّاصة. وحده أوبالدو يتموضع جيّدًا واضعًا يديه على خاصرته يقول أن طعمه رائع. ومع ذلك، تدرك لوز أنها ارتكبت خطأ وتجلب أربع قنانٍ من الجعة. يا آنسة، يقول كومودورو بعد أخذه رشفة، هذا أفضل بكثير.

شرب الجميع قنينتين ونصف من الجعة قبل أن يظهر سيريّو عند الباب. يضع الرجل قرب باب الحانة عملة أخرى في صندوق الموسيقي وتنطلق الألحان مجدّدًا. يذهب ماتوس ويهمس شيئًا إلى لوز. الكحول ليس كافيًا ليجعلهم رجالًا. ما أعمارهم؟ تسأل وهي تنظر لهم نظرة خاطفة. ليس لدي أيّ فكرة، من الصعب الجزم في حالة هؤلاء الناس، ولكن أيّ شخص مستعدّ للموت يجب أن

يكون مستعدًا أيضًا للحبّ. عندما يلحظ ماتوس أن لوز تبتسم لأوبالدو، يقبض على ذراعها. اذهبي مع البدين، يأمرها. لماذا؟ هي لا تخفض صوتها، واثقةً من أن الموسيقا ستُغرق كلماتها. إنه أقلّهم فتحًا للشهية. ربما، يقول ماتوس، لكنك سترين ما يقول لك من كلام عذب. ماتوس ما يزال يشرب الميزكال ولوز تأخذ رشفة من كأسه وتمدّ ذراعها إلى كومودورو. يأخذها بيده اليسرى بينما يغرز اليمنى في جيبه مداعبًا السيدة الطاهرة؛ إنه يعلم أنّ لوز هي تجسيد لحجر حظّه وسوف يتبعها أينما طلبت منه. إلى أين؟ يقول ليتكلّم بأيّ شيء. إلى الطابق العلوي، سنكون وحدنا هناك. مضطربًا، يومئ برأسه. إنه ثمل أكثر ممّا كان في حياته كلّها، ولهذا، بقدر ما يريد أن يغدو رجلًا حقيقيًا، يؤدي بضع خطوات راقصة وهو يصعد الدرج.

يملأ ماتوس كأس أوبالدو بشراب الميزكال. أبلغني كومودورو بأنك فنان. نعم، أنا أحد العظماء. أخبَرَني أنك رسمتَ منظرًا طبيعيًا به جبال وأرنب. لم يكن أرنبًا، قال أوبالدو، إنّ نظر البدين سيّئ، كانت دبابة، لها مدفع، لا آذان، وإذا لم نتمكّن من هزيمة العدو، فعلى الأقلّ يمكننا سرقة الكثير من أبقارهم وإثارة القطيع، فيهرب الكثير من النساء والشيوخ والأطفال صارخين. ونفجّر سدودهم، ينضمّ ميلاغرو إلى المحادثة، وننهب المتاجر ونقطع خطوط الهاتف. سابقًا كنت أرسم الأرانب؛ الآن بعد أن أصبحت رجلًا عسكريًا، لم يعد لديّ وقت للتفكير في الحيوانات، باستثناء الخيول. هل تودُّ أن أرسم لك دبابة؟ أستطيع أن أفعل ذلك على منديل. يهزّ ماتوس رأسه. هنالك بعض الرسوم من أيام غزو الغرينجو لمونتيزّي. قاموا برسم قصر الأسقف(39) كما لو كان قلعة من القرون الوسطى، أنا واثق من أنك كنت ستقوم بعمل أفضل، وستضفي مزيدًا من الواقعية على جبل السرج ولن تضع علم الغرينجو ضخمًا في المقدمة. كنت سأضع العَلَم الياباني، فهو الوحيد الذي أعرف كيفية رسمه. أما أنا، فسأضع المكسيكي، يقول ميلاغرو. لا أحد يعرف كيفية رسم العلم المكسيكي، إنه أمر مستحيل، وأكثر استحالة في المعهد حيث يعطوننا علبة من دزينة ألوان؛ ولأنك تروي الأكاذيب،

فسوف أرسمك ميتًا بعد أن دست على لغم أرضي، وسيريّو واقف بجانبك، يحدّق فيك، ويُزوِل. يتحرّك سيريّو في مقعده عندما يسمع اسمه؛ يمدّ يده لأخذ زجاجة الجعة. يُخرج أوبالدو قلمًا من جيبه ويرسم وجهًا بلا عينين؛ ويرسم جسدًا على الأرض، صغيرًا بشكل غير متناسب، قدماه بثلاثة أصابع لكل منهما. هنا يرقدُ ميلاغرو، عريف المشاة في الجيش المكسيكي، ليَخشُر والده سيارته في قبره، وليبتلّ جثمانه بدموع أمّه الميتة، ولتلقِ عماته قرنفلةً على قبره، وليحكِ له معلّمو المعهد قِصّة الجندي الذي ظنّ الجميع بأنه ميت ولكنّه عاد إلى الديار بعد أن عاش عشر سنوات في كهف. أعرفُ هذه القصة، يقول ميلاغرو، يتسبّب انفجار في فقده ذاكرته فيدخل إلى كهف ويرسم الجواميس على الجدران ويمارس الصيد ليُبقي على حياته؛ وفي أحد الأيام تسقط جوزة هند على رأسه فيستعيد ذاكرته، ولمّا كان يعتقد أنّ كلّ شيء حدث أمس، يبحث عن رفاقه، ولكنه يجد فلاحًا يقول له لا، يا سيدي، أنت مخطئ، لقد انتهت الحرب منذ زمن طويل. لا أعرف القصة، يتدخّل ماتوس، لكنني واثقٌ أن الفلاح هو المخطئ. يرفع ميلاغرو كأسه قائلًا نعم في صحّتك؛ تسوء الرعشة في يده فيسكب الجعة على سيريّو. من الأفضل أن تذهبوا للاطمئنان على كومودورو، فلربما يحتاج إلى المساعدة.

يتسلّق الثلاثة الدرج، وسيريّو في المنتصف والاثنان الآخران يساعدانه على طول الطريق. ما إن صاروا في نهاية الدرج، يدفعون باب الغرفة التي رأوا رفيقهم يدخل إليها حتّى يُفتح. عبر الشق في الباب يمكنهم أن يتبيّنوا جسدين عاريين على السرير. كم من خير هناك في العالم، يهمس كومودورو، ثم يستسلم للنوم في هيئة الجنين. المتنوّرون ثَمِلون، وهم أيضا يشعرون بالنعاس. يقفون إلى جانب السرير في انتظار لوز لتدعوهم للصعود، لكنها لا تزال تحدّق في السقف. مرأى كومودورو فاقدًا وعيه وأنفاسه لها صفير يغريهم؛ ربّما تكون هذه فرصتهم الأخيرة للنوم على سرير، حتى لو كانوا سينحشرون معًا. يزحف أوبالدو على الأغطية ويجد له مكانًا ناعمًا بين لوز والبدين، مُريحًا رأسه على

فخذ المرأة. لاحقًا، في منتصف حُلم، لن تعود هناك حواجز أو فروق في الأجساد، وسوف ينتهي به الأمر بمعانقة كرش صديقه المائلة إلى البياض. يتمدّد ميلاغرو في الفراغ بين الأقدام الستة ونهاية السرير، ويرقد وهو يداعب كاحلي المرأة. يجد سيريّو مساحة في الحزّ الذي تركته لوز إلى جانبها الأيسر، ويلف ذراعه بإحكام حولها كيلا يسقط. لوز سعيدة، لم تشعر قطّ أنها محبوبة أكثر من هذا في حياتها، وهي نفسها لم تحب قطّ أيًا من زبائنها بهذا القدر؛ يمكنها أن تعشق هؤلاء المتنوّرين كما الرجال، الأبناء، البشرية. شيئًا فشيئًا تخلد إلى النوم هي أيضًا، مع يقينها بأنها لن تكسب سنتًا هذه الليلة، وهذا يجعلها سعيدة.

تجاوز الوقت منتصف الليل عندما استيقظت. فتحت عينيها وراقبت سيريّو، غافيًا برضا، يشفط ثديها الأيسر. لم يرضع أحد صدرها بمثل هذا الشغف الضئيل ومع ذلك لم يسبق أن استحوذ عليها تمامًا بهذا الشكل من قبل.

تمرّ الدقائق، ربّما نصف ساعة، وسيريّو يواصل شُربه. وعلى أن لوز بدأت تتأذّى، فهي لا تقوى على ردع إرادة شخص يرتدي ملابسَ بيضاءَ وربطة عنق زرقاء فاتحة وحذاء جلديًا لامعًا، وترى فيه شيئًا من فاسق وملاك صغير.

*

تتشبث أثوثينا بإحدى قوائم البغل، إذ تركت مكانها عندما سمعت عواءً من بعيد. إنها تفتقدُ ضوءها الليلي، ذاك الذي يضيء الستائر الوردية في غرفتها ويلقي ظلالًا غامضة، وبابها نصف المفتوح حتى تتمكّن من الذهاب إلى الحمام أو المطبخ كلما أرادت، وتكّات ساعتها ذات العقارب الفسفورية.

العواء يتكرر بإصرار وأثوثينا تقسم إنه يبدو أقرب في كلّ مرة. تغلق عينيها وتتشبث بقوة أكثر. لن يطول الأمر، تقول للبغل، فالشمس على وشك البزوغ.

عندما تشرق الشمس، يكونون جميعًا على استعداد للرحيل؛ سيريّو هو المشكلة الوحيدة، لأنه يرفض التخلّي عن الحلمة الدافئة التي أعطته قدرًا من

الطمأنينة كما تهويدة سماوية.

*

تنطنط العربة على المطبّات في الطريق. تتسبّب الصدمات بزحزحة جسد سيريّو، المتصلّب في سباته، حتّى يصل إلى الحافّة. اسحبوا ذلك الطفل أو سينتهي به المطاف بالسقوط، يقول ماتوس من مقعد السائق. كومودورو وأوبالدو يمسكانه من تحت يديه ويجُرّانه إلى الطرف الآخر من العربة. ترفّقوا، تقول أثوثينا، وتَضَامُّ وسادته الأرجوانية تحت عنقه. ميلاغرو يجلس بجوار ماتوس؛ كان يريد أن يطلب منه العِنان منذ مدة. يبدو من السهل قيادة عربة. بقدر ما يرى، كل ما عليك فعله هو أن تمسك العِنان بيد واحدة، وتهُزّه بين فينة وأخرى، وهو ما تفعله ذراعاه المرتجفتان تلقائيًا، وإرسال قبلات متفرقة إلى البغل. هل يمكنني تولّي القيادة؟ يومئ ماتوس أن نعم ويسلمه القياد. أبقِه مرتخيًا وإلا فسيتوقف البغل؛ إذا كنت تريد من البغل أن يذهب إلى اليسار، فاسحب العنان إلى ذلك الجانب، واستنتج بنفسك كيفية جعله يذهب إلى اليمين. كومودورو يراقب مغضبًا. كانَ الأمر سيئًا بما يكفي بأن يجلس ميلاغرو في المقدّمة، فإذا به الآن يقود. يتمنّى أن تصطدم العجلات بصخرة بحيث تتوقّف العربة مثل سيارة عند إشارة مرور ويندفع ميلاغرو إلى الأمام قبالة لوحة القيادة اللامرئية، وينزف رأسه بدلًا من أنفه، مع شجٍّ هائل يجعلك ترى جمجمته. إذن، لماذا يطلقون عليك إل ميلاغرو(40)؟ يسأل ماتوس. تومئ أثوثينا للسكوت بوضع إصبع على شفتَيها، ولكن الوقت فات على التظاهر بأنّ السؤال لم يطرح. ألا تعلم السبب، أيّها العجوز؟ صوت ميلاغرو حادّ وغاضب. أيها السيدات والسادة، لدينا هنا رجل يشكّك في منبع اسمي كما لو أنه ليس واضحًا للأصدقاء والغرباء على السواء، لأنّ العالم يعرف قصة تلك السيارة الرمادية التي تعطّلت مكابحها، كما يقول بعضهم، أو التي غفا سائقها، وفقًا لآخرين، لا فرق، لأنّ ما يهمّ هو أن السيارة خرجت عن الطريق بين مدينتي تولا(41) وفيكتوريا

عند علامة الكيلومتر ستة وثلاثين، وجنحت منحدرة بالأب والأم والأخت والأخ: أسرة ماركائين جميعها هوت إلى قاع الجبل. أنا معجزة لأنّه مع أنه في الانقلاب الأول كان يمكن سماع صوت الأم صارخةً أنقِذنا، يا إلهي، ستموت الامرأتان والرجل الآخر أيضًا بعد خبطهم وتحطيمهم وتقطيعهم بالقطع المعدنية، وعلى النقيض من ذلك، فأنا هنا، سالمٌ، معافًى، وعاقل، أروي عن تلك الحادثة القديمة. أنا معجزة لأنه في حين كان من الواجب وضع ثلاثة من آل ماركائين في توابيت دقيقة النقوش، إلا أنّني أمضيت شهرًا واحدًا فقط فاقدًا للوعي في سرير، وفي أحد الأيام صحوت دون أذىً كما كنا عند علامة الكيلومتر خمسة وثلاثين: معاً باستثناء هذه الندبة على جبهتي، وهذه الرعشة في ذراعيّ ويديّ التي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، معاً، على أنّ أصدقائي لم يعودوا يسألون عني ولن أتمكن أبدًا من الحصول على الدرجة الكاملة، لا في اللغة ولا في الأرقام ولا الخرائط ولا تذكُّر الأشياء القديمة، وقَولُ المعلّمين لعمّاتي، نأسف بشدّة، هذا الطفل لا يمكن إدراجه في مثل مدرستنا، يمكننا تزوديكنّ بعنوان مكان مناسب لتنشئته؛ معاً، لأنه على الرغم من وجود بعض ما لا أفهمهُ من شؤون البالغين، إلّا أنني ذكي بما يكفي لأُدرك بأنني معجزة حية، لأنّها معجزة أن تتقلّب في سيّارة رمادية دون تبعات، أن ترى آل ماركائين يموتون بين صرخات الألم والذعر، وأن تنام فقط مدة شهر أو تسعة وعشرين يومًا بالضبط، وهو ما يعادل الشهر بين حين وآخر. أيها السيدات والسادة، إنها معجزة أن تكون أحد المتنوّرين، لأنني سابقًا، كنت أعمى أظنّ أنّ مصيري ينحصرُ في تتبّع خطى والدي: أن أغدو محاميًا يدافع عن أصحاب العقار ضد مستأجريهم وينتهي به المطاف إلى طرد الفقراء الذين لا يدفعون. لم يجرِ الأمر هكذا، يا أصدقائي، لأنني اليوم أُحلّقُ عاليًا مُطبّقًا القانون العسكري، الذي يعلو فوق كلّ القوانين الأخرى، لإبلاغ الغرينجو بأنه يجبُ عليهم في غضون أربع وعشرين ساعة مغادرة تكساس دون النظر إلى الخلف، أو سنعمل على إخلائهم بالقوة، وهو أمر لم يكن والدي ليُحققه، ولا حتّى برشوة القضاة. يقف على مقعد السائق صارخًا أنا معجزة، ويحافظ على توازنه بالرّسن

لأنه يصعد على قمة سيارة رمادية تهبط المنحدر بسرعة شيطانية نحو ذاك اللا نهائي المُنير الذي لا يُدعى إليه سوى القلّة.

*

يفتح ماتوس كتاب صلاة الأطفال على الصفحة السابعة عشرة. هل عانقتَ اليومَ شخصًا ما؟ يَسألُ العنوان، مع آيات سهلة تشرح أهمية العناق في نقل المودّة. يظنُّ ماتوس أن والدة سيريّو ارتكبت خطأً عندما أوصت بهذه الصفحة، والتي تُعد جملةً بلا أيّ طعم بالنسبة إلى شخص يسير نحو المسلخ. إنه يرجو بشدّة أن تكون ارتكبت خطأ. يرمي الكتاب إلى جانب الطريق، تمامًا كما فعل مع الرسالة.

*

هل أنت نائم؟ يصل همس أثوثينا إلى أذن كومودورو البدين مصحوبًا بأنفاسها الدافئة الرطبة. يردّ لا، وأنه كان يفكّر بعينين مفتوحتين تمامًا. كلاهما ممدّدٌ على العشب، يراقب السماء السوداء. تنام بقية القوّة داخل دائرة نصف قطرها ثلاثة أمتار. فيم؟ تسأل. كومودورو كان يفكّر في متعة النوم في العراء، وأنها أجمل بمراحل من النوم في البيت والنظر إلى الطلاء المتقشّر من السقف: فكرة لا يريد مشاركتها، لذا يختلق شيئًا ما. أستمعي، يا أثوثينا: إذا بقينا نحن الاثنين على قيد الحياة بعد هذه الحملة والحرب، وإذا تمكّنت ذواتنا من دحر كلّ التصفيق والاحتفالات، فسيكون من الجيّد لنا أن نتزوّج. هل هذه فكرة أم عرض؟ تلتمعُ عينا أثوثينا. يبدأ ماتوس بالشخير. هي شخرة طويلة تمتزج بأصوات المساء الأخرى: صراصير الليل والرياح والأوراق وفروع الأشجار؛ لحسن الحظّ، لا دراجات نارية أو صافرات قطار أو أزواج يتعاركون. أنا أقبل، تقول أثوثينا، لحياتي كلّها. كومودورو يغطّي فمها. لا يمكنك قول هذه الأشياء أثناء شخير شخص ما. يذهب إلى جسد ماتوس المستغرق في النوم للغاية ويُسقط حجرًا في فمه المفتوح. يسعل ماتوس بضع مرات ويبدّل وضعيته. هل اختنَق؟ لم

يختنق قطّ ولم يستيقظ، السرّ هو استخدام جسم صغير، ليس أكبر من بذرة برتقالة؛ وإذا كانت أكبر يجب أن تكون ذات قوام مختلف، مثل البلغم. أنا موافقة، يا كومودورو، حتى يفرقنا الموت، الذي قد يحلّ عاجلًا. على أنّ كومودورو لم يسبق له أن رأى أثوثينا عارية، فمن الواضح له أن هناك بونًا بين جسدها وجسد لوز، لكن مع مرور الوقت لعلهما يصبحان متطابقين أو متشابهين. ربما كذب المعلم عليهم، وفي يوم ما سيصيرون بالغين، أثوثينا على الأقلّ، بقدر ما يتعلّق بالانحناءات والأثداء المفعمة، وهو له لحية وصوت عميق يفرض الاحترام في الهاتف. يا آنسة، صليني بالسيد ميندوزا. يا آنسة، سيكون من المستحسن الاستثمار في مناجم القصدير. يا آنسة، صوته عميق وشهواني، سأنتظرك في الخارج، سنذهب إلى الغابة ولن تدري أثوثينا أبدًا. يا سيد كومودورو، أنت رجل حقيقي. لا شك في ذلك، يردّ، يمكنكِ رؤية ذلك في ندوب الحرب وطريقتي في نطق كلمة آنسة. تدنو منه أثوثينا وتقبله على كتفه. أنصت، يا كومودورو، سيريّو يبكي. اذهب إليه وتفقد الأمر. إنه من شأن النساء تهدئة الباكين ليلًا، ولذا فأنتن تولدن بأصوات رقيقة وأيدٍ ناعمة. تمسّد أثوثينا شعر سيريّو وتبدأ في غناء شيءٍ عن تفاحة مفقودة. هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها كومودورو غنائها وهي وحدها، دون الأصوات النشاز في المعهد. يذكره صوتها بالكورس الأولمبي النسائي الذي يواصلون بثّه في الإذاعة. إن كنتُ سأموت، يقول كومودورو، وتبقين أنتِ في الحياة لتلبية أمنيتي الأخيرة، فأنا لا أريد الحجارة على قبري، بل الزجاج، حتى ولو كان كهيئة قعر قنينة. وبهذه الطريقة ستتمكّن الصحف من نقل عملية تحلّل بطل الأمة: لقد توقّف عن كونه كومودورو البدين ليصبح كومودورو النحيل؛ خسِر اليومَ خصلة شعر، واليوم يمكنك أن ترى العظام الأولى من صدره، اليوم سقطت سُلاميّته، الآن يمكننا أن نعلم أنّ هيكله العظمي أشبه بهياكل الفنانين المرموقين والمفكرين العالميين. ادفنيني عاريًا، مرتديًا مئزرًا من المطّاط المقاوم للوقت والمناخ ليس إلّا، فإن كان من الوقار إخفاء رجولتك وأنت على قيد الحياة، فمن المحتّم أن تخفيها وأنت تتعفّن. هل تعديني بذلك،

يا أثوثينا؟ لا تعرف بما عليها أن تجيب؛ وهي ترى أن وجود نافذة لعرض كومودورو بينما تنهشه الديدان فكرة سخيفة. يسعل ماتوس إلى أن يبصق الحجر خارجًا.

*

هنالك من بعيد، خلف تلة، يمكن التعرف بصعوبة على الصليب الذي يعلو برج ناقوس. يقف كومودورو البدين بصعوبة في العربة المتحركة، فاتحًا ذراعيه للحفاظ على توازنه ثم يخفض رأسه. يا كومودورو البدين، صلّ من أجلنا، تقول أثوثينا، يا كومودورو البدين، ارفق بنا. تبدأ يدا كومودورو في منح البركات. إن بجسدي متسعًا لأرواح أكثر من أجسادكم، ومع ذلك فلم أنجُ. هل سنموت، يا ماتوس؟ نعم، يا كومودورو، على الأرجح. إذن يجب علينا زيارة تلك الكنيسة التي أمامنا بصليبها الداعي، علينا أن نجد الكاهن ونتوسّل إليه لكي يتلو قدّاسًا جنائزيًا لنا مُقدَّمًا فهذا الجيش يسافر دون قسيس أو حتى صبي مذبح. ماتوس يضيق بهم ذرعًا لاستخدامهم اسمه، يجب أن يخاطبوه باسم الجنرال أو الجنرال ماتوس أو القائد ماتوس، بما يُظهر أنهم يدركون سلطته ولا يرونه مجرد سائق عربة طلبوها للتطواف بهم هنا وهناك أو لحملهم إلى السوق أو الكنيسة؛ ومع ذلك، فعندما يحمل البغل على التوقّف ويتحوّل إلى التحدّث إلى جنوده، تقع عينه على كومودورو رافعًا حجر الدومينو الأبيض. أثوثينا وأوبالدو وميلاغرو راكعون حوله. عندما تفنى أجسادنا، لتذهب أرواح كلّ واحد منا إلى الجنة، مُدّخرةً مئتي بيزو إن كانت ستمرُّ عبر المكسيك. فبها ونعمت، يقول المتنورون الثلاثة، ويحرك ميلاغرو شفتي سيربّو بإصبعه ليبدو كما لو أنه قالها هو أيضًا.

*

تخترق شمس آخرِ الأصيل نوافذ الزجاج المعشّق وتطرح ظلالًا ملونّة. أبواب الكنيسة مغلقة. وعلى الأرض، أمام المذبح، ارتمت أجساد المتنوّرين الخمسة، تغطّي كل واحد منهم ملاءة. راكعًا، تأمّل ماتوس المجموعة، متخيّلًا لو أن ساحرًا

قام بخلطهم وإعادة ترتيبهم، لأمكنه بسهولة التعرف على كومودورو وأثوثينا، فعلى أن قياساتهما متشابهة، إلا أنّها ذات بنية أقصر؛ كان من السهل عليه أيضًا الاستدلال على سيريّو، شيء صغير الحجم بأجمعه، جسد ورأس وطول لا يتجاوز ثلاثة أحذية. اختار ماتوس ألا يستفسر عن عمره. لكن من المستحيل تبيُّن أوبالدو وميلاغرو. أين حبّة البازلاء الصغيرة؟ وأين المعجزة الضئيلة؟ لذا كان عليه أن يُخمّن. هنا، يقول ماتوس، وهو يضع إصبعه حيث قدّر أنه موضع سرتّه. وعندما سحبوا الملاءة عنه، آسف جدًا، يا صديقي، تخمينك خاطئ، تحقق من الغطاء الآخر حتى تعرف أن لا أحد يخدعك، هنا يمكنك العثور على ميلاغرو وهو يتصنّع الموت، مصالبًا ذراعيه لمنعهما من الاهتزاز، أنت مدين لي بعشرة بيزو، ومُرحّبٌ بك للمحاولة مرة أخرى. يهزّ ماتوس رأسه أن لا، فهو يدرك أن ميلاغرو لن يكون أبدًا هناك حيثما يلكز السرّة.

يا إلهي، يقول الكاهن من المنبر، لقد كُنتَ شحيحًا بنعمك على هؤلاء الأطفال، والآن نوكل الأمر إليك لتكون كريمًا مع أرواحهم. تقبّلهم سواءً كانوا مُدنّسين أم طاهرين، منتصرين أو مهزومين، فهم أناش كانوا دائماً مستعدين لتقديم أقصى التضحيات: حياتهم لأرض الآباء والأجداد ما يعني تقديم الحياة من أجل لا شيء لأن شجاعتهم كانت عديمة الفائدة ضد المدفعية الدقيقة للأعداء أنصاف الملحدين وأنصاف البروتستانت، وهو ما يعني في الحقيقة شيئًا واحدًا؛ إن سيف الإيمان المتأجّج قليل الجدوى ضد رصاصة في مؤخرة الرأس وأنت لا توقف الزمان لهؤلاء الأولاد المشؤومين ولم تفتح سدود ريو غراندي، ناهيك عن قصف أسوار ألامو بضربات البوق ولا بأي من الحيل التي استخدمتها لمساعدة المبشّرين بك في الأزمنة الغابرة. استقبّل، يا إلهي، هذه الأرواح الخمسة عند الباب الأمامي لأنهم استحقّوا ذلك. هللويا، يصرخ كومودورو، وينقلب على وجهه لأن الأرض غير مستوية ويؤذي ظهره. يدنو ماتوس منه ويصفعه على قفاه، ويأمره بأن يظل ساكنًا ويصمت. لا بأس يقول الكاهن، كما أن القدّاس قد انتهى. يمشي نحوه ويرشهم بالماء المقدس. فقط دعوني أنصحكم، أيها الأصدقاء،

من هذه اللحظة حتى موتكم، عليكم أن تراقبوا فداحة خطاياكم وإلا فستفقد المراسم أثرها.

ما لم يره أحد أنه بينما كان الكاهن يلقي خطبته، مد كومودورو يده تحت الأغطية ليمسك بيد أثوثينا. أتكونين زوجتي؟ همس. بلى، أجابت. في المرض وفي العافية؟ في الأوقات الجيدة وفي الأوقات السيئة؟ أنا امرأة، قالت، أنا أعطي الضمانات عن الأوقات الجيدة فقط، ولكن بالنسبة لكل ما تبقّى، فليكن، إجابتي هي نعم. سحب كومودورو يده ببطء وأنصت لتحذير الكاهن من خطايا الجسد.

عندما يخرجون من الكنيسة، تجبرهم شدة الشمس أن يشزروا بأعينهم. ينظر بعض أهل المدينة إليهم بفضول؛ سيدة عجوز تشير إلى سيريّو وتُصلّب نفسها.

نحن بحكم الشهداء الآن، يقول كومودورو البدين، لنحمل الرفش والبندقية، ولنصعد عربتنا متّجهين إلى تكساس، حيث يقطن الكفّار، فليس أمام الكفار سوى الاستسلام طوعًا أو كرهًا. لم يبقَ ما نخافه، لم يعد هناك أجساد للاعتناء بها، فقط أرواح نصلّي من أجلها. فليكن، تقول أثوثينا وترفع يديها. دعونا نصلي أيضًا من أجل سيريّو.

*

يعبر خطّ النهاية الذي حدّده لنفسه بصليب خشبي أبيض. ليس هناك احتفال، يشعرُ بالهزيمة؛ إنهاكه وضعفه ليسا من أمارات الفائزين. ربّما يكون هنالك عدد أكبر من العدّائين لم يصلوا بعد إلى استاد الكولومب، ولا شك أن بعضهم خرج من منتصف الطريق أو في الكيلومتر ثلاثين، لكنّه لا يشعر بالعزاء لأنّه لم يكن آخر الواصلين ولا بسبب القلّة من السيدات والسادة الذين يصفقون دون حماسة: إنهم ينظرون بإعجاب لأيّ شخص يقطع المسافة لأنهم غير قادرين على الجري حتى مئة متر في الكعوب العالية أو واقيات الكاحل. ماتوس غير قادر على

الإعجاب بنفسه، ليس دون ميدالية، رجل منحنٍ، راحتاه تستريحان على فخذيه، على وشك التقيؤ. أنا بحاجة إلى الاستفراغ لوضع نهاية لهذا العرض. السيدات في التنانير المنتفخة اللواتي يحملن الشمسيّات الملونة سوف يُدرن وجوههن. كنت أعلم أن للمكسيكيين رائحة سيئة، ولكن هذا كثير. عدم الوصول إلى خطّ النهاية أفضل من الختام بهذه الطريقة. يشتدّ انتفاض ساقيه فيضطرّ ماتوس إلى الجلوس على مسارات السكّة الحديدية. كم كان وقتي؟ القضاة لا يجيبون، ينظرون إليه بعتاب، متمتمين بلغة متكسّرة غير مفهومة. كم كان وقتي؟ يعيد عليهم، رافعًا صوته. ينزل سانتياغو عن ظهر حصانه ويظهر له الكرونومتر الذي أوقفه عند لحظة وصوله. يَنشدُ ماتوس زاوية يسمح بها انعكاس الشمس بفحص العقارب 02:47:50 هل هذا جيد؟ يسأل رامون. وماتوس يلهث، لا يرغب في أن يُستجوب، يريد بطانية لأنه مرهق جدًا ويشعر بالبرد، يريد جعة، برميل كامل منها، أو على الأقل شوكولاتة ساخنة مع قطعة خبز. تسألني هل هذا جيد؟ من الأحرى أن تتحدث معي عن الطقس، واسم حصانك، اذهب، أحضِر لنا قدحًا من الشوكولا لنغمس فيه خبزنا، فشرب الشيكولاتة حول المائدة هو الأنسب لمناقشة سفاسف الأمور، كم دفعت لقاء هذا القميص؟ هل من المؤكد أنها سوف تمطر غدًا؟ سأجيبك عن أي من هذه الأسئلة، ولكن لا تسألني عن توقيتي، لأنني تجاوزت الوقت بما يوازي خمسة عشر دقيقة. إنه يشرب الشوكولاتة وكلارنس ديمار الشمبانيا. يسمعُ تصفيقًا متقطعًا ويفترض أنه يشاكل التصفيق عند وصول عدائيين آخرين، بقايا أمل أميركا اللاتينية. الماء، يقول، ورامون يسلمه جرّة أخرى. الرشفات الأولى تؤلمه إلى أن يصبح لسانه وسقف حلقه لزجًا. يرى كلارنس ديمار على مبعدة، مبتسمًا، فخورًا، وميداليته معلقةٌ على صدره، ومع ذلك فسعادته ليست غامرة، لأن كل ما فعله هو تحقيق ما كان يتوقعه بالفعل، ما يستحقه لكونه غرينجو، أبيض، وبروتستانتي، وكيف لمكسيكي بائس أن يفكر ولو للحظة أو لساعتين وسبعة وأربعين دقيقة وخمسين ثانية أنه قد يتمكّن من انتزاع هذه الميدالية مني. لا، يا صديقي، أفضلُ ما يمكنك فعله هو أن تظل

مستلقيًا على تلك المسارات إلى أن يأتي قطار بييدراس نيغراس السريع.

لا يظهر أثر للقطار، ويشاهدُ ماتوس علم الولايات المتحدة يبدأ في الارتفاع.

حان الوقت للعودة إلى البيت، يقول سانتياغو، ويومئ ماتوس برأسه موافقًا، وهو يعلم أن الأربعين كيلومترًا ونيّف إلى مونتيرّي على عجز الحصان ستكون أسوأ من ركوب سفينة بخارية عبر الأطلسي، من لوهافر أو مرسيليا إلى تامبيكو أو فيراكروز. قبل أشهر كان يتحقق من سعر تذكرة في وكالة سفريات بحرية، ولم يكن بمقدوره حتى شراء تذكرة في أدنى درجة. إضافة إلى ذلك، قال لسانتياغو، فلا خيار سوى السفر في الدرجة الأولى، حتى أتمكّن من الركض حول سطح السفينة. أما وإذا حُشرت في كابينة عمومية فسأصل إلى باريس مصابًا بالسل إضافة إلى تصلّب الساقين. أدرك رامون أنه واهن، عاجزًا عن ركوب حصان بنفسه. يُقدّم يده له فيُحرج ماتوس لمعاملته مثل سيدة. وبدلًا من قبول المجاملة، يقف محدّقًا بالمسدس في جراب السرج. لم لا؟ يسأل نفسه، فجميع المسدسات صُنعت لتغيير الحظ. يأخذه ويُصوّب إلى نقطة ما أبعد من الصليب الخشبي. تُطيّر الطلقة بعض الطيور الفزعة. كلارنس ديمار يتراجع خطوة إلى الوراء، ساقاه تخذلانه كما لم تفعلا أثناء السباق ويسقط على الأرض؛ ميدالته حجرٌ حول عنقه. يتقدّم رجل لمساعدته، ظانًّا بأنه أغمي عليه بسبب الشمس، ولكنّه عندما يقلّبه، يجد جرح الرصاصة في صدره ويصرخ طلبًا لطبيب. ماتوس ليس فخورًا بفعلته، ولكنّه الغيظ يُملي الأوامر. يواصل إطلاق النار على المنافسين الآخرين، من كان منهم بوجهٍ يحمل علامة النصر، وأيّ فائز محتمل في المرتبة الثانية أو الثالثة، وأيّ أملٍ لأميركا اللاتينية، مطلقًا النار على التشيلي البائس أو ياباني ذي وجه بريء، على الفنلنديين الفخورين، يُطلِق حتى بعد أن تقرع مطرقة المسدس على الفوارغ، وعلى أن الصوت الوحيد الصادر عن المسدس هو طقطقة عالية فقط، فإن العدّائين يُمسكون بأحشائهم ويتساقطون. تسعة رياضيين واثنان من المدربين صرعى على الأرض قبل أن يتمكن رجلان

من إخضاع ماتوس. يُلقي المسدس ويقول لنفسه، في النهاية، لعلّه كان اختبارًا للقدرة على الاحتمال. أحد الذين أخضعوه سبّاخ من أصل جرماني يحمل ثلاث ميداليات على صدره؛ يضربه بقبضته على الأضلاع. لو كانوا يهودًا، فلا بأس، لكن هؤلاء الرجال لم يُسيئوا إلى أحد.

لنمضِ، يا ماتوس، يُصرُّ سانتياغو، وبمساعدة رامون يُجلسانه على الحصان.

*

يقول أوبالدو إنه مفتون بحكاية الكاهن عن الجسد الذي يموت ويطلق نفخة غير مرئية من الدخان تطير إلى مكان ما بين السحب الزرقاء والوجوه السعيدة، حيث ستعيش إلى الأبد. ألم تر كم كان جادًا؟ يجب إرسال هذا الكاهن إلى المعهد.

*

البغل يمشي بأقلّ سرعة وماتوس لا يفعل شيئاً لتحفيزه. من الأفضل السير بخطى متباطئةٍ إذا كنت تودّ تجنّب المفاجآت على طول الطريق. ظننت بأنكم ستُغنون طوال الطريق، قال، فالمحصلة، أن الحرب ما هي إلا حفلة طويلة يقاطعها إطلاق الرصاص من حين لآخر، وفي بعض الأحيان لا يمنعها من ذلك، إلا إذا تركت زجاجة الخمر. ولهذا، أثناء الحرب ضد الولايات المتحدة اصطفّ الأيرلنديون إلى جانبنا. يؤكّد المؤرّخون لنا أن ذلك كان بسبب الدين. وأنا أعلم أنه كان أيضاً بسبب الشراب والأغاني. لم نتعلّم إلا الأغاني عن الخنازير والبط والنمل والحيوانات الأخرى، يقول كومودورو، ولا أظنّها تصلح للقتال الباسل أو لاستمالة الفارين من الجانب الآخر. يضرب ماتوس البغل بالسوط. تمرّ بضع دقائق قبل أن يتحدّث مجدّدًا. حان الوقت للحديث إليكم عن بيان الجندية. تَشخصُ أربعة رؤوس باهتمام. نعم، يقول أوبالدو، تبدو لي وكأنّها فكرة أفضل من الأغاني. عليكم أن تُقسموا يمينًا مغلّظة على البيان، الذي يتطلّب أمرين:

أولًا وقبل كل شيء، الإرادة لحفظ العهد، وهو ما لا أشك فيه لأنني أراكم جميعًا قومًا أمناء وموثوقين؛ وفي المرتبة الثانية ينبغي أن تكون لديكم ذاكرة جيدة، لأنه عندما تبدأ مدفعية العدو بالدوي، يميل الناس إلى نسيان الوعود والولاءات. ماتوس راضٍ، فهو يعرف أن هؤلاء المتنوّرين يولونه اهتمامًا يفوق ما حظي به قط مع طلابه في 6B. النقطة الأولى في البيان تقول: أن لا تُغادر رفيقك، سليمًا أو جريحًا في قبضة الأعداء. أقسم أن لا أفعل، يقول ميلاغرو ويده على قلبه. كومودورو منزعجٌ من إصرار صديقه على أن يكون هو السَّبَّاق دومًا؛ شابكًا ذراعيه يتمتم هو أيضا بقَسَمه. لدي سؤال، يقول أوبالدو، لنفترض أن رفيقي مصاب بجرح مميت، فهل يضطر أحد إلى تبديد الوقت والجهد لإنقاذه من العدو؟ طالما أنه ما يزال على قيد الحياة، يجيب ماتوس، يجب عليك حمله بعيدًا. بمجرد أن يسمعوا كلمة حمل، يدير ثلاثة من المتنورين رؤوسهم للنظر إلى كومودورو البدين. ولو لم يتبقَّ له سوى دقيقة واحدة للعيش؟ يُصرُّ أوبالدو. نعم، هذا صحيح، أجاب ماتوس، إنه ليس مجرد عمل صالح تجاه الميت، بل هو عمل أمني: قد تكون نصف دقيقة من حياةٍ في يد جلّاد من العدو كافيةً لكشف سرّ كبير. ثوافق أثوثينا على أداء اليمين، وتأخذ يد سيريّو وتضعها على صدره. لا يوافق أوبالدو إلا بعد شتم كومودورو، معلّقًا على مدى الظلم في تعريض العملية كلّها للخطر فقط لإنقاذ جريح بدين سيصبح قريبًا جثّة بدينة بالمثل. إن كنت لا تستطيعُ احتمالَ نصف دقيقةٍ من التعذيب فعليك حمل حبّة مميتة معك؛ يمكنك إخفاؤها في فمك ومضغها إذا راودتك نفسك بالكشف عن سرّ.

النقطة الثانية من البيان، يقول ماتوس، ولكن يقاطعه ميلاغرو قبل أن يتمكّن من المواصلة. هل تستطيع إيقاف العربة؟ علي أن أذهب الى الحمام. عندما يتوقّف البغل، يشدُّ كومودورو شعره الرقيق. كارالامبيو، يقول، أبلَغَني أنّه ذاهب إلى الحمام وعلينا انتظاره، أيًا يكن الأمر، يا كومودورو، لا ترحلوا من دوني، إنها حالة طارئة، ولن أتأخّر. عمَّ تتحدّث؟ يسأل ماتوس. إنه زميلٌ في الصفّ، تقول أثوثينا، انضمّ إلينا وكان يعاني من مغص. أظنّ بأننا خلّفناه وراءنا. يُسرع

ميلاغرو ويحتمي وراء بعض الصخور. وكيف هو هذا الكارالامبيو؟ شخص جسور ومعطاء، تجيب أثوثينا، حاصل على أعلى الدرجات في حلّ الألغاز، إنه فخر التطوّر النفسي الحركي، يقرأ عشرين كلمةً في الدقيقة، ويتقن ترتيب أشهر العام، ويمكنه تكوين أربع درجات من اللون الأزرق، هو من بين الثلاثة الأوائل في الاندماج مع المجتمع، سبق له أن قرأ قصيدة كاملة عن أسقف أكل البرتقال؛ كلّنا صفّقنا له. لا تتركوني كما فعلتم مع كارالامبيو، يمكنهم سماع صوت ميلاغرو قادمًا من وراء الصخور. يتحدّث ماتوس دون أي أثر للبهجة التي بدت في حديثه عندما كانت المواضيع هي الغناء، والأيرلنديين، والكحول. لم تكن قد أقسمت على البيان سابقًا، يا كومودورو، لكنك تخليت بالفعل عن أحد أبنائنا، وطالما أنه ليس بيننا يمكننا القول إنه كان أفضل المحاربين، العنصر الفارق بين الانتصار والهزيمة؛ فكّر به عندما تبدأ سيوف العدو في اختراق أحشائك، تخيل أن ذلك ما كان ليحدث لو لم تتخلَّ عن ذلك الفتى في الحمام. يحاول كومودورو أن ينطق بكلمة دفاعًا عن نفسه، كلمة تجعلهم مشاركين في الذنب؛ وبدلًا من ذلك، ينتهي به الأمر إلى حديث عن سم الفئران الذي كان كارالامبيو يحمله في حقيبته المدرسية، والذي يمكن أن يسمم به كامل منسوب المياه الجوفية شمال ريو غراندي.

يتسلق ميلاغرو، وهو يسحب بنطاله، ويقفز إلى العربة.

يستأنفون رحلتهم في صمت. مضت ساعة تقريبًا لمّا بدأ ماتوس في الحديث مجدّدًا. النقطة الثانية من البيان تنصّ على ما يلي: فيما خصّ العدو، سوف أعامل السجناء باحترام، وسأقدّم المعونة الطبّية للجرحى، وسأوفّر لهم دفنًا مسيحيًا أو كفنًا لائقًا لنقلهم إلى بلادهم. حبّذا لو تركنا النقطة الثانية إلى الغد، تقول أثوثينا، هناك أناس هنا ينزعجون من أكثر من فكرة واحدة في اليوم. ميلاغرو راكع، منحنٍ، يضرب رأسه بالقاع الخشبي للعربة؛ يغطّي أذنيه بيديه بينما يلعن الرجل المسن الذي يحاول أن يجعل رأسه ينفجر.

*

كان لدى السيد بيتو مئة فرخ من الدجاج، يشرع ماتوس في القراءة، ويتنهّد متسائلًا إن كان جنرالٌ ما هبط إلى مثل هذا المستوى قطّ للحفاظ على معنويات جنوده. يتابع القراءة لأن سيريّو ينظر إليه بعينين راقصتين، مسحورًا، في هذه اللحظة يبدو له من المؤسف حقًا أن طفلًا يمتلك مثل تلك النظرة وربطة العنق الزرقاء الصغيرة عليه أن يموت. فرخ واحد لم يكن مثل الآخرين، فرخ واحد أراد أن يصير ملكًا...

*

كانوا يشربون في حانة لونتانانثا(42). تَخيّروا هذه الحانة لأنّ مكاتب الصحيفة تقع على بعد شارعين، وبعد كل زجاجتين من الجعة، يتناوب رامون وسانتياغو على مقرّها ليسألوا عما إذا كانت البرقية من باريس قد وصلت. لم يكن ماتوس مهتمًا كثيرًا بالنتائج؛ فهو يعلم أن وقته كان بعيدًا جدًا عن الميداليات، لعلّه كان مهتمًا أكثر بمعرفة ما إذا كان مانويل بلازا، أمل أميركا اللاتينية، بعلوّ كعب كلارنس ديمار.

في إحدى جولاته إلى هناك، يعود رامون بورقة. يلاحظ ماتوس الورقة الصفراء في اليد اليسرى لصديقه فتتلاشى نشوة سكره. من فاز؟ يهزُّ رامون كتفيه. لا أعلم، المعلومات مُرجأة. حصلتُ توًا فقط على بعض الأخبار عن بداية السباق. وتقول إن بعض العدائين أُغمى عليهم في اليوم السابق في سباق اختراق الضاحية، فقرّروا تأجيل الماراثون حتّى الساعة الخامسة عصرًا. وحتى عندما حان الوقت، لم يبدأ السباق لأن الشمس كانت لا تزال شديدة والبنفسجات الصغيرات لم ترغبن في التعرق. هل قاموا بإلغائه؟ سانتياغو يسأل. أجّلوه ثلاثًا وعشرين دقيقة إضافية، حتى تنطفئ الحرارة أو تأتي بعض الغيوم أو ما لا نعلم. هذه حتمًا إحدى حيل الغرينجو، يقول ماتوس، هكذا يَخمون كلارنس ديمار من التعرّق أكثر من اللازم. يضع النادل ثلاث زجاجات ملأى على الطاولة دون إزالة

الفوارغ. هذا يعني أننا لم نبدأ السباق مع الإطلاقة نفسها. يميل ماتوس على الكرسي، مُمررًا أصابعه خلال شعره المتصلّب من العرق. عندما وصلت إلى خطّ النهاية، كانوا قد بدؤوا قبل أقلّ من نصف ساعة فقط. ما يهمّ هو أنّك لو كنت على الموعد المحدّد، يزعم رامون، وركضتَ في الشمس الساطعة، وقاموا هم بذلك في الظلّ، فأنت تستحق مكافأة بما يوازي ثلاثين دقيقة. يدخل مُصوّرٌ إلى لونتانانثا ويتنقّل من طاولة إلى أخرى لعرض خدماته. هنا، يناديه سانتياغو، تعال إلى هنا، صديقي انتهى توًّا من ماراثون، مفخرة لا ينجزها إلا القليل من الرجال، وعليك تخليد هذه اللحظة. يصوّب المصوّر عدسته نحو ماتوس، الذي يجلس غير مبال، تائهًا في أفكاره، بينما يستعدّ الرجل. لا يبدي ماتوس أي اهتمام عندما يُطلب منه أن يواجه الكاميرا ويبتسم، أو يسوّي جِلسته. يتجاهل رامون عندما يعلق الكرونومتر حول عنقه، كما لو كان ميدالية. يُضيءُ المكان بوميض المغنيسيوم ويصفق بعض الزبائن بينما يتبدّد الدخان الأبيض. أبلغني الرجل في الصحيفة أن الأخبار سوف تأتي في الفجر، علينا أن ننتظر شروق الشمس في باريس لكي يبعث أحدهم بها.

وبعد دقائق، وبعد بقيامه بعمله مع الموادّ الكيميائية، يُسلّم المصوّر الصورة ويحصّل بيزواته الخمسة.

يمكنك رؤية ماتوس بالأبيض والأسود، مُرَبّعًا ذراعيه، محدّقًا في الفضاء. كلّ من ينظر إليه من كثب سيكتشف، بمساعدة عدسة مكبرة، أن عقارب الكرونومتر متوقّفة عند الوقت 2:47:50. ويظهر على جبين ماتوس وحروقه الجانبية علامات تدل على وجود مادة بيضاء، من الواضح أنها ملح عرقه، ما يدلّ على أنه حتّى لم يمسح وجهه بعد السباق. هيئتُهُ مزيج من الحزن والثمالة. لا يظهر أيّ شخص آخر في الصورة، ويتكثّفُ تأثير العزلة من خلال عديد الزجاجات المتناثرة على الطاولة ومنفضة السجائر الفائضة. إنها، بلا شك، صورة رجل مهزوم.

*

كيف تربح حربًا، يا ماتوس؟ تسأل أثوثينا بشرود، بينما تبلّل أصابعها لمسح بقعة عن حذاء سيريّو، هل عليك قتل جميع الغرينجو؟ يجذب ماتوس البغل ليتوقّف؛ لم يكن يتوقّع هذا السؤال الذي لا ينبغي لجندي طرحه. يستدير فيلاحظ أن أثوثينا وبقية أفراد القوة يحدّقون به. نزوعه هو أن يجيب بأنّ عليهم الالتزام بتنفيذ الأوامر أما الباقي، النصر أو الهزيمة، فهو أمر عرضي. لكنّه يرى نفسه أول من يموت في المعركة ويخلُص إلى أنه يجب على الجنرال الجيد أن يُعدّ مرؤوسيه لمواصلة القتال. أظنُّ أنّه لا يعرف، يهمس ميلاغرو. يتخيّل ماتوس نفسه مرة أخرى في الفصل ويفتّش عن الكلمات التي سيستخدمها معلمّ للإجابة عن سؤال أثوثينا. ليس عليكم قتل الجميع، يقول أخيرًا، ينبغي عليكم التفريق بين الحرب والإبادة. لقد فقدنا نحن المكسيكيون حروبًا لا حصر لها، وها نحن هنا، مستعدون لخسارة المزيد. الحرب مثل لعبة الشطرنج، ليس من الضروري القضاء على كل القطع، الملك فحسب. ما زال تلاميذه ينظرون إليه مُشككين، ويفهم ماتوس أن الشطرنج يقع خارج العالم المستنير. انظروا، يُصرُّ ميلاغرو، أخبرتكم أنّه لا يعرف. غزوٌ بلد ما يشبه غزو امرأة، ليس عليك السيطرة على جسدها كلّه، فقط تلك المنطقة الرائعة بين ساقيها. هذا يكفي لكسب عقلها وقلبها وعطاياها. أوبالدو يقف وهو مشمئز. لا تتحفنا بتلك الأشياء حول كيف يمكنك التغلّب على الغرينجو فقط بالهمس بالكلام المعسول في آذانهم، انسَ المقارنات الغبية وأخبرنا كيف هي حقيقة الأمور. وجهُ كومودورو ينقلب إلى اللون الأحمر وهو يتطلّع إلى أوبالدو؛ لن يجرؤ أبدًا على التحدّث بهذه الطريقة إلى رئيس. أنا لا أتحدّث بالحماقات، يقول، كنت على وشك القول بأنّ المكان بين ساقي تكساس يُسمّى ألامو وكل من يملك حصن ألامو يملك تكساس. يشبّهه ماتوس بمنزل قديم من الطوب اللبن، وقد تحوّل إلى أنقاض، سكنه الرهبان في وقت من الأوقات، ولا يزال له هالة دينية. لن نُبقي على أحدٍ حيًا في ألامو، تمامًا كما فعل أجدادنا قبل أكثر من مئة عام، عندما أجهزوا عليهم جميعًا، حتى أكثرهم

جبنًا، بائسًا اختبأ مرتجفًا تحت سرير، وعندما عثروا عليه ركعَ على ركبتيه متوسلًا الصفح. ولكن لا شفقة لأولئك الذين يسرقون أرض الأجداد، واخترق الحديد جسده، صرخ الغرينجو الضئيل وبكى ثم هوى، وهو يتلوّى. لذلك حينما نستولى على ألامو، يجب علينا التفتيش بدقة تحت الأسرّة، فهناك يختبئ الجبناء. كومودورو بالكاد يولي أي انتباه، فهو لا يفهم تشبيهات ماتوس ويثبت عينيه المبهوتتين على الفضاء بين ساقي أثوثينا، الذي لا يزال له هالة دينية.

*

تعالي، يا أثوثينا، تعالي. كومودورو يواصل ترديد الهمس بالجملة وهو يداعب شعرها، الذي بالكاد يعكس ضوء القمر؛ يعلمُ أنه إذا كرّرها لها بما يكفي فإنّها ستبدأ في السرنمة(43) وذراعاها مُمدّدتان أمامها، ويتمكّن من تلقينها الأوامر وتكون تحت سيطرته تمامًا. يستيقظ أوبالدو ويستقبل بعض الشجيرات، فيتساءل كومودورو إن كانت كلماته وصلت إلى الشخص الخطأ. بعد أن فقد أوبالدو في الظلام، يسمع كومودورو صوت سيل ضعيف يقع على الأرض. يريد كومودورو إقامة معسكر والنوم بجوار الماء ولكن هناك أصوات أكثر تدفّقًا من النهر، وهي صيحات الغافلين أثناء غرقهم. الحياة في هذا الجانب، والحرب على الجانب الآخر، والمتنوّرون يقطعون قصب الخيزران ليتمكّنوا من التنفّس تحت الماء، سكاكينهم مشهّرة تحسّبًا للتماسيح أو أسماك البيرانا المفترسة. كومودورو في المقدّمة، دائمًا في المقدّمة. وذلك لأنّ الخطّة رُسمت قبل وقت طويل من حلمهم بأن يُصبحوا جنودًا. أطلعتهم معلّمتهم في المعهد على كتابٍ مُصوَّر: كانت هنالك أسماك طويلة وأسماك مسطّحة، ذات ألوان برّاقة أو حزينة، وكان عليهم أن يرفعوا أيديهم إذا أحبّوا السمكة أو يقولوا اسم اللون إذا عرفوه، وكلّ الأسماك بدت أفضل حالًا منها في السوق تحت الثلج. تقرأ المعلمة المعلومات أسفل كل لوحة، مع إعطاء حقائق سيتمّ نسيانها حول طبيعة المياه التي يعيش فيها كل نوع، واسمه، وبعض البيانات غير المهمّة عن أعدائه الطبيعيين أو الفترة

التي يتزاوج فيها. فقط عندما أتت إلى صورة سمكة ذات وجه لئيم بأسنان مفترسة، توقّفت المعلّمة عن القراءة وتحدثت من الذاكرة. إن سمكة البيرانا، قالت، هي أكثر أنواع الأسماك إثارة للخوف، فهي تُبيد كل شيء في طريقها، نعلم أنّها التهمت الكثير من المستكشفين والهنود الذين حاولوا عبور النهر. وعلى أنّ المعلمة حاولت العبور إلى صفحات أخرى في الكتاب، إلا أنّ أذهان الجميع ظلّت متوقّفة عند سمكة البيرانا. ويمكنك سماع شخيرٍ وأصوات قضمٍ وصرخات توجّعٍ في الغرفة. أخبِروا أمّي بأني كنت أحبّها على الدوام، قبل أن يغرق في الماء. قالت أثوثينا إنّها في أمان لأنها ليست هنديًا ولا مستكشفًا، فقط عندما فتح أوبالدو ذراعيه لمحاكاة الفكوك الهائلة التي تمضغ سيريّو الذي لا حول له، أوضحت المعلّمة أن سمكة البيرانا هي مخلوق صغير يُهاجِم بالمئات والألوف، وعَضّته بالكاد يُحَسُّ بها كلدغة، وعندما تلتفتُ لتسألَ من قَرَصَني، ستكون قد صرت لا شيء سوى عظام. واصَلوا في تقليد البيرانا أثناء فترة الاستراحة وقرصوا بعضهم بعضًا حتى وصل الأمر بسيريّو إلى سكب دموع فيّاضة. عندها ناقشوا ما أفضل استراتيجية لعبور النهر، وفازت فكرة أوبالدو بين العديد منها. سيكون عليهم أن يُخوزقوا كومودورو ويجعلوه يقود الطريق؛ فأيًا تكن سرعة أسماك البيرانا المفترسة، فسيتأخّر عملها بوجود الكثير من اللحم والدهون، إلى حدٍّ سيصل معه بقية الناس إلى الجانب الآخر سالمين آمنين. أنا مستعدّ للتضحية، قال كومودورو، لكن ليس الخوزقة. إذا كنت ستصير قربانًا، فلا يحقّ لك اختيار الطريقة، قال ميلاغرو. ومع ذلك، كانت أثوثينا على وشك الإذعان. والجزء المهمّ هو أن يكون كومودورو متيبّسًا وقابلًا للإدارة، فإذا كانت أسماك البيرانا ستأتي من جهة اليسار، يمكننا نقله إلى هذا الجانب، وإذا جاءت من اليمين، فإننا نُدير القطب إلى ذاك الجانب، وإذا هاجمونا وجهًا لوجه، فإن كومودورو هو مدفعيتنا المتقدّمة؛ ما أعنيه هو أنه لا فرق ما إذا كنّا نخوزقه أو نصلبه، فله الحق في اختيار أيّهما. وقف كومودورو، وبينما هو يمضي، نجح في القول: يسعدني معرفة أنّني لن أعبر نهرًا معكم أبدًا يا شباب. لكنهم الآن

في طريقهم، دونما مهرب، إلى ريو غراندي، وتعتمد سلامته على فرط نسيان أصدقائه.

تعالي، يا أثوثينا، اقتربي. تفتحُ عينيها. ماذا تريد؟ هل أنت واعية أو تحت التنويم؟ ماذا تريد؟ نحن رجل وزوجته، قال كومودورو، عليكِ أن تتبعيني وتفعلي ما أقول. يتعانقان ويمشيان متراقصين على لحن أخرق؛ هي تُهَفهف بأغنية بينما يلتزم هو الصمت. وبسرعةٍ كانا قد فصلا نفسيهما بعيدًا عن المجموعة. يخلع كومودورو قميصه ويلقيه جانبًا. يميل إلى أثخن شجرة يجدها ويرفع يديه. يتوزّع ضوء القمر على النعومة الشاحبة لصدره وبطنه. متّعيني، يقول لها بهدوء، بأكثر ما يقدر عليه من الأصوات رجوليةً. وعندما لا تتحرك أثوثينا، ووجهها غُفل وعيناها فارغتان، يرفع كومودورو صوته. متّعيني. متّعيني. تستدير باحثةً عن العشب الدافئ حيث كانت تستريح قبل قليل. متّعيني يا امرأة، هذا أمر. الأصوات توقظ ماتوس، الذي تُحدّثه نفسه بأن كومودورو لا يزال أمامه بعض الأشياء ليتعلمها.

*

كان الصبح قد بزغ عندما خرج الثلاثة سُكارى من حانة لونتانانثا. توجّهوا إلى مكاتب الصحيفة، في شارع غيرّيرو، وشرعوا في النداء على المحرر، وشتمه، أيها الجلف الكسول اللعين، صارخين بأنهم يريدون نتائج الماراثون، لهذا يوجد كابل عبر المحيط الأطلسي، حتى لا ننتظر وصول الأخبار مع السفن. وأخيرًا، يخرج صحافي يبلغ من العمر حوالى خمسين عامًا يرتدي قميصًا قصير الأكمام، ويحمل سيجارًا نصف منتهٍ في يده اليمنى. هل وَصَلت النتائج؟ رامون يسأل. يرمي الصحافي سيجارته في الشارع. إذا كان كلّ الناس بصفاقتكم، فسنضطر إلى إغلاق الصحف، ما هو الغرض من الطباعة وتعلّم الكتابة إذا كان كافيًا الخروج إلى الشرفة لإعلام المدينة بمن توفّي، ومن فاز بالانتخابات، وتفاصيل جريمة القتل التي حصلت البارحة؟ أنتم لا تودّون رؤيتي مثل مُنادي المدينة. هل

وَصَلَتْ؟ يرفع سانتياغو صوته. يذهب الصحافي إلى الداخل ويطلّ من الشرفة بعد ثوان قليلة. متفحّصًا ورقة يحملها في يديه. ليس من ضوءٍ هنا، يقول، ويعود إلى الداخل، لذا فهو عندما يبدأ في الكلام، يكون غير مرئيّ بالنسبة إلى الرجال المخمورين الذين يشخصون بأعناقهم متطلّعين إلى الأعلى. كان ألبين ستينروس أول الواصلين بزمن 22:12:4، المركز الثاني كان من نصيب إيطالي يُدعى روميو بيرتيني، والذي كان وقته 2:47:19. ثم ينتابهم أن صوت الرجل غير المرئي لا يأتي من الباب المفتوح فوقهم بل من السماء، مع توقف قصير في باريس. يعانقُ الأصدقاء الثلاثة بعضهم بعضًا، مُعبّئين بالهياج والأمل. أما الفائز بالمركز الثالث فكان غرينجو يحمل اسم كلارنس ديمار، 2:48:14

يُتم الصحفي قراءته للخبر ويعود إلى الشرفة. من هناك يرى الرجال الثلاثة يصرخون متقافزين صعودًا ونزولًا متشابكي الأيدي في الهواء. المركز الثالث، يقول سانتياغو؛ ميدالية برونزية، يقول رامون، وأحدهم يُشهر مسدسًا ويطلق النار في الهواء. سِيروا إلى المجد، أيها السادة، ولتبدأ الألعاب؛ اركضوا حتى تسقطوا صرعى، لا تجعلوا بلدانكم تخجل منكم. أنا الفنلندي الطائر، يقول سانتياغو ويبدأ في الركض في دوائر؛ أنا الإيطالي، يُضيف رامون، الذي أحمل العلم الخالي من النسر(44)، ويبدأ في الركض في دوائر. وأخيرًا ينضم إليهم ماتوس بخطوات مخمورة مماثلة. أنا المكسيكي، عداء المسافات الطويلة من الشمال، المتسابق الخالد من مونتيرّي، ولن يكون هناك أي غرينجو في حفل الذهب والفضة والبرونز الخاص بنا. تحيا إيطاليا ولتَحيا فنلندا. يرفعون أذرعهم ويلوّحون بها من حولهم بينما يركضون ولا تطرف لأحدهم عين عندما يُطلق رامون رصاصة في الجدار عرضًا. عاش أمل أميركا اللاتينية الذي حرث مضمار دورة الألعاب الأولمبية، حيث لا تجرؤ على الذهاب إلى هناك إلا القاطرات فقط. تضيق الدائرة بهم وسرعان ما سيصطدمون ببعضهم بعضًا وينتهون على الأرض، متعانقين، ضاحكين، يتمازجون أنفاسهم الكحولية. يتطلّع الصحافي إليهم مأخوذًا ويشعر بأنه توجد قصة رائعة هنا، يشعرُ بالحاجة للتوجه إلى الآلة

الكاتبة وإبلاغ المئات أو الآلاف من قرّائه بأن شيئًا رائعًا حدث في تلك الليلة في مونتيزي، لكنه مع ذلك عليه الإذعان إلى حقيقة أنه، باستثناء السكارى الثلاثة في الشارع، لا يمكن لأحد أن يعرف ما هو ذلك الحدث العظيم. ستبقى ورقته فارغة، وسوف يكون غير قادر على إيجاد الكلمات، الحقيقية أو الزائفة أو الحصيفة أو الجامحة، لتحويل القصة إلى خبر يستحق أن يُقرأ في الطبعة القادمة.

*

الآن علينا أن نقرّر من الذي سيحمل العلم المكسيكي أثناء القتال، وهو أعظم امتياز بين الجنود الأحياء، ولا حاجة بي للقول أن الشرف الأسمى هو الاستقرار راسخًا في قلب المعركة، على أنك تحصد حفنة من الأعداء معك. والموت حاملَ العلم؟ تسأل أثوثينا. لا يوجد شيء أعلى في مقياس الشرف، سيما إذا كانت الرصاصة التي تخترق جسدك تمرّ انطلاقا من الرمز الوطني: تموت واقفًا قابضًا على العلم حتى لا يجرؤ أيّ عدو على لمسه، وأن يكون في الوقت نفسه وديعًا، وجثمانًا مُذعنًا، يسمح لجندي زميل بأن يستعيد الراية الوطنية ويتولّى حملها، لأنّ المعركة لا تنتهي طالما الأخضر والأبيض والأحمر لا يزال يرفرف في الهواء. لا تنتهي طالما يواصل النسر التهام الثعبان، ولأنّ الحرب في النهاية ليست مسألة إحصائيات ثُبيّن من قتل أكثر من جيش العدو، بل من بقي واقفًا، وجهًا لوجه دون أن يفرّ. أنا أستحقّ العَلم، يقول كومودورو، لأنّني كنت أول من تطوّع جنديًا، لأن الطاهرة قرّرت أن يكون الأمر بهذا الشكل. يجب أن يكون لي، يعترض ميلاغرو، لأنّني معجزة. أوبالدو يرى لنفسه الحقّ ذاته، على أنّه لا يجدُ حجّةً لدعم دعواه. سوف أقرّر لاحقًا، يقول ماتوس، سأراقب سلوك كل واحد وسأُقيّم مزاياه بأقصى قدر من الحياد، لكنني فقط أنبهكم من أن رافع رايتنا لن يكون مثل نظرائه في الجيوش الأخرى، التي بسبب عديد الجنود يسمحون لأنفسهم بتخصيص رجل ليس لديه أيّ شيء آخر في يديه إلا سارية العلم؛ لا

يا سيدي، رافع رايتنا يجب أن يحمل بندقية وسيفًا وسكينًا وقبضة يد، لهذا السبب سيحمل العلم على أكتافه مثل عباءة رجل خارق. الرغبة في حمل العلم تزداد مع هذه الكلمات. وإذا كنتم محظوظين سيحظى الجميع بهذا الشرف، لأنه سيُخصص لكم أرقام من واحد إلى خمسة، ما يعني أنه إذا مات رافع الراية الأول، فسيقوم رقم اثنين بانتزاع العلم منه وحمله؛ ولهذا فمن المهم أن لا يربط عقدة أعمى أو عقدة جلاد، بل عقدة فضفاضة تسمح لك بانتزاعها بسهولة من حول عنق جثة ميتة. هذه ليست بمشكلة، تقول أثوثينا، جلبت معي إبرة وخيط، يمكنني ربط شريط مطاطي في نهاية العلم حتى ينزلق بسهولة أثناء ارتدائه ونزعه، أنا فقط بحاجة إلى معرفة ما إذا كان الشريط المطاطي يجب أن يكون أخضر اللون أو أحمر. أو يمكنك عمل شقٍّ في المنتصف، يقول ميلاغرو، ويمكننا استخدامه مثل بونشو(45). من شأن ذلك أن يُعدّ تدنيسًا، لا ينبغي أن يَخْرِقَ العلمَ أبناؤهُ. فكرة الشريط المطاطي جيدة، ولكنّها غير عملية، لأنّ الطريق الذي نحن عليه ليس به محلّات كُلَف في هذا الجانب من النهر، وعلى الجانب الآخر لا يمكننا الذهاب إلى أيّ متجر، ليس إلا أن ننتصر، عندما نقوم بالطرد. كومودورو جلب عدة أزواج من الملابس الداخلية، يقول ميلاغرو، يمكننا أن نقطع أحدها. تومئ أربعة رؤوس بالموافقة، رأس واحدٌ يهتز معترضًا، وسيريّو لا يتحرّك. حسنًا، تم اعتماد القرار. اعتُمد مِمَّن؟ كومودورو يسأل دون أن يوليه أحدٌ أي اهتمام. أوبالدو واثق من أنه سوف يتم اختياره، وفي حين أنه غير متحمّس بشأن وجود شريط مطاطي بقياس 42 حول رقبته، إلا أنه يتمكن من تخيُّل نفسه مُعتليًا جانب تلّ، حيث تُطيّر الرياح شعره وتجعل ثلاثي الألوان يُصفّق مثل طائرة ورقية، رمز وحدة آبائنا وإخواننا؛ يتقدّم العدوّ من الميمنة والميسرة، ولكنّه غير منزعج، ينصتُ إلى صفير المقذوفات التي لن تجرؤ على لمسه.

*

السيد كلارنس ديمار، يكثب ماتوس، غير قادرٍ على البدء بكلمة عزيزي أو

المحترم، أتمنى أن تكون قادرًا على قراءة اللغة الإسبانية، لأنني لا أعرف الكتابة بلغتك. أرسل إليك هذه السطور لتوضيح خطأ ما. في 13 يوليو من هذا العام، لم يشارك أربعة وثمانون عداءً في الماراثون الأولمبي، كما ادّعى المنظّمون وكررت الصحافة؛ كان هناك خمسة وثمانون، حيث إنّ طلقة البداية في باريس أرسلت أيضًا المُوقّع أدناه لإطلاق ساقيه في مدينة مونتيرّي، والسعي في المسافة نفسها التي قطعتها أنت والآخرين. الصورة المرفقة تم التقاطها في اليوم نفسه، وكما يمكنك أن تلاحظ، فقد توقف الكرونومتر على 2:47:50، أي قبل 24 ثانية من وصولك. وعلى النقيض من سواها من الألعاب الرياضية، المليئة بالحيل، والضربات تحت الحزام، والتسبُّب في الكبوات، وعلى العكس من تلك التي تسمحُ بالأخطاء أو سوء النية من جانب الحُكّام، فرياضتنا نقيةٌ ونبيلة. وحقيقة أن حكومتي لم يكن لها مصلحة في دفع ثمن تذكرتي إلى باريس لا تلغي التقدير المستحقّ لي، إذ إنّني تفوقت عليك في السرعة، على أنّك ربّما هزمتني بالدولارات. وبناءً على ذلك، أطلب منك إرسال الميدالية البرونزية إلى العنوان أدناه. وبلا أيّ سبب إضافي لإطالة هذه الرسالة، أبعث بأطيب تمنّياتي متطلّعًا إلى السماع منك. مع خالص التقدير، إغناثيو ماتوس، عداء المسافات الطويلة، الحائز على الميدالية الأولمبية، 467 جنوب شارع ديغويّادو، مونتيرّي، نويفو ليون، المكسيك.

مع أنه لم يتمكّن من التوصّل إلى عنوان كلارنس ديمار، إلا أنّهم زوّدوه في صالة الألعاب الرياضية التابعة لنادي التجّار بعنوان مُنظّمي ماراثون بوسطن. سيوصّلونها إليه حتمًا، قال له الشخص الذي يدير النادي الرياضي، السيد ديمار هو تقريبًا مالك ذلك السباق.

يقوم ماتوس بإلصاق طوابع بريدية أكثر من اللازم على المظروف ويسلّمه إلى موظّف البريد. كم من الوقت سيستغرق للوصول إلى هناك؟ سأله. أسبوعان، أكثر أو أقلّ، يجيب الرجل دون النظر إلى العنوان.

بعد شهر، يبدأ ماتوس بترقُّب ساعي البريد. في بعض الأحيان يراه يعبر بجانبه، وفي أحيان أخرى يسمع صافرته. يجلب الرجل بطاقات الدعوة، والإيصالات، أو الكروت، لا شيء بصلابة البرونز.

*

من المحبّذ في كل جيش وجود فنّانٍ بين الجنود. بصفتي جنرالًا، يمكنني كتابة تقاريري العسكرية، وهذه لا تنفع إلا في الإفادة عن شجاعة أو جبن جماعتي، لتقديم معلومات حول إحصائيات القتلى والجرحى، أو قطع المدفعية التي فُقدت أو غُنمت؛ يُخبر المرء فيها شيئًا عن الاستراتيجية المتبعة في المعركة، ما إذا كان قد تم الاستيلاء على بعض الأراضي، ومحاولة المبالغة في أهمّيتها حتى لو كانت مجرد مستوطنة من ثلاثة بيوت من الطين. يُعد الحديث عن آلام الجرحى قلّة ذوق في التقرير العسكري، منظر الجثث البشع، المظهر المهيب لرجل المدفعية في اللحظة التي يطلق فيها مدفع الهاون، الصفة الدقيقة التي يرفرف بها العلم في الريح والدخان. لا، يا أوبالدو، كل ذلك عائدٌ إلى براعتك، للخطوط والألوان التي إنَ كانت تُسمى فنًا فلأنك يجب أن تتغاضى عن الحقيقة قليلًا: لست مُجبرًا على رسم كومودورو بالبدانة التي هو عليها، ولا مرتديًا دائمًا البنطال البوليستر نفسه، ولا خدوده المحمرة في كلّ مرة يُجهد فيها نفسَه، وفي نوباتٍ أقلَّ من دون تلك الجزمة المطاطية اللعينة، لأنّ هذه ليست هيئة الأبطال. يلزمهم رأسٌ متقن الشَّعر وحروقٌ جانبية واسعة، أجسام رشيقة وصُلبة على حدّ سواء، كراقصٍ ليس مِثليًا. أعرف كل ذلك، يقول أوبالدو، لا تقل المزيد لأنني الفنّان هنا، ولديّ بالفعل فكرة عن الكيفية التي سأقوم بها بتقديم كل واحد منكم، وبضمنكم صورتي الشخصية، التي ستحمل عنوان أوبالدو يتأمّل الأموات من نافذة في ألامو. سأكون مائلاً على إطارها، مُريحًا كتفي؛ هناك دخان في الخارج بعد وقف إطلاق النار الأخير، وهناك أربع عشرة جثة في مجال رؤيتي. يداي في جيبيّ وأكمام سترتي كبيرة وحمراء. تعابيري تُظهر

الانتصار ولكن ليس السعادة، لأن كومودورو من بين القتلى الأربعة عشر. يرتّث ماتوس على ظهره، ويرفع رأسه فيتبيّنُ تعاقبًا من التلال ولا جبال، ما يعني أنّهم الآن قد ابتعدوا كثيرًا عن مونتيرّي. ستغيبُ تلّة أوبيسبادو وجبل السرج عن لوحاتك، لكن ستكون هناك ألامو والسهول، ولا عَلَم للغرينجو لطفًا. لا تقلق، يا ماتوس، فلوحاتي ذوقها راقٍ، لأنّه لن يكون هناك سوى مكسيكيّ واحد بين الأربعة عشر قتيلًا، وعلى أنّه سيكون هناك عَلَم للعدوّ، إلا أنّه في الخلفية حيث يمكنك ملاحظة ماعزٍ يلوكه. سأرسم أثوثينا في صورة أخرى، ماخا(46) حصن ألامو، مستلقية عارية على الأريكة، بين الوسائد الأرجوانية؛ سيريّو سيكون في لوحة أخرى لا يرتدي أيّ حذاء، أبيض يرفرف بجناحيه فوق حقل الموت؛ سيكون من الصعب رسم ميلاغرو لأنه لا يستطيع البقاء ساكنًا، لذلك سأقوم بعملِ مصغرٍ له وهذا سيكون كافيًا. كل واحد سيأخذ لوحته، يا ماتوس، بما فيهم أنت. هل يمكنك أن تجعلني أبدو أصغر سنًّا؟ بالطبع، أنت تعطي الأوامر. هل يمكنك صبغ شعري باللون الأسود ووضع ميدالية برونزية حول رقبتي؟

*

أيها الجنرال ماتوس المحترم، أتخلّى لك عن ابنٍ فتتلقّفُ محاربًا؛ هذه صفقة رابحة بالنسبة لك، لأنّه بالنسبة لي جسدٌ ودمٌ وروحٌ بينما هو بالنسبة إليك علفٌ للمدافع. إنما لم يكن هدفي أن أغمرك بمراثي أم، فطالما كنا دائمًا نُزفُّ للدموع عندما تدعو الحربُ رجالَنا، الأمر الذي يطبع هذه الأحداث بنغمتها الكارثية ويوهن عزائم الأبطال. ننتظر خلف نافذةٍ وصول أولئك الذين رحلوا أو، في بعض الأحيان، نُغتصب من قبل العدو، وأحيانًا لا يكون الأمر سيّئًا للغاية لأنه يضخُّ الغضب والإقدام في محاربينا، وبمجرد الفوز بالحرب سنكون قادرين على القول بأنه، من بين النساء، فقط أولئك اللواتي تمّ تدنيسهن هن اللواتي فعلن شيئًا في سبيل الوطن. لذلك أريدك أن تهمس لسيريّو، قبل المعركة الحاسمة مباشرة، أن أمّه شُقّت من رأسها إلى أخمص قدمها من قبل مجموعة من المفترسين الذين

يقطنون خلف ريو غراندي، أخبره أن مقاومتي كانت عديمة الجدوي لأنه كان هناك الكثير منهم؛ وبهذه الطريقة، سوف نُقاتل معًا دائمًا، يدًا بيد، أمّ وابنها، وسيكون لي الحق في أن يُذكر في سيرته الذاتية: سيريّو ووالدته، فرقةٌ باسلةٌ، البطل والبطلة، وعليهما أن يفخرا ببعضهما، لأن البلاد فخورة بهما.

*

مستغلًا كيف أن القمر مثل إضاءة الشارع، يسيرُ ميلاغرو بين الأجساد الغافية ويختبئ وراء شجرة. وبيد مرتعشة يفتش في جيبه ويخرجُ قصاصةً من الورق يفتحُ طيّاتها بعد عدة محاولات. تُظهِر الخربشات السوداء الكبيرة عملية رياضية. عليك مضاعفة الرقم ثمانية، إحدى عشرة مرة. يكره ميلاغرو الإحدى عشرة تلك لأنها أكثر من أصابعه، وكلما حاول يكون الأمر أصعب، والأكثر صعوبة بالنسبة له هو الحساب مع هذه الأيدي التي لا تبقى ساكنة. ينظر إلى الأرقام مطوّلًا بعناد، وهو واثق من أنه كان في زمن ما قادرًا على إعطاء الجواب الصحيح من فوره. لكن أباه غفا على عجلة القيادة، واللعنة، ها هو الآن لا يستطيع الإمساك بزمام الأرقام. ثمانية ضرب أحد عشر. يدعكَ جبينه، يحاول التركيز. ثمانية ضرب أحد عشر. هيا، من المفترض أن يكون الأمر سهلًا، إنه رقم ترسمه بدائرتَين ورقمان يتكوّنان من أعواد. يغمض عينيه ويعصر جفنَيه. واحد اثنان ثلاثة... ثم يُضيّع العد عند الرقم ستة. واحد اثنان ثلاثة... الآن يفقد أعصابه عند الخمسة. يلاحظ أنّ ثمانية وأحد عشر يبدآن بالحرف نفسه(47)، ربّما يكون هذا هو المفتاح، على أنه يتذكّر بشكل مبهم أنّ الأرقام والحروف لا علاقة بينها. واحد اثنان ثلاثة أربعة... قلقه يزيدُ من ارتجافه، وعندما يرى ميلاغرو أنه على شفا الانهيار العصبي قرّر أن يخمّن عددًا، اثنين وأربعين، ويقبل ذلك على أنه إجابة صحيحة. ثمانية ضرب أحد عشر، اثنان وأربعون، يقولها همسًا، ثمانية ضرب أحد عشر، اثنان وأربعون، ثم يرفع صوته ليعلن النتيجة، نعم، يا سيدي، اثنان وأربعون، سيداتي وسادتي، اثنان وأربعون، ويبدأ بالطواف حول الشجرة، سعيدًا، منتصرًا،

بينما يقذف مزيدًا من العمليات الحسابية، بما في ذلك الطرح والقسمة، والتي تنتهي أيضا إلى اثنين وأربعين، يقفز صعودًا وهبوطًا ومستفيدًا من ذراعيه المتأرجحين للقيام برقصة متهلّلة، وبعد ذلك بقليل، وهو يهتف بقوّة بأنه معجزة، عبقري في الرياضيات، سيد الأرقام، يرفع أوبالدو رأسه ليطلب منه أن يخرس إلى الأبد.

*

تتوقف العربة في منطقة مشجرة على جانب الطريق ويسارع البغل ليعتلف على العشب الطازج. سأذهب إلى المدينة، يقول ماتوس، انتظروني هنا جميعكم. هل نستطيع الذهاب معك؟ يسأل كومودورو وهو يسوّي شعره، يمكننا أن نترك أثوثينا مجدّدًا لرعاية متاعنا. ليس هذه المرة، سأشتري التموين فقط. وماذا إذا لم تعد؟ أوبالدو يحمل بندقيّة في يده، أدرك قبل فترة أنّها فكرة جيدة بأن يكون على أهبة الاستعداد، من سيكون المسؤول؟ سأعود بالتأكيد؛ سأذهب إلى المدينة، وأتوجّه إلى متجر، وأشتري الطعام والشراب، وعندما أعود سيكون من المستحيل أن أضيع طريقي لأن هذه هي الرقعة الخضراء الوحيدة وسط الصحراء. الناس تأتي وتذهب إلى محلّات البقالة في وقت السلم، يُصرُّ أوبالدو، ولكنّك قد تخرج في زمن الحرب من أجل الحليب وتنتهي بثقب في رأسك؛ عليك اتخاذ الاحتياطات اللازمة في مثل هذه الأوقات، كأن تنأى بنفسك عن أبراج الكنائس لأن هذه هي الأماكن التي يفضلها القنّاصون. وممّا رأيته، إذا ترك القادة مرؤوسيهم، فإنهم أولًا يمنحونهم تعليمات ويحدّدون فترة زمنية؛ إذا لم أعد في الوقت المعيّن، فعدُّوني ميتًا واستمرّوا في المهمّة، انسفوا الجسر، وأبلِغوا بياتريث أن ما حصل كان في سبيل منحها مستقبلًا أفضل. شخر ماتوس؛ حسنًا، قال: إذا لم أعُد في غضون ثلاث ساعات، يمكنكم المتابعة من دوني، لن يكون أي منكم آمرًا لأنه ينبغي عليكم العمل بشكل تعاوني، وأبلغوا تلك البياتريث بأنه كان من دواعي سروري لو تعرّفت إليها. يغادر ماشيًا بتؤدة نحو المدينة،

فثلاث ساعات أكثر من كافيةٍ لجلب البقالة وتناول الشراب.

النسيم تحت الأشجار مغرٍ. تقوم أثوثينا بمسح العرق عن سيريّو وتساعده أن ينقلب على فراشه من جانب لآخر، حيث طُبعت على خدّه الأيمن آثار البطانية المجعّدة. ماذا علينا أن نفعل؟ يسأل كومودورو. يمكننا أن نُصفّر، يقول ميلاغرو، أعرف أنّ الجيوش تصفّر أثناء الزحف. أوبالدو يهزّ رأسه أن لا. لا تفهموني خطأ، لقد رأيت ذلك أيضًا، ولكنّهم يفعلون ذلك فقط في الثكنات؛ فإذا صفّروا في وسط الغابة، فسيشقُّ أحد السكّان الأصليين حناجرهم. يمكنني أن أقرأ لكم قصة، تقول أثوثينا. يبتسم سيريّو دون أن يفتح عينيه، بينما تمتعض وجوه الآخرين. لم نُحضر معنا إلا تلك التي تحكي عن الكتكوت الذي يريد أن يصير ملكًا، ونحن نعلم سلفًا أنهم في النهاية وضعوا تاجًا على رأسه وهتف له الجميع مُنقنقين(48). يستدير سيريّو تحت غطائه ويبدأ في رفرفة ذراعيه. لا أحد لديه أي فكرة أخرى عن كيفية تزجية الوقت انتظارًا لعودة ماتوس. بعد مرور فترة من الزمن، تمدّد الخمسة على أرضية العربة، يراقبون حفيف قمم الأشجار في مهب الريح، والطيور تحلّق فوقها دون توقّف؛ يخلدون إلى النوم واحدًا تلو الآخر. آخر ما كانت تفكّر به أثوثينا له علاقة بأسنانها: أخبرها طبيب الأسنان أنها قوية. لقد مرّ بعض الوقت منذ أن قُمتُ بتنظيفها، ربما لن يرغب أحد في تقبيلي عندما أعود إلى مونتيرّي. كومودورو يفكّر في طلقٍ ناريّ يصدر من مكان عال؛ يبدأ الناس بالجري ونفثةٌ من الدخان تطلع من برج الكنيسة.

*

ميلاغرو يستيقظ والشمس في وجهه. أيها السادة، نحن أكثر جيش متهوّر في التاريخ المعاصر؛ غرِقنا في النوم دون تعيين حارس على الأقل. علينا الامتنان للعناية الإلهية أن لم نتعرض جميعنا للطعن في الصدر أو تُقطع حناجرنا. باستثناء سيريّو، الذي ما يزال ساكنًا، يفتح الآخرون أعينهم جزئيًا ويبدؤون في التمطّي للاستيقاظ. كل شخص يستحقّ قيلولة، تقول أثوثينا. قيلولة؟

يسأل ميلاغرو، وصوته يتعالى، حلمتُ بحياتي كلّها، منذ أن حصلت على أول لعبة، شاحنة قلّابة صفراء، إلى أن ذهب ماتوس إلى المدينة لشراء البقالة؛ إنّه حُلم طويل غني بالتفاصيل، لكي تتمكّنوا من رؤيته كاملًا ستلزمكم ليلة السبت وحرية النوم إلى الظهيرة في يوم الأحد. يقفز أوبالدو. هل صرنا في الغد بالفعل؟ علينا المُضيّ قُدُمًا في الزحف. أشعر بأنني لم أنم إلّا بضع دقائق فقط، تقول أثوثينا، حتى إنّني لم أهضم طعامي بعد. هذا لأن النساء لا يهضمن بشكل جيد أثناء السفر، يعلّل كومودورو، أظنّ أن ميلاغرو على حقّ، لم أر حُلمًا، بل كان أقرب إلى طيف أطلق به جاسوس للحكومة الأجنبية النار على جنرالنا من برج الكنيسة. تمكّنت من رؤية دخان البارود، لكنّني لم أر جثّته أو السفاح. فقط رجالًا جريئين يجولون بين سكّان المدينة دون حراسة. دعونا نصلّي من أجل جنرالنا سيّئ الحظّ.

لم يعد هناك ما يُبَثُّ فيه. يَسُوطُ ميلاغرو البغل فيخبّ دون هوادة. أوبالدو يراقب الجبهة الأمامية وكومودورو يغطي المؤخرة. وأثوثينا تجلس على ركبتيها، متمتمةً بصلاتين، واحدة لروح ماتوس والأخرى لنجم الطالع الحسن لكي يقودهم إلى الشمال.

Telegram:@mbooks90

*

السيد كلارنس ديمار، كلنا نعرف أن الفائز في ماراثون لندن الأولمبي عام 1908 كان دوراندو بييترى(49)، إيطالي، على أنه زلّ عن الطريق وأُغمى عليه أكثر من مرة فقد وصل إلى خط النهاية قبل أي شخص آخر. الكثير من الإرادة، الكثير من الإقدام، ليتبيّن أن الرجل انتهى دون أي ميدالية، لا ذهب، ولا فضّة، ولا برونز. لماذا؟ ما كانت خطيئته؟ كان من سوء حظّه أن الرجل الذي جاء في المرتبة الثانية لم يكن تشيكيًا ولا بلجيكيًا ولا فرنسيًا ولا فنلنديًا ولا من أيّ بلد آخر كان سيخلع قبّعته في إزاء جهود بييتري الخارقة؛ عُبنًا للروح الرياضية، كان عدّاء المركز الثاني هو جون هيز، وهو غرينجو، مثلكم جميعًا، سعى للذهب

فوق أيّ شيء آخر. لا أعرف كيف ضغطت الحكومة الأمريكية أو رشت الحُكّام حتى يغيّروا قرارهم الأصلي ويسلّموا الميدالية إلى هذا الهيز أنه من الواضح أنه حلّ في المركز الثاني. بالنسبة لكم جميعًا، فإن الشعار الأولمبي هو أسرع، أعلى، أقوى، اسرِق، كل ذلك يعني الشيء نفسه طالما كان يؤدّي الغرض. في النهاية، تُظهر التقارير أرقامًا وصورًا للميداليات، ولذلك فليس من المهمّ من وصل أولًا ولكن من حصل على الذهب. ومع ذلك، اتضح أن الأمر ليس مسألة أرقامٍ فقط، فبينما ضاع هيز في ظلمة النسيان، نما دوراندو بييتري وتحوّل إلى تجسيد للمُثُل الأولمبية. إذا كان لدى هيز ذرةٌ من خجل، لكان طلب من بييتري الصفح، لكان أعاد الميدالية إلى فائزها الشرعي. لكن هيز غرينجو وكان عليه أن يعرض معدنه الخاصّ في علبة زجاجية ويخبرَ أيّ شخص يسأله بأنه كان الفائز، وأنه كان الرقم واحد. السيد هيز التافه، الشيطان التافه المطليّ بالذهب.

يا سيد ديمار، لا ترتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه مواطنك وابعث لي الميدالية من فورك. تفضلوا بقبول فائق الاحترام، إغناثيو ماتوس، عدّاء المسافات الطويلة، الحائز على الميدالية الأولمبية، 467 جنوب شارع ديغويّادو، مونتيرّي، نويفو ليون، المكسيك.

*

يرجع ماتوس إلى المكان الذي ترك فيه العربة متوقفة. كومودورو، يصيح، ميلاغرو، أين أنتم؟ سؤاله دون جدوى، ولكنه ليس يائسًا، فهو لا يُلغي احتمال مراقبتهم له من وراء بعض الأكمات وسيخرجون بسرعةٍ ضاحكين. لقد خدعناك، يا ماتوس، ظننت بأننا رحلنا من دونك، وهو، مهما بلغ من حنقه، فسيهزّ رأسه أن لا، سيبتسم طوال الوقت ويدعوهم أعزّاء أو أحبّة أو بعض الكلمات غير الصادقة بينما ما يودّ القيام به هو القبض على فرع شجرة وإثخانهم ضربًا. سألقنكم درسًا في الاختباء عن جنرالكم. أثوثينا، أوبالدو، أين أنتم؟ يصرخ، في نفس الوقت يرى فرع شجرة مناسبًا للمهمة متناسيًا النداء على سيريّو.

لم تحافظ الطريق الترابية على آثار العربة، كما لو أنهم اختفوا مع أول هبّة من نسيم. على بعد ثلاثين مترا هناك شوكة في الطريق. يُلقي ماتوس أكياس البقالة ويرى تفاحة تتدحرج. وتترطب الأرض بالحليب الذي جلبه لسيريّو. ثنى طيّة بنطاله ونزع قميصه ولفّه كعمامة مُرتَجَلة حول رأسه لحمايته من وهج الظهيرة. قبل أن ينطلق، يتمتم القسم المطلوب: أنا الموقّع أدناه، أعلن بشرفي بأنني من الهواة وفقًا لقواعد الألعاب الأولمبية للهواة، وأنّني مواطن من البلد الذي أرتدي ألوانه في الألعاب الأولمبية. يوقّع ويُسجّل التاريخ؛ يُصالب نفسه ويسمع طلقة نارية. كلارنس ديمار هو الآن بغل يجر عربة، وماتوس لديه أقلّ من ثلاثين مترًا ليقرّر ما إذا كان سيتحوّل يسارًا أم يمينًا.

*

يستيقظ كومودورو على ظهره في العربة ويقول إن حياة الجندي جميلة. مرت أيام منذ أن أعطاه أحد المعلّمين أمرًا، منذ أن التقط زجاجات الجعة الفارغة، منذ أن غسل الأطباق؛ يفتح ويغلق عينيه متى ما أراد ذلك وينظر إلى أيّ مكان يريد ويمشي دون أن يضطرّ إلى النظر في كلا الاتجاهين للتأكّد من أنه لن تدعسه حافلة. أجل، بالطبع، أنت لن تعرف أبدًا متى سيُغمدون سيفًا في ظهرك، لكنني لن أقول بأن الأمر لم يكن يستحقّ العناء.

يلاحظ أنّ العربة لا تتقدّم إلى الأمام، وحكمًا من السماء الصافية عديمة الشمس، فهو يُخمن بأن الوقت هو الفجر أو المغرب. يسمع صوت الماء الجاري ويشرع في رفع رأسه. يتبيّنُ نهرًا على بعد أمتارٍ قليلة. يمكنه رؤية سيريّو وميلاغرو وأثوثينا على حافّة النهر، يدًا بيد. ينزل كومودورو من العربة ويسأل، أين نحن؟ هل يمكنك التخمين؟ هل هذا هو الريو غراندي؟ يومئ ميلاغرو بنعم. علينا المخاطرة بحياتنا للعبور، ومن أجل ماذا؟ فقط للوصول إلى الجانب الآخر ووضع حياتنا في خطر أكبر منه، يا لَقدرنا المشؤوم. يتطلّع كومودورو إلى الأرض التي يمشي عليها، وينظر إلى الأرض على الجانب الآخر، من الصعب

عليه أن يتصوّر أنّ كلّ قطعة من الإقليم تنتمي إلى بلد مختلف. ماتوس على حقّ، يقول، ما على الجانب الآخر هو أيضًا المكسيك، وسيظلّ المكسيك على الدوام بغض النظر عن عدد الحروب التي تُخسر. أو التي يُنتصر فيها، يقول له ميلاغرو، لأنّني لم أقطع هذه المسافة لأخسر. يسقط سيريّو على الأرض، ويزحف إلى ضفّة النهر ويبدأ بالشرب. تفكّر أثوثينا في احتمال الظهور المفاجئ لتمساح يترك وراءه حذاءً صغيرًا أبيض فقط كدليل على أن سيريّو كان هناك. لا تقترب أكثر، من الأفضل ملء الترمس الخاصّ بك والشرب منه مثل الناس الطبيعيين. وكيف سنعبر؟ يسأل كومودورو. ألديكم خطة؟ بلى، أيّها الفتى السمين، ردّ ميلاغرو، وضعنا الخطة منذ زمن بعيد، عندما رأينا صور الأسماك. يستدير كومودورو مُغضبًا، راغبًا في شتمهم، ولكنه في اللحظة نفسها يرى أوبالدو خارجًا من بين الشجيرات حاملًا غصنًا طوله متران وقد شذّب رأسه بعناية. لا، يصرخ كومودورو، أنا لست مستعدًا لذلك، ويسرع إلى الجانب الآخر من النهر؛ يتمكّن من قطع ثماني قفزات أو عشر قبل أن تصعد المياه إلى ركبتيه وتتسبّب فى تعثّره. اركض، يا سمين، اسبح، اقفز، لا تقف مكتوف الأيدي في هذا السيل المميت. عد إلى هنا، يصرخ أوبالدو مناديًا عليه، ولكن كومودورو ليس له أيّ مزاج في العودة. يقف ويستمرّ في التقدّم، محمرًّا بسبب الخوف والإجهاد، بخطواتٍ تزن الضعف بسبب جزمته المعبّأة بالماء. يتعمّق النهر حتى تصل المياه إلى خصره؛ يضع قدميه بحذرٍ شديد، يشعر بأنواع وأحجام مختلفة من الصخور تحت قدميه ويدرك أنه إذا تعثر مرة أخرى فسيحمله التيار طافيًا إلى خليج المكسيك. أنقذيني أيتها السيدة الطاهرة، إن كنتِ ستصنعين معجزة، فلتكن الآن. يأخذ بضع خطوات أخرى وتضعف المياه. تنزل الآن من خصره إلى فخذَيه، إلى ركبتيه، وأخيرًا، إلى كاحليه. يصل كومودورو إلى أرض صُلبة ويسقط، بادئًا على ركبتَيه، ثم على بطنه؛ وتنسكب ليترات من الماء من جزمته. يبقى مستلقيًا على الأرض متأمّلًا شجاعته. لقد نجا ممّا لم ينج منه إلا قليل من الرجال، والآن يمكن أن يشعر بأنّه بطلٌ. الآن الأمر متروك لأصحابه لتكرار إنجازه، والذي لن يتمكّنوا

من مطابقته بالتأكيد لأنه وصل أوّلًا، وحده فقط من يستحقّ الذهب. في حين أن كومودورو لا يزال مرتديًا كامل ملابسه، إلا أنه يتخيّل نفسه دون قميص، حافي القدمين، وبنطاله ممزّقًا، مستلقيًا على رمال مختلفة تمامًا عن هذه الأوساخ، حيث تدغدغ السراطين(50) ظهره. أنا على قيد الحياة، يتمتم لنفسه، ويزعجه عدم سماعه أيّ هُتاف من الجانب الآخر من النهر.

يقوم أخيرًا ويلاحظ الوجوه الجديّة لأصحابه الأربعة. أوبالدو لا يزال ممسكًا بالعصا المدببة، وكومودورو مفعمٌ بالرضا: لقد أنقذ نفسه في لحظة واحدة من أن يخوزق ويؤكل من قبل أسماك البيرانا، ومن مياه ريو غراندي الغادرة. أنا خالد، يقول لنفسه، أنا جاهز الآن للقضاء على أيّ قبيلة وثنية مشعرة الصدور. ماذا تنتظرون؟ يناديهم بتحدٍّ، ألن تعبروا؟ ليس الآن، تردّ أثوثينا، جامعةً يديها كبوق، إنها توشك أن تُظلِم. يرى كومودورو البدين إلى يمينه الوهج الباهت للشمس، التي انحدرت عن الأفق.

استغرق الأمر مني دقيقة واحدة للعبور، لا معنى لبقائهم على الجانب المكسيكي مع اقتراب الليل. لا بدّ أن يكونوا قد أبرموا اتفاقًا فيما بينهم، إنهم ينوون معاقبتي على المُضيّ قُدمًا بمفردي، أو حتى أسوأ من ذلك، أن يخدعوني بالرجوع إليهم، وبعد ذلك ستكون النهاية بالنسبة لي، سأُعلّق في سيخ ويتمّ التهامي، سأكون لحمًا وعظامًا مغمورة بالماء، سأصير دماءً تُلوث حدود وطني.

يقفون محدّقين بعضهم في بعضًا برهة من الزمن، صامتين؛ تدفّق المياه فقط يؤكّد أنها ليست صورة. بعد حين تطلع النجوم. حان وقت العودة إلى العربة لأن الظلام يجلب معه الثعابين والقيّوط والعقارب وعناكب الرتيلاء(51) الكبيرة.

سيأتي منتصف الليل، والفجر، والقمر سوف ينعكس على مياه النهر وفي عينيّ كومودورو البدين المفتوحتين على اتساعهما.

*

يمتدّ النهر متوعّدًا أمامهم، خلّابًا في شمس الصباح. حان الوقت للمضي، يقول أوبالدو، ليس هناك من سبب لتأجيل مصيرنا. يحث ميلاغرو البغل إلى الأمام إلى أن يصل إلى أسفل ضفّة النهر. إذا انقلبنا انجوا بأنفسكم، لا نساء أو أطفال أولًا. من المؤسف أن ليس لدينا فراش قابل للنفخ، تقول أثوثينا، بأنفاسي الأخيرة سوف أنفخه لأضع سيريّو عليه، وأدعه يطفو سالمًا إلى أسفل النهر، فهناك يصير النهر بحيرة بلورية، حيث سيسحبه جماعة من الصيادين إلى قاربهم ويقدّمون له كوبًا من الحليب الدافئ. متى ستعبرون يا جبناء؟ يصرخ كومودورو من الجانب الآخر. لا تزال جزمته المطاطية مبتلة من الداخل، وتصدر عن قدميه رائحة كثيفة بسبب الرطوبة؛ أصابع قدميه كالزبيب المجفف. من الأفضل له أن يغرق، يقول أوبالدو: الصيادون عديمو ضمير، فسيتبادلونه على أنه سمكة سلمون، ثم يبيعونه بالوزن إلى منزل التعبئة الذي يُقدم أعلى سعر. أثوثينا تُسوّي شعر سيريّو وتهمس له ألا يقلق لأنهم سيعبرون النهر دون أي عوائق. لقد سمعت أن هناك متاجر كبيرة جدًا على الجانب الآخر حيث يكون كلّ شيء أجمل وأرخص من المكسيك، وزوجي كومودورو لديه المال ليشتريَ لك ما تريد. يضرب ميلاغرو البغل على كفله ويأمره بالتقدّم للأمام. هيّا، لا تتوقّف إلى أن تصبح بلادنا وراءنا، انسَ البيت وامضِ قُدمًا، ارفع رأسك، بَيّنْ لنا العنفوان في مشيتِك، اجرِ نحو الحُلم الأميركي. ما لبثت أقدام البغل وعجلات العربة أن دخلت سريعًا في التيار. تحرك، يا حيوان، فأسماك البيرانا أحسّت بوجودك وأنت الآن في طريقها. يأخذ البغل استراحة ليشرب بسعادة، ولا حتى أقسى ضربات ميلاغرو تمنعه من ازدراد الماء الذي نسوا تزويده به منذ فترة طويلة. أوبالدو يمسك العمود ويغرزه بشكل عشوائي في النهر؛ في كل مرة يظن أنه سيصيد سمكة بيرانا. يتخلّى كومودورو عن غروره ويبدأ في إلقاء الحجارة بهدف إبعاد أي مخلوق مؤذٍ قد يهدّد بالتهام قدمي البغل. إنها أسوأ ميتة، تنتحب أثوثينا، وهذا كلّه خطأ كومودورو، مرة أخرى ينسي قَسَمه ولا يتخلّى عن رفيق واحد فحسب، بل الفوج بأسره بين فكاك(52) العدو. لم نكن لنقع في هذا المأزق لو

جاء كارالامبيو الشجاع معنا. يجلس البغل على وركَيه وتدور عيناه مستمتعًا بالمياه التي تغطّي ظهره. كم هي المسافة من هنا إلى الشاطئ المكسيكي؟ تسأل أثوثينا. يقف أوبالدو على حافّة العربة ويمدّ ذراعيه. لا أعلم، ثلاثة أو أربعة أمتار. هل تظنّ أننا سنتمكّن من رمي سيريّو إلى هذا البعد؟ أنت تمسك به من ذراعيه وسآخذ برجليه وسنؤرجحه ذهابًا وإيابًا ثلاث مرات قبل أن نتركه. باستخدام كلّ طاقتنا مجتمعة يمكننا إعادته إلى المكسيك، ولكنّه قد يدقُّ رأسه، فيُضرب ضربة عنيفة ويصاب بحالة عقلية. كومودورو يركع على الجانب الآخر، يتوسّل المغفرة على غطرسة الجيش المتنوّر، الذي رفض عبور النهر من خلال جسرٍ بتأشيرةِ وجواز سفر، مثل الآخرين. أين وجهتك؟ سوف يسأل مسؤول الهجرة. في هذه الأنحاء فقط، يا سيدي، لغزو ألامو. يُفتّش في جيبه عن السيدة الطاهرة. يتطلّع حوله عندما لا يجدها. وسرعان ما يدرك أنه فقدها في النهر، وأنها ضحت بنفسها لينفذ بجلده. على المتنوّرين الآن الاعتماد على أنفسهم، لا أحد يبحث عنهم، لن يموت أحد من أجلهم. ينهض بسبب ركبتيه المتألمتَين وينزل إلى أقصى ما تسمح به شجاعته وحيطته من حافّة النهر. أثوثينا، يصرخ، هل تحبينني؟ تدرك أنّ هذا هو الوقت المناسب لها لترتّب به وصيّتها. أقلامي الملوّنة، وبطانيتي، ومصباح اليد هي لك، والباقي أغراض نسائية، أطلب منك ترتيب مراسم في الكاتدرائية، ادع الجميع من المعهد والمعلّمين، وبما أنه لن يكون هناك جسد لي ليدفن، فضع على المذبح الصورة الموجودة على تسريحتي، تلك التي أرتدي فيها الفستان الأخضر، وإذا كنت تستطيع، فضع الفستان الأخضر أيضًا؛ ولكن إذا أرسلت الحكومة غوّاصًا لجمع هياكلنا العظمية، وإذا كان من المستحيل تحديد المرأة من الرجل، تسحب أثوثينا عنق بلوزتها ليظهر كتفها الأيسر، فلاحظ كيف أن ترقوتي هي البارزة، وتجنّب أيّ امرأة إلى أن تقضي مدة عام كامل في الحداد عليّ. أقسِم على ذلك، يصرخُ كومودورو، ويتساءل عن وجود بيان للأرمل قد يرغب أن يخرقه في البلدة القادمة إذا وجد شابة تستحق حُبّه. أوبالدو ينظر إلى مجموعة البنادق الملفوفة، لكنّه يتذكّر أنّ المعلّمة أخبرتهم أنّ أسماك البيرانا

تهاجم بالآلاف. إنّها قضية خاسرة، حتى المدفع الرشاش لن يكون كافيًا للقضاء عليها. يفكّر للحظة ثم يقترح حلًا آخر. رأيت مرة أن النار يمكن أن تستخدم للتخلص من مثل هذا النوع من التهديد: حريق هائل، ويختفي النمل، ويبتعد ثور البيسون(53)، ويستسلم الأقزام، وفي النهاية تسوّي قبّعتك وتتطلع إلى الدمار آمنًا من قمّة تلّ. مع توفّر كمية مناسبة من البنزين، يمكنك أن تشعل النار حتّى في مياه النهر، ولكن لن ينجو الجميع، فهناك دائمًا خائن بدين رديء الحلاقة تلتهمه الوحوش أو اللهب. يمرّر كومورودو يده على خديه ويشعر بتوترهما. وماذا عن المرأة؟ تسأل أثوثينا. المرأة هي ابنة عالمٍ أو طبيب البعثة؛ رعناء، غير مسؤولة، ولكنّها تنضج بسرعة. إنها جميلة دائمًا، وتصرخ دائمًا، وفي النهاية تظلّ سليمة، باستثناء التواء كاحلها. استخدموا الجيلاتين، يصيح كومودورو، هناك بعضٌ منه في حقيبتي المدرسية، سوف يصبح النهر جامدًا ويمكنكم المشي إلى الجانب الآخر. تشتبك أثوثينا من فورها. تفتح العلبة وتُلقي بعض المسحوق خلف العربة. تشاهده يطير في الهواء. الكمّية الصغيرة التي تسقط في المياه تحوّلها فترة وجيزة إلى اللون الأخضر، ثم يتخفّف في الحال ويختفي من المشهد. كومودورو مستاء لأنهم خطّطوا لاستخدام مخاضة الجيلاتين للتراجع.

ميلاغرو، جالس بصمتٍ على عريش العربة، ينظر أمامه؛ يعرف أن وضعه أسوأ من الانقلاب في سيّارة رمادية. حان وقت إعادة سيريّو إلى الأرض التي أنجبته، تقول أثوثينا. يراه أوبالدو متلفلفًا في بطانيّات الصوف. سنربط العلم من حوله كالبُرنس(54)، تقول، وبهذه الطريقة سنُلقيهِ برفق، وسيطير بعيدًا عن حافّة الماء ويهبط ببطء، دون أن يستيقظ. كومودورو يلقي حجرًا آخر بمحض من الدقة التي يصيب بها البغل في فمه؛ ينهض البغل ويبدأ في السير نحو ضفة النهر. ينظر المتنوّرون باستغراب لساقيه، خالية من العضات.

صار الجميع بعد دقائق على متن العربة. وصوت النهر لم يعد مسموعًا. يسافرون على الطريق الذي يشير إلى الشمال. يتطلّعون إلى المناظر الطبيعية

بينما يمضون في صمت؛ لن يتحدثوا أبدًا عن تلك الحادثة التي شعروا فيها بأن الموت قريبٌ للغاية.

*

المكتب مظلم، بفضل بعض الستائر السميكة المغلقة التي تُبقي على شمس الظهيرة خارجًا؛ تزيد الضوضاء وطقطقة الآلات الكاتبة في كلّ مرةٍ يفتح فيها أحدهم الباب، وهو أمر لم يحدث بعض الوقت. يحوي سطح المكتب المعدني نصف كأسٍ من العصير، وطبق ورقي ملطخ بالشحم، ومحرمة مكورة؛ هناك أيضا سيجارة مشتعلة في منفضة سجائر. الجدران معلق عليها قصاصات صحف حول سرقات واغتيالات؛ إحداها تُظهر صورة جثة تنزف ملقاة على وجهها بالأسود والأبيض. يسند المفوّض ألفاريث مرفقيه على المنضدة ويميل إلى الأمام لبث الخوف في كارالامبيو. يقولون لي إنني لا يجب أن أستجوب شخصًا مثلك، أن مختصًا في علم النفس هو الوحيد الذي يجب أن يسألك، وأن اتباع الإجراءات المعتادة معك قد يؤدي إلى مشكلات خطيرة في تطوّرك، ولكن مع ذلك فإنه ذنبك أنّ هناك بعض الأطفال المفقودين، ومسؤوليتي هي العثور عليهم آمنين سالمين، على أنّني الآن لست متأكّدًا من إمكانية ذلك. كارالامبيو لا يعير الكثير من الاهتمام، لأنه منذ بعض الوقت يراقب السيجارة على شفة منفضة السجائر. أخذ المفوّض ألفاريث سحبة واحدة فقط منها بعد إشعالها؛ الآن لها ذيل طويل من الرماد يُنذر بالانفصال في أيّ لحظة. خطاب المفوّض ألفاريث، حول العدالة، والتي ينبغي أن تُعامِل الجميع على قدم المساواة، هو بالكاد مجرّد صدى في المكتب. لن يجديك الاختباء وراء هذا الوجه البريء، افهَم أن زملاءك في الفصل قد يكونون الآن بين يدي منحرف، افهم أنّ أيّ شيء يحدث لهم هو كما لو كنت أنت الذي تفعله بهم، وافهم أكثر من ذلك كلّه أن من بين زملائك في الفصل فتاة صغيرة، وأسوأ الأشياء يمكن أن تحدث لها. يغمض كارالامبيو عينيه بضع ثوان؛ يقول في نفسه إنه عندما يفتحهما فسيكون الرماد قد سقط. يَعدُّ

من واحد إلى عشرة ويفتحهما. يستمرّ الدخان في الارتفاع في خطّ مستقيم بضع سنتيمترات ثم يتلاشى في سحابة. السيجارة الآن نصف رماد. كارالامبيو مأخوذٌ برقم قياسي عالمي. والده يدخن أيضًا وأحياناً ينسى ويضع سيجارته أينما كان، ولكن هبوب أخفّ نسيم يكسر الرماد، أو يشعر كارالامبيو بالاضطراب ويكسره بإصبعه. يفترض أنّ المكتب لا بدّ وأن يكون محكمَ الإغلاق، وعلى أنه يحاول السيطرة على نفاد صبره، في لحظة من الضعف، تدنو يده من منفضة السجائر. اجلس ساكنًا، يأمره المفوّض ألفاريث، اشبك ذراعيك، غير مسموح لك هنا سوى أن تخبرني بمكان زملاء فصلك، ولماذا كان لديك مسدس في حقيبتك المدرسية، وماذا كنت تنوي فعله به. إن كان لديك شخص معيّن في ذهنك أو كنت فقط ستطلق النار عشوائيا لمعرفة من كنت ستصيب، ما الغرض من حقيبة سمّ الفئران. الكثير من الأسئلة، يخطُر لكارالامبيو، ولنقلها بصراحة، دون يد تستريح على كتفه أو ترفع خصلة الشعر التي سقطت على جبهته، دون صوت معلمته التي تعطيه الحرية الكاملة للتعبير عن نفسه؛ أخبرني بماذا تفكّر، يا كارالامبيو، فيخبرها عن رجلٍ جعل نفسه غير مرئي على شاشة التلفزيون ثم شرِبَ الشاي، وكان ممكنًا رؤية الكأس في الجوّ؛ ارسم لي صورة عن المكان الذي يوجد فيه أصدقاؤك، فيرسم ساحة معركة مع انفجارات وجثث متناثرة. تلتقط المعلمة الرسم وتتحدث بصوت خفيض إلى مدير المعهد، انظُر إلى هذه الفظاعة، من الواضح أنّ كارالامبيو يمرّ بأزمة، وربّما ضربته أمّه، ومشهد المعركة يُصوّر العنف الأسري، والانفجارات هي إهانات لفظية، ولا بدّ وأن يكون الرجل الذي يعطي الأوامر هو والده. انظر إلى الصبي في الخندق، هو حتمًا يتخيّل نفسه، مثخنًا ضربًا، مُنتقَصًا من شأنه، مُحاولًا الاختباء من العالم. تبتسم المعلمة وتجرب صوتًا ناعمًا وتقول، تمام، يا كارالامبيو، والآن سأعطيك كلمة واحدة وتقول لي أول ما يخطر على بالك؛ تقول قطّة، ويردّ هو غيتار. ولكنّ المفوّض ألفاريث لا يحاول اللعب بشكل ودّي، رائحته كرائحة البصل ويبتسم مثل الأشرار في الكتب المصوّرة عندما يقول إنّنا نستطيع البقاء هنا طوال اليوم وطوال الليل، ولن ترى

والدتك حتى تجيب عن أسئلتي. لا يطيق كارالامبيو الاحتمال أكثر؛ يشرع بالقفز على الأرضية لتهتزّ؛ يقفز مرتفعا إلى أقصى ما يستطيع ويغلق ساقيه عندما ينزل. بعد عدة محاولات، ينهار الرماد. أجل، يصرخ كارالامبيو، لقد فعلتها، أفضل من كلّ مرة منذ بداية الزمن، ويبدأ بالركض في دوائر مبتهجة إلى أن يشعر بالدوار ويسقط. يحرك ذراعيه وساقيه على الأرض مثل عدّاء، ما يجعله يستمر في الدوران، مستخدمًا وركيه كمحور. يُتمتم أغنية سعيدة ويواصل حتّى عندما يضرب رأسه في الجدران وأقدام الأثاث. يشفط المفوّض ألفاريث سيجارته ويُقرّ بأن هذا الطفل لا يمكن استجوابه بالطريقة المعتادة والسليمة.

*

يترنّح ميلاغرو والعنان في يده، من الصعب عليه إبقاء عينيه على الطريق، ويتساءل إن كانت تلك مسؤوليته أو أنّ البغل هو من يقرّر مسار الرحلة. الجواب يأتيه مع لطمة في ذراعه. استيقظ، يأمره أوبالدو، أنت مثل والدك، تريدنا أن نسقط في الوادي عند الكيلومتر ستة وثلاثين، وفي النهاية نموت جميعًا وتشهد أنت معجزة ثانية، وطالما أنك أثبتت أن انحدارك في الوديان يُخلّفك سليمًا دون خدش ستكسب لقمة عيشك وأنت تُلقى من الشلالات في برميل. تَحوّلَ بطل الأمة إلى لاعب سيرك: يا لَبؤس وطننا المتعاظم! أنا بحاجة إلى شخص ليتولّى الزمام، يقول ميلاغرو، سيريّو ليس الوحيد الذي يجب أن ينام. يأخذ أوبالدو العنان بعصبية، متخيّلًا أنواع المخاطر كافّة، كبغلٍ جامح يثير الكثير من الغبار فيغدو من المستحيل ملاحقة الطريق؛ أن تبدأ العجلات في التصدّع، ممّا يجعل انفصالها وشيكًا؛ حشدٌ من الأجساد الملقاة على الطريق؛ وصول البغل وحده إلى ألامو وميلاغرو التعيس يرفع قبضته ويصرخ أنا معجزة. لكن هذه ليست أكثر المخاطر التي تقلقه. يستدير ويدعو كومودورو. أرى أنه ينبغي أن يكون هناك من يتقدّم الطريق، ومن ثم يكتشف المخاطر التي تهدّد الفوج سلفاً؛ فإن كان هناك كمين، يطلقون النار عليه وحده، ويُعلِمُنا إذا كان هناك جسر تالف

قبل فوات الأوان على التوقّف، وفوق كلّ شيء، هو أول من يسقط في الرمال المتحرّكة. كومودورو على وشك الرفض. فعلى أنه يثق في جزمته، إلّا أنّه لا يعدُّها استثنائية إلى الحدّ الذي سيحافظ على قدمَيه سليمتَين إن داس على لغم. ولكنّه يلاحظ أن أثوثينا تتابع المحادثة وهي تنظر إليه بعينين حالمتين. يلتقط بندقية ويجلس على الحافّة الخلفية للعربة. واحد، اثنان، ثلاثة... يعُدّ ويقوّس ظهره حتى يتمكّن من القفز عن العربة. يتعثر بينما ينزل على الأرض، لكنّه ينجح في إبقاء نفسه منتصبًا. ومن فوره يهرول بخطواته المصرصرة حتى يكون في المقدّمة. أسرِع، تخبره أثوثينا عندما ترى البغل على وشك اللحاق به. يُسرع كومودورو لبضع ثوان، إنما بضع ثوان فقط لأن الإرهاق يستولي عليه والحيوان يأخذ بأعقابه مجدّدًا. تنحّ عن الطريق، يصرخ به أوبالدو، غير قادر على الفرلمة. هذه البندقية ثقيلة، يتعذّر كومودورو. منتهزًا مدى قربه من كومودورو، يُسديه أوبالدو نصيحة: إذا سقطت في رمال متحركة، فابق ساكنًا، لا تحاول القفز للخروج لأنك سوف تغرق أعمق؛ انتظِرنا إلى أن نُلقي لك حبلًا. حتى إذا غاصت رأسك، فارفع يديك، لا تفقد الأمل. يحاول كومودورو مرة أخرى تجاوز البغل. وهو مستاءٌ من الأحذية المطاطية التي لا تزيد من سرعته ولا تجعله بعيد المنال. لا بدّ وأنها ميتةٌ فظيعة، تقول أثوثينا همسًا حتّى لا يتمكّن سوى أوبالدو من سماعها؛ لم يستخدم الدرابزين قطّ في المعهد لأن يديه لا تحملان وزنه. مهما بلغ ما نرميه إليه من الحبال، كومودورو سوف يغرق. في اللحظة التي يبتلعه فيها الرمل، علينا إطلاق النار عليه، وهكذا ننقذه من الظلام واليأس، طالما أن الطبيعة ستنقذنا من توفير قبر. بعد مضي خمس دقائق، خلّفت العربة كومودورو يائسًا وراءها، وهي تبتعد ثانية إثر أخرى؛ يشعر بأنه يغيب عن وعيه بينما يتوسّل أن يتنبّه أحدهم لغيابه، أن يوقف أيهم البغل، أو حبًّا في الله، أن يتذكّر أحدٌ العهد الذي أخذوه على بيان الجندية.

*

يفتح كومودورو البدين عينيه عندما يسمع وقع أقدام قريبة؛ يشعرُ أن حلقه جافّ، وأنفاسه تحرق صدره. لقد تعدّى اللحظة التي كان قلبه فيها على وشك التوقّف. أنا لست ميتًا بعد، أيها الرفاق، ولكني على وشك. والبندقية؟ أوبالدو يسأل. اضطررت لإلقائها هناك، لا أدري على أي مبعدة. يذهب ميلاغرو في طلبها بينما تصب أثوثينا الماء على جبهة كومودورو. إنه مستلقٍ على ظهره في منتصف الطريق، ذراعاه ممدودتان ووجهه محتقن، وخاصةً خديه. سوف أعدُّ إلى العشرة، يقول له أوبالدو، إذا لم تقم، سنغادر من دونك. يتدحرج كومودورو لأنه يجب أن يستند على يديه وركبتيه قبل أن يتمكن من الوقوف. عندما يستريح على يديه وركبتيه، يحافظ على هذا الوضع بينما يتنفس ويجمع قوته. ومع ذلك، فعضلاته كأنها الجيلو، غير قادرة على إتمام المهمة. من فضلك، يا أثوثينا، اطلبي من أوبالدو العدَّ ببطء.

*

على مبعدة يتبيّنون رجلًا يتقدم صوبهم. ماذا سنفعل؟ يسأل ميلاغرو. يقيّم أوبالدو الموقف ويضع خطة. لا توقفوا العربة، واصلوا المسير كأن شيئًا لم يكن، تمتموا لحنًا، أو اقرؤوا بعض المجلات، فلربما نمُرّ دون أن نُلاحظ، مثل السيّاح؛ الهدف هو عدم لفت الانتباه إلينا أو سفك الدماء حتى نصل إلى ألامو، ولكن إذا صار الرجل عدوانيًا، فيمكننا الانقضاض عليه وخنقه بتكتّم. سيريّو يريد الذهاب إلى الحمام. تقول أثوثينا. أخبريه أن يحبسها، يأمُرُ ميلاغرو. المسافة بينهم تتقلّص شيئًا فشيئًا؛ يبدأ كومودورو بالتعرّق لأنه يعرف أنه سيكون الشخص الذي يجب عليه الانقضاض على الرجل. إنه يحمل شيئًا ما على ذراعه، يشحذ أوبالدو بصره، ربما مسدس. ميلاغرو يشعر بإغراء أن ينتر الزمام، ويقود البغل لتغيير المسار؛ لا يريد أن يلتقي بالرجل لأنه يؤمن الآن بأنه يجب أن يكون جنديًا متقدّمًا أكثر، جنديًا قادرًا على فعل ما لم يكن كومودورو قادرًا عليه، وخلفه هناك ثلاثة أفواج من المشاة على أهبة الاستعداد. سيريّو لا يستطيع أن حبسها أكثر

من ذلك، تُصرُّ أثوثينا. قولي له أن يتبول عند الحافة، لأننا لن نتوقّف. لحسن الحظّ، فإن الطريق مسطحة وسيريّو قادر على الحفاظ على توازنه بينما يقف إلى أقصى اليمين ويخفض سرواله الأبيض. كومودورو يشدُّ قبضته ويجزُّ بأسنانه استعدادًا للّقاء الوشيك مع الرجل. يقلّبُ أوبالدو في حقيبته المدرسية إلى أن يعثر على نازع السدادات؛ أنت تطبق على عنقه وسألوي هذه في رأسه. تأتي اللحظة التي تتقاطع بها مساراتهم. الرجل يدنو من الملاك الصغير المتبول بهيئته التي تشبه منحوتات كنيسة سان سيباستيان، يُلقي مجرفته جانبًا ويجثو على ركبتيه محنيّ الرأس. هل علينا قتله؟ يسأل كومودورو. تتجاوزه العربة، ويتقطّع سيل سيريّو، والرجل ما زال في وضعه الخاشع. دعه يعيش، يقول أوبالدو، يبدو أنه رجلٌ مسالم.

*

يعمل آريتشاڤاليتا اليوم لصالح شركة نسيج، حيث يُسمي نفسه رئيس العمليات ويتحدّث بارتياح عن توليه مسؤولية أكثر من ثلاثمئة موظف، ويقول إنه في العام الماضي كان مسؤولًا عن تنفيذ آلية جديدة للحياكة؛ متزوج من امرأة يُطلق عليها حياتي وقد منحته ثلاثة أطفال، لا أحد من بينهم يدرس في المعهد الفرانكومكسيكي. المشكلة هي أنهم لا يُعلّمون اللغة الإنجليزية، يوضّح، وفي هذه الأيام الإنجليزية أكثر أهمية من الإسبانية، إنها لغة العمل، يلفظ العبارة بتمام الرضا الذاتي لرجل حكيم، تمامًا كما اعتاد نطق التفاهات في الفصل. يقول إنه يتذكر ماتوس بشكل مبهم ويدّعي أنه ليس لديه أي فكرة عن سبب توقفه عن التدريس. يرى كأسه فارغًا ويضغط على زر ليطلب من سكرتيرته أن تجلب له القهوة. أين كنا؟ يسأل، وبعد أن يظل صامتًا إلى أن تأتي السكرتيرة وتقوم بخدمته، يجيب على سؤاله. آه، نعم، ماتوس، كان رجلًا طيبًا.

على أنه شاخ قبل الأوان، إلا أن رئيس العمليات ما زال يحتفظ بشبه ملحوظ مع الطفل في الكتاب السنوي. وكما هو الحال حينئذٍ، ستودّ تحطيم وجهه.

*

يوقف ميلاغرو العربة على مسار محاطٍ بنبات المسكيت(55) ويُصفّرُ لأصحابه الغافين في مؤخرة العربة. هناك بيت كبير عتيق من طابقين بجدران متداعية في نهاية الطريق. يبرزُ المتنوّرون من سباتهم وترتفع رؤوسهم. المبنى متجانس، وله باب مزدوج في المنتصف، وشرفةٌ فوق الباب، وزوج من النوافذ المتقشّرة على كلّ جانب، اثنتان في الأعلى واثنتان في الأسفل. على السطح، فوق الشرفة، هناك صليب خرساني قهرته السنون. يدرس كومودورو البيت ويُقسم إنه يستطيع سماع أصوات جوقة من المهلّلين تهبط من السماء. حصن ألامو، يقول، لقد وصلنا. وماذا كنت تتوقّع؟ يسأل ميلاغرو، أنا من كنت أقود العربة. ينظر سيريّو حوله، ويرى أنّ الوقت مبكّر للاستيقاظ ويتضامّ مجدّدًا. ماذا سنفعل الآن؟ تسأل أثوثينا. يهزّ ميلاغرو كتفَيه. يقف أوبالدو على مقعد السائق ويخاطب الآخرين. لقد رأيت هذا عدّة مرات. يجب أن نرسل اثنين من المتطوّعين لإحاطة ألامو في جانبين متقابلين، ولا يمكنهم حمل أسلحة نارية، فقط السكاكين. عليكم أن تهجموا على الحرّاس من الخلف وتضربوهم بحوافّ أيديكم على الكتف حتّى يسقطوا مغمى عليهم، أو في الحالات القصوى، تغطّون أفواههم وتسحبونهم إلى الظلّ لطعنهم حتى الموت. وبمجرد تطهير الخارج، يمكننا الانقضاض على الباب وإطلاق النار يمينًا وشمالًا. من سيأتي معي؟ يسأل أوبالدو، ويتردّد كومودورو إذ يتخيّل حارسًا ضخمًا بأكتافٍ بعيدةٍ عن متناول يديه. يرفع ميلاغرو يده وتُقبّله أثوثينا على خده. البقية خذوا بنادقكم، يقول أوبالدو، ولا تباشروا العمل إلا في حالة حدوث خطأ ما. أثوثينا تُسلّم بندقية إلى سيريّو، فيعانقها كما لو كانت دبًّا محشوًّا؛ تأخذ إصبعه السبّابة وتضعها على الزناد. ينفخ كومودورو صدره ويسدّد على الباب. يراقب المحاربَين الجسورين وهما ينطلقان. سيكون عليه إطلاق النار إذا لم يجر شيء ما على نحو سليم، ولكن لو كان هذا الشيء هو الموت الصامت لرفيقَيه خلف ألامو، فإنّ إطلاق النار سوف يأتي متأخّرًا ويخطئ الهدف. يعلم أنّ عليه مواصلة النظر إلى الأمام،

فواجبه هو توفير غطاء لأصحابه، ومع ذلك يهاجمه خيال رجل خلفه، شاهرًا خنجرًا. النجدة أيّتها السيدة الطاهرة، أغثني، يا إله الحروب العادلة.

أوبالدو هو أول من يدور حول المبنى ويومئ إلى كومودورو وأثوثينا للانضمام إليه. يجتمع الثلاثة ويوافقون في همس أن الخطوة التالية ينبغي أن تكون الهجوم على ألامو. داهمت ميلاغرو طوارئ في الخلف، يوضّح أوبالدو؛ سينضم إلينا من فوره. الخطة الآن هي الانتفاع بوزن كومودورو البدين. سيصطدم بالباب وما إن يفتحه، حتى تدخل بقية المجموعة وتطلق النار على كل من يتحرّك. تذكّروا ألا تقول أشياء مثل ارفعوا أيديكم أو ألقوا بأسلحتكم، فنحن لا نستخدم تلك الإجراءات البوليسية في الحرب.

ينتظرون ظهور ميلاغرو؛ ثم يأخذ كومودورو نفسًا عميقًا ويخِبُّ دون أناقة صوب الباب؛ ناشرًا ساقيه على نطاق واسع لمنع فخذيه من الاحتكاك. كل خطوة بِأنَّةٍ من جُهد الجري. إحدى عشرة وثبة ثم يرتطم بالباب دون أن يزجّ بيديه، معدته وصدره أولًا. ينسحق الهواء خارجًا منه، ويطلق كومودورو أنّة مخنثة، وفقًا لأوبالدو، فقد ارتد عائدًا وهبط على عجيزته.

سرعتي ووزني كانا مناسبين لتحطيم الباب، قال عندما عاد إلى رفاقه، المشكلة كانت في دفع الهواء. لهذا أريد إعادة التجربة، ولكن مع صخرة. يتطلّع إلى الأرض ليكتشف كتلة مفلطحة من الحجارة. يرفعها الى مستوى صدره ويدفع بنفسه مرة أخرى باتجاه العقبة؛ ومع ذلك، فالحمل ثقيل أكثر ممّا ينبغي على ذراعيه، لذا فهو حينما يصطدم بالباب يكون حاملًا الصخرة على مستوى الفخذ. الضربة قاسية هذه المرة، كضربة مِزَبَّة(56)، وكومودورو لا يرتدّ إلى الوراء بل يَعلق على الخشب. يمكنك سماع اندكاك خفيف وتبدأ مفصّلات الباب بالتصدّع. ينقلب الباب مفتوحًا وينطرح كومودورو والصخرة على الأرض.

قاتلوا ببسالة، يا رجال، يصرخ ميلاغرو وهو يدخل، ثمانية ضرب أحد عشر، اثنان وأربعون. يتبعه أوبالدو. أحدهما يتّجه إلى اليمين والآخر إلى اليسار.

أثوثينا لا تزال في المدخل، وهي تراقب السُلّم، كأنها صاحبة ماخور مستعدّة لإطلاق النار على كلّ من يحاول المغادرة دون أن يدفع. بعد بضع ثوانٍ من الاستطلاع والتفتيش، يقبلون واقع أنّ الطابق الأرضي فارغ، باستثناء الغبار، والزجاج المكسور، وبعض الحشيش، أو أعشاب أخرى تنمو في زاوية، وسرير خشبي دون فراش. يتوجّهون إلى الطابق العلوي، يتحقّقون من غرف النوم الثلاث هناك، ثم يعودون إلى الطابق الأرضي. التقرير هو نفسه: ما من أثر للعدو. أثوثينا تنظر خلسة بين ألواح السرير للتأكّد من عدم اختباء أي غرينجو جبان هناك.

في الوقت الذي ينتهون به من فحص الفناء، والمطبخ، والمخزن، لا يزال كومودورو مستلقيًا على الأرض، باكيًا من الألم، ويداه مشغولتان بحَقْوِه(57).

*

يقولون في المعهد أنّ كارالامبيو لم يعد الشخص نفسه. لا يريد الرسم، لا يغني. يؤكّدون له بأنه قد تمّ العفو عنه، وأنّ مسألة المسدس قد نُسيت. كنتَ مسؤولًا عن فرارهم، لا عن ضياعهم. يتوسّلونه أن يتذكّر إلى أين كانوا يركضون، شرقًا أم غربًا. لا يجيب، لا يتحدّث مع أحد؛ يقضي صباحاته ورأسه عالق انطلاقا من السور، ينظر إلى الخارج، ولا يبتسم إلا عندما يرى شخصًا سمينًا يمرّ.

*

أمضى سيريّو في الحراسة ساعات متمدّدًا على الشرفة. وعلى الجدار المجاور له يرسم أوبالدو مستطيلًا هائلًا بقلم تلوين أسود. السيدة الطاهرة، يقول كومودورو مشيرًا بإصبعه وهو يقفز بضع مرات. أوبالدو يهزّ رأسه ويُقسّم المستطيل إلى ثلاثة نطاقات عمودية، بحجم متساوٍ تقريبًا. العلم، تقول أثوثينا، ويتلقّى كجائزةٍ قلمًا أحمر وآخر أخضر لتلوين النطاقات في الجانبين الأيسر والأيمن. كلّ ما ينقصه هو الدرع الوطني في المنتصف، يقول كومودورو البدين

لإظهار جدواه فقط. يلتقط أوبالدو عدّة ألوان ويضيف، في الأسفل، نصف دائرة من أوراق الشجر، وفي الأعلى، شكلًا شبه بيضاوي كتحديدٍ لشجيرة الصبّار. ميلاغرو يصفّق؛ هي واحدة من الأنشطة القليلة التي يبرع فيها بسبب ارتعاش ذراعيه. يقف أوبالدو ويظلّ ساكنًا بلا حراك، متأمّلًا جمهوره في صمت. علينا أن ندع الفنّان وحده تمامًا، تقول أثوثينا، ويتحرّك الثلاثة إلى الطابق السفلي. يذهبون إلى الفناء الخلفي، الذي يحيط به جدار من اللبن نفسه الذي صنع منه المنزل؛ على طول سطح الجدار هناك كِسَرٌ من زجاجات الجعة والمشروبات المثبتة في الأسمنت. حصن منيعة، يقول كومودورو لأنّه لطالما كان يريد استعمال هذه الكلمة. هناك حمّام سباحةٍ في وسط الفناء؛ يودّ الثلاثة لو أنّه كان مملوءًا بالماء حتّى يتمكّنوا من القفز فيه والمرح. البغل يستريح تحت غطاء صفيحة. كانوا قرّروا إيقافه والعربة عنده بالداخل، مستفيدين من عرض الباب الأمامي؛ وبما أنه لا أحد يعرف كيف ينزع أحزمة السرج، يبقى الحيوان عبدًا لأثقاله.

بعد نصف ساعة، يناديهم أوبالدو. يُسرعون إلى الطابق العلوي، متزاحمين ومتدافعين، كلٌّ منهم يريد أن يكون أول من يرى اللواء المستكمل؛ دون شكّ، كومودورو هو آخر من يصعد. هناك، حيث يفترض أن يوجد نسر يلتهم ثعبانًا، توجد دجاجة ترتدي تاجًا، وتأكل دودة. إنّها شارة كتيبتنا، يقول أوبالدو، وسأشرع في شرحها قبل أن يبدأ الخبراء بغباواتهم. نحن فراخ الدجاج، ولست بحاجة إلى أن أوضّح من هم الديدان. ولماذا التاج؟ قد تودّون السؤال. لماذا، عوضًا عن قلنسوة جندي أو خوذة أو قبّعة، أو ثلاثية الزوايا(58)، أو نوع آخر من أغطية الرأس، هل يرتدي الدجاج تاجًا؟ يومئ الثلاثة بنعم على أن أيًا منهم لم يطرح هذا السؤال على نفسه. أنا لا أريد أن أبثّ فيكم الغرور، يتابع أوبالدو، لكنّ اللحظة قد حانت لكي تعرفوا الحقيقة. غزو تكساس لا يعني أن أراضيها كلها، وأهلها، ونباتاتها، وحيواناتها سوف تصبح جزءًا من المكسيك بشكل آليّ، لا، يا سيدي، فحملتنا مستقلّة لا تعرف الحكومة المكسيكية عنها أيّ شيء حتى

الآن؛ هذا هو السبب وراء التاج، لأننا الآن نملك حصن ألامو، وعليه، مُلّاك ولاية تكساس؛ في هذه اللحظة، نحن لسنا على أراضٍ مكسيكية ولا أميركية، بل على قطعة أرضٍ مستقلّة تمامًا. ونحن، بوصفنا نبلاء وأرباب هذه الأرض، نمتلك السلطة الكاملة للتفاوض على ضمّها للمكسيك أو الاستسلام لإغراء الاحتفاظ بها لأنفسنا، وفرض نظام حكمنا الخاص وطرد الأقليات غير المرغوب فيها. حتمًا سنقوم بالتفاوض، تقول أثوثينا. أوبالدو يُصدِر ريحًا، ومخذولًا، يوافق. بالتأكيد، سنتفاوض، فقط لا يمكنكِ الوصول إلى رئيس جمهورية المكسيك والقول له إنني أثوثينا وأريد أن أقدّم لكم قطعة أرض صغيرة شمال ريو غراندي؛ يلزمك لقبٌ يهبك العظمة، ويفتح أبواب القصر الجمهوري على مصراعيها، ويتيح لك الجلوس في كرسي من الجلد في المكتب الرئاسي ويسمح لك بالاختيار بين القهوة أو الشاي، لذلك قرّري من تريدين أن تكوني، ما اللقب الذي تريدين. تتقدّم أثوثينا صوب أوبالدو للحديث دون الشعور بنفسها جزءًا من الجمهور. أريد أن أكون البارونة بيندرغراس(59)، وأختار الشاي، مع مكعّبين من السكر. لا أعرف ما القصة التي التقطتِ منها هذا الاسم، وحتى لو كانت تحفة فنّية، دعيني أنبّهك بأنّ الأسماء باللغة الإسبانية مرغوبة أكثر. أنتَ على حق، تقول، ودون كثيرٍ من التفكير تأتي ببديل: البارونة غونزاليز. أفضل بكثير، وهكذا لا يختلط الأمر علينا بينك وبين امرأة من الغرينجو، وينتهي بنا المطاف إلى رميك بالرصاص في يومٍ من الأيام. بالنسبة لي، يقول كومودورو، لكن أوبالدو يقاطعه، دعنا نلتزم بالدور. وعلى أنّ كومودورو لا يفهم ما هو الدور، يظلّ صامتًا بينما يقول ميلاغرو إنّه لا يستطيع تخيّل أيّ لقبٍ أكثر نبلًا من اللقب الذي يملكه؛ سيدي الرئيس، أنا ميلاغرو، أنا معجزة، وأنا هنا لأعرض عليك صفقة، وأنا أفضّل بعض العصير، شكرا لك، لأنّني لا أحبّ الشاي، والقهوة تزيد من رعشتي وتجعلني أكثر انزعاجًا. هناك احتمال، ينظر أوبالدو بعيدًا في المدى، أن يقول الرئيس لا شكرًا، لا أريد المزيد من المكسيك لأحكمها، لذا تبقى تكساس بحوزتنا إلى الأبد، أو على الأقلّ إلى حين انطلاق ثورة شعبية تطالب بانتخابات ديمقراطية. الآن حان

دور كومودورو، وبخُيلاء تلوي شفاهه وترفع حاجبيه، يلفظُ لقب السيد الشابّ الكونديستابلي(60). أنت تبدو كخصيان القصر بهذا اللقب، تقول أثوثينا، لكن كومودورو ليس في مزاجٍ للمزاح، فهو يشعر بالفخر بلقبه؛ يأخذ العلم ويضعه حول عنقه. يذهب إلى الشرفة، ويشرع أبوابها كي لا يدعس على سيريّو، ويتلقى النسيم العليل الذي يمسح العرق عن شفته العليا. ويتخيّل نفسه متزيّنًا بدرعٍ خضراء وطماق أحمر، مزهوًا بشعار النسر الوطني، لا الدجاجة، على جانبي صدره. كومودورو البدين، حاضر؛ السيد الشابّ الكونديستابلي، حاضر؛ كابتن مكسيكو، سيد أهل تكساس جميعًا، حاضر؛ سيد ألامو، مالك عذارى البارونات، حبة الفاصوليا التي لا تقهر، حاضر، حاضر دومًا لله والوطن. يهشُّ بسعادة، موقنًا أن لا مكسيكي وصل إلى مثل هذا السمو، وأنه لن يسمح، يا سيدي، لحفنة من الغرينجو بإسقاطه من عرشه.

*

الحرب على وشك أن تندلع، يهمس ميلاغرو ويشير بإصبعه المرتعش إلى ما يتخطى الشرفة. يخرج أوبالدو وأثوثينا فيتمكنان من ملاحظة رجلين يميلان على شجرة في نهاية الطريق، مستمتعين بتفيُّؤ الظلّ الذي توفّره. أحدهم يرتدي قبعة والآخر يرتدي وشاحًا بألوان زاهية حول رقبته. يتشاركان قنينة يأخذان منها جرعات صغيرة. إنهما من الغرينجو، يقول أوبالدو، علينا التخلّص منهما. يسارع كومودورو إلى الطابق السفلي لجلب المنظار. إنهما سمينان، ذوا بشرة داكنة، وشاربَين دقيقَين، تقول أثوثينا، يبدون مكسيكيين بالنسبة لي. أنت لا تعرفين الوجوه التي يتلبّسها الشيطان، والفخاخ التي قد ينصبها العدو لنا؛ انظروا إليهما، إنهما يشربان، من الواضح أنهما يحاولان غوايتنا بالكحول، لن نقع في شركهما كما الأيرلنديين السُذَّج. عندما يتراجع كومودورو ويقترب من الشرفة، يُمسك أوبالدو المنظار؛ أعطني هذا، يقول، إنه أداة تجسّس، يمكن استخدامه لقراءة شفاه العدوّ، وليس هناك شخص أفضل لهذه الوظيفة من

المرأة. لم أفعل ذلك قطّ، أثوثينا تحتجّ، ويطلب أوبالدو منها ألّا تنزعج، إنه شيء تتعلمينه من فورك، فقراءة الشفاه أسهل من قراءة الحروف. لاحظي فمي وألقِ نظرة فاحصة على مواضع شفتيّ وأسناني ولساني، وانتبهي إلى حركة وجنتيّ وذقني عندما أتحدّث. تنظر أثوثينا إليه، يتلو أوبالدو حروف الأبجدية بصمت، وهي مسرورة بأنها تمكّنت من معرفة كلّ الحروف، حتى الدقيقة منها، التي تتّسع معها المناخر. لا شكّ بأن لدي مواهب كامنة. الحرب تُبرز أفضل وأسوأ ما بداخل كل إنسان، يقول أوبالدو بتبحُّر، لنر ما إن كانت ستُبرز صديدًا أو كهرمانًا في حالتنا. تتمدّد أثوثينا على الأرض مستلقية على صدرها. تتجسّس على الرجلين. تذكري أن حرف h صامت، يقول كومودورو. تراقب حوارهما بضع ثوان وتهزّ رأسها. لا أستطيع، تقول؛ بدا الأمر سهلًا ولكن لا يمكنني التعرف على جملة واحدة بدقة. الرجُل على اليسار قال abangorte؛ وأجاب الآخر simolende argusón simensal. أحسنتِ، يقول أوبالدو، أنت تقرئينهم جيدًا، ولكنهم يتحدّثون لغة مختلفة هنا. هل نحتاج إلى أي دليل إضافي لفتح النار؟ أحد الرجلين يطلق ضحكة يتردّد صداها في كلّ الأرجاء. ليس هناك أي ذرة من شكّ، يقول أوبالدو، إنّ من يضحك بهذا الشكل لا يظنّ بأنه يملك تكساس فحسب، بل ويخطط أيضًا للسيطرة على العالم بأسره. سأُطلق النار، يرفع كومودورو يده اليمنى وسبّابته تشير إلى السماء، وأنا متأكّد من ضرب الهدف. طيب، يسلمه أوبالدو بندقيته بلفتة مهيبة، في سبيل المملكة، والسُلطة، والمجد هي لك. قبل التعجيل بإطلاق النار، يقبّل كومودورو العلم. سيداتي وسادتي، دعوا الحفل يبدأ. يُسند الماسورة على إطار النافذة الأيسر ويجثو على ركبته؛ سرعان ما يضع رأس أحد الرجلين في مرماه. صوّب إلى الصدر، يقترح ميلاغرو، ويوضح كومودورو أن نيته شيء آخر. أريد أن أضع الرصاصة في فتحة أذنه. لا أعرف إن كان ذلك قانونًا أو اتفاقًا أو محض نبل، يقول أوبالدو، لكنّني لم أر أحدًا في الحرب قط يصوّب إلى الرأس، فالرصاصات تدخل الجسم عندما يراد لها أن تكون قاتلة، والساقان والذراعان عندما تكون النية فقط لجرحهم. الألمان يموتون

وهم يجأرون ويتقلّبون في كلّ مكان؛ والغرينجو، إذا كانوا حقًّا يموتون، فيفعلون ذلك بكرامة وصمت؛ وأنا لا أعرف الكثير عن اليابانيين لأنهم دائمًا يطيرون في الطائرات. كومودورو لا يغيّر خططه، إنه يريد قتله جيدًا وبطريقة نظيفة، حتى يكون كلّ ما سترونه خط رفيع من الدم يخرج من أذنه؛ لا أريد أن يعرف الرجل الآخر، فليستمر في شربه بسرور وليظن بأن ما سمعه هو صوت الرعد لمطر غير موجود، ما سيعطيني الوقت اللازم لإعادة التسديد وإطلاق النار ثانية. رصاصتان، قتيلان. أثوثينا، تعالي وامسحي العرق من حاجبي، أثوثينا، تمنّي لي الخير، أثوثينا، صلّي من أجل تلك الأرواح التي ستفنى. يدير رأس أصبعه على الزناد، يعدّ من واحد إلى ثلاثة ويطلق النار على زجاجة براندي جديدة، أخت تلك التي أحرقت سيريّو بقاذف اللهب. الدوي يفزع الطيور في شجيرات المسكيت ويذرُ كومودورو مع صوت صفير في أذنه كجهاز راديو سيِّئ التوجيه. ينبعث دخان رمادي رفيع من فوهة البندقية. الرجل الذي يحمل الوشاح هامدٌ على الأرض، وزجاجته تسكب محتوياتها على مهل.

*

لا يطلق كومودورو البدين النار مرة أخرى؛ إنه ينتظر التهنئة من رفاقه، التربيت على كتفه، قبلة أثوثينا. كان قد أخطأ الزجاجة في عدة محاولات، ولكن عندما يسدد على الإنسان، فإنه يرسل الرصاصة إلى حيث يريد. ومع ذلك، فهو لا يفرح؛ لا يَسعَدُ الجندي بقتل العدو، إنه فقط يتبع الأوامر. أفترضُ أنّ لديه عائلة، يقول ميلاغرو، ثلاثة أطفال قبيحين داكنين اعتادوا على قول أشياء لطيفة له قبل الذهاب إلى الفراش. يستدير كومودورو منزعجًا ويقدم له البندقية. أطلق أنت النار على الآخر، وعندما يسقط ميتًا سأتحدّث إليك عن زوجته الجميلة التي ستخبره غدًا بحملها. يتمكّن أوبالدو بالمنظار أن يرى الرجل الذي كان يرتدي القبّعة يُلقى بنفسه على الأرض، ثم يختبئ خلف شجرة، ويذهب أخيرًا ليهزّ صديقه الميت. ترتجف البندقية في يد ميلاغرو مثل مدفع رشاش ينطلقُ بطاقته

كلها. وماذا لو أخطأت؟ إذا أخطأتَ فسنكون في ورطة، إذا أخطأتَ فعليكم أن تقلّدوني وسام أفضل رامٍ، إذا أخطأت لن يولد الجنين يتيمًا. يسحبُ ميلاغرو الزناد خمس مرات. يضبط الرجل قبّعته ويبدأ بالركض حتّى يختفي بعيدًا. يضع كومودورو يديه على خصره ويهزّ قدمَيه. بطلقاتك الخمس كنت سأصيبه في إحدى ساقيه، ثم في الأخرى، وأخيرًا ثلاث رصاصات في عنقه. يواصل أوبالدو النظر انطلاقا من المنظار. الآن يمكننا الشروع في النهب، يقول، من يريد التطوّع؟ يجب علينا احترام الآثار الشخصية، لكن يمكننا أخذ أيّ أسلحة نارية أو ذخيرة أو قطعة من المعدّات الحربية، المال، الأحزمة، الأحذية، أجهزة الإرسال، والخرائط. علينا أن نميّز بين اليوميّات الشخصية والسجلّات العسكرية، وأن نترك صور أطفاله الثلاثة ذوي البشرة الداكنة في محفظته. من المستحسن أخذ كلّ شيء، يقول ميلاغرو، فمن المستحيل التمييز بين الشخصي والرسمي، رسالة صديقته قد تكون رسالة مشفّرة من مسؤول؛ عزيزي جون قد تعني اقضِ على كلّ المكسيكيين، ومن يدري أيّ نوع من الخطط الخبيثة مخبأةٌ في جملة مثل لم أكتب إليك لأنني كنت مشغولةً للغاية. أنا الذي قتلته، يقول كومودورو، وأنا الذي أقوم بسلخه. هل أستطيع الذهاب معك؟ تُداعب أثوثينا وجهه الأسفنجي الشاحب. يومئ أن نعم، وفي طريقه إلى الدرج يمسك بسكين. في بعض الأحيان ترفض الأصابع التخلّي عن الخواتم، يشرح. وعلى أنّه ثملٌ برجولته، لكنّه لا يمتلك الشجاعة لنزع قميصه أو أخذ السكين بين أسنانه.

يضربه النسيم بقوة في الخارج، وتصير سعادة كومودورو لا حدود لها عندما يرتفع العلم مثل طائرة ورقية خلفه. إذا كان تمثالي مصنوعًا من البرونز، فأريده أن يُظهر العباءة المرفرفة على هيئة صفيحة معدنية؛ وإذا كان مصنوعًا من الرخام، فأفضّل ألا يكون هناك عباءة، لأن أيّ مخرّب يمكنه كسرها بضربة حجر. بينما هما في منتصف الطريق إلى الجثّة، تشير أثوثينا إليه بالتوقّف. إنهما يسمعان النشيج المخنوق لبالغ، صوت واهن يستجدي الماء. لا أستطيع نهبه هكذا، يقول كومودورو، من الأفضل أن ننتظر، سيكون باردًا في الصباح حتمًا.

كلا، تقول أثوثينا، أنا أتذكّر النقطة الثانية من بيان الجندية التي تتعلّق بمعاملة السجناء بكرامة، وضرورة تقديم المساعدة الطبية للجرحى ووضع علامة الصليب على الموتى. الرجل يستجدي الماء، علينا أن نعطيه بعضه ففي مثل وضعه لا يمكنه أن يؤذينا؛ وفي الوقت نفسه، هو سجين ورجل مصاب. دون الاقتراب أكثر، يقف كومودورو على أطراف أصابعه ويمدّ عنقه لرؤية الرجل الجريح بشكل أفضل، لا يمكنه تحديد مكان دخول الرصاصة، على أنه يفترض أنه لم يكن انطلاقا من الأذن. لا أستطيع أن أصدق أن الغرينجو بهذا الغباء أو الجبن أو هذا القدر من الخيانة، أتصوّر أن رفيقه ذهب لجلب طبيب، وأفضل شيء هو ترك الجريح هنا لأننا لا نملك سوى الضمادات. لا يمكنك حرمان أحدٍ من شربة ماء، تردّ أثوثينا، لذا إمّا أن تأخذ شيئًا من الماء إليه أو سأفعل أنا.

عاد كلاهما إلى متراسه، محبطًا لأنه لم يكن لديه أي فرصة في النهب.

ما الذي يحدث؟ يستقبلهم أوبالدو عند الباب. إنه جريح، تجيب أثوثينا، وتَوَسَّلَنا الماء. يسألهم ميلاغرو من فوق الدرج إن كان التصرّف الطبيعي هو طعنه بالحربة إلى أن يخرس كليًا، وتجيب أثوثينا بتذكيره ببيان الجندية. أنا لا أفهم، يقول ميلاغرو، من الجيد أن نقتله عندما يكون بصحة جيدة، ولكن من الخطأ أن نقتله عندما يكون جريحًا؟ يشرح أوبالدو أن إعطاءه الماء ليس مثل منحه مساعدة طبية، وعليك تحديد ما يفهمه كلّ شخص على أنه معاملة تليق بالأسرى. إذا ربطوا معصميّ وكاحليّ وأهانوني وضربوني قليلًا، أواصل الشعور بأنني ما زال لديّ بعض الكرامة، يقول كومودورو، كل ما أطلبه هو ألّا يستخدموني للتجارب المخبرية. لحظة من فضلك، يتدخل أوبالدو، كيف تعرف أن الكلب البائس كان يستجدي الماء؟ لأنه ظلّ يكرّر هذه الكلمة. إذن فعلينا التحقّق من القاموس، تذكّروا أنه يتحدّث بلهجة غير معروفة. يتناول حقيبته المدرسية ويستخرج قاموسًا مدرسيًا صغيرًا ثنائي اللغة. يقلّب الصفحات ذهابًا وإيابًا، حتى يجد الحرف a في القسم الإنجليزي-الإسباني: يقترب ميلاغرو

لأنه يلمح صورة الطائرة بالأبيض والأسود. يبلل أوبالدو أطراف أصابعه ويتقدّم ببطء عبر الترتيب الأبجدي. ويقلب الصفحة عندما لا يتمكّن من العثور على الكلمة التي يبحث عنها، ويبدأ العملية مرة أخرى مشيرًا إلى الكلمة تلو الأخرى. أتصوّر أن كلمة agua(61) يجب أن تكون كلمة عالمية، يقول كومودورو، في النهاية هو الشيء نفسه الذي نشربه في جميع أنحاء العالم. بعد مرور خمس عشرة دقيقة، كان قد اجتاز القسم كلّه دون أيّ نجاح؛ ربّما رَمَش وضَيّع الكلمة. هل أنت متأكّد من أنّه لم يقل egua، أو ogua؟ لقد تكلّم بكل وضوح، تؤكّد أثوثينا. يتنهّد أوبالدو تنهيدة عميق ويبدأ في البحث مرة أخرى، ولكن عند نقطة معينة، يتأكّد من أنه لن يجد الكلمة ويقرّر الغش. ها هي، يقول، وهو يلكز منتصف الصفحة بإصبعه، agua، agua، تعبير مهين في البلاد الشمالية يعني أيها السافل البغيض السمين. يقترب كومودورو بحاجبَين مرتفعين، دعني أرى ذلك؛ لكن أوبالدو يطبق القاموس بقوة. بماذا يفيدك ذلك، فأنت لا تستطيع حتى قراءة اسمك؛ كنت تريد مساعدته والرجل يشتمك، السافل البغيض السمين. لا بدّ وأنها لغة فعّالة، تقول أثوثينا، إن كان مقطعان اثنان فقط يقولان ما نحتاج فيه إلى ثمانية. ولا بدّ وأن للغرينجو عَينا وَشق(62) لمعرفة من أطلق النار عليه. ما لم نأخذه في الحسبان، يقول كومودورو، هو أنه لا يوجد سوى تعليلين للشتيمة: إمّا أنه ينفّس عن غضب في وجه موته الوشيك، أو أن كبرياءه يأتي من اليقين بأن المئات والآلاف من رفاقه سيكونون قريبًا هنا لأخذنا أسرى ومساعدته. ربما يكونون هنا بالفعل، يقول ميلاغرو، ونحن نهدر وقتنا بتفاصيل ثانوية عن لغة أجنبية. أوبالدو يعيد قاموسه إلى الحقيبة المدرسية. لا تقلقوا، إذا كان العدو في مكان قريب، لكان سيريّو قد دقّ ناقوس الخطر.

*

مع فقده لأيّ إحساس بالمسافة، يعتقد ماتوس أنه ركض ماراثونًا أمس، وبعد ظهر اليوم يوشك على الانتهاء من الثاني. مهمّة رجل حقيقيّ لم يفعلها حتى

عندما كان صبيًا، مع أنه لم تعد لديه السرعة التي كان يمتلكها آنذاك، والآن عليه أن يهرول بضع دقائق، عشرين على الأكثر، والسير في العشرين التالية. متأخرًا دومًا عن كلارنس ديمار، أحيانًا يرى ظهره ليُبقي نفسه مندفعًا، وأحيانًا يراقب الأرض للبحث عن أدلة على أن المتنوّرين قد مرّوا بهذا الطريق. ديمار الآن رجل عجوز مسكونٌ بالآلام والأوجاع، أصلع، يعيش على الراتب التقاعدي؛ يسعل كلّما ارتقى مرتفعًا؛ ويتعرّق بغزارة ويبصق تكرارًا. وبين حينٍ وآخر يقول أن لا حاجة للاستمرار، ولكن ماتوس يركله ويدفعه للمواصلة. أعطني ميداليتي، أيّها الغرينجو اللعين.

دُهش عندما رأى أنه ليس الوحيد الذي يجري على هذا الطريق. هناك رجل يحمل قبعة في يده قادمًا في الاتجاه المعاكس. كلاهما يتوقّف عندما يلتقي؛ توقّف الرجل جامدًا في مساره، وماتوس يواصل تحريك ساقيه حتّى لا تتشنجا. لا تذهب في ذاك الطريق، يقول الرجل بعد أن يلهث عدة مرات لالتقاط الأنفاس، هناك عصابة أطلقت النار على صديقي. أين هم؟ يسأل ماتوس، ويجد أنه من المستحيل عليه احتواء توقه. لا تخبرني بأنك واحد منهم. هل تظنّ أنه في عمري سأنضمّ إلى عصابة؟ يمكنك الاستمرار على هذا الطريق دون أية مشكلات، يُبلغه الرجل، حتى تصل إلى مفترق يبعد حوالي كيلومترين من هنا؛ لا تفكّر في الذهاب إلى اليمين. يسر ماتوس لمعرفة أنه يكاد يبلغ هدفه، وأنه سيهزم كلارنس ديمار مجدّدًا. ماذا عن رفيقك؟ الرجل يهزّ كتفيه. كنّا سنحتفل بعيد ميلاده غدًا، والآن أبحثُ عن سيّارة إسعاف أو الشرطة أو الجيش، شخصًا ما يتحمّل مسؤولية هذه الأمور. أقدّر لك إبلاغي، يقول ماتوس، عليّ مواصلة طريقي. وقبل أن يغادر يسأل سؤالًا أخيرًا. ماذا لو لم يكونوا من العصابات؟ ينظر إليه الرجل بتشكّك، ويضيف ماتوس: قد يكون صيادًا، رصاصة طائشة، حادثًا. أنت معهم، يقول الرجل، ويُسرع هاربًا نحو أقرب قرية.

كما سمعتَ، يا كلارنس، يقول ماتوس، السباق هو إلى الأصدقاء، وللمرة الأولى

في ثمانٍ وأربعين ساعة أنا لا أركض لأهزمك، ولكن لأصل إلى هناك قبل الجيش.

*

تُخرج أثوثينا المكياج من حقيبتها المدرسية وتبدأ في التزين قبالة مقبض باب، السطح العاكس الوحيد الذي عثرت عليه. تلتقط أحمر الشفاه القرمزي وتضيف اللون نفسه إلى وجنتيها. بالنسبة لحاجبيها فهي تفضّل اللون الأسود. وتأتي متعتها القصوى في اختيار الرموش الصناعية من بين أربعة أنواع؛ تختار الطويلة، السميكة، والمقلوبة. مقبض الباب صغير ويشوّه وجهها. ومهما بلغ حرص أثوثينا، يصعب عليها أن تبقى ضمن الخطوط، ولكن ماذا تفعل والشيء نفسه يحدث معها مع كتب تلوينها، حتى إن ذلك حصل عندما رسمت اللون الأحمر والأخضر لراية المتنوّرين. النتيجة هي أن شفتَيها تبدوان متورّمتين ضعف حجمهما، وحاجباها يشبهان ذيل العقعق(63). الرموش الصناعية غير متساوية، مثبتة في منتصف جفونها. وفي الختام تدعك وجهها بكُرةٍ من الصوف مغطاةٍ ببودرة التلك وتضع قطرتي عطر خلف أذنيها. رائع، تُفكّر، هكذا حتى إذا مت فسيختلط عليهم الأمر بيني والجثث. كومودورو كان يقف هناك ولا يستطيع تصديق عينيه. تبدين مثل مومس، يقول لها، لم أجدك يومًا بمثل هذه الجاذبية.

*

الوصول إلى خطّ نهاية ماراثون عام 1924 لم يستنزفه كما هو الآن، وهو ينعطف إلى اليمين، تحديدًا حيث طلب الرجل إليه ألّا يذهب. يرى البيت الكبير على مبعدة، هذا هو المكان الذي لا بدّ وأن يكون فيه المتنوّرون، يقول لنفسه، كما يمكنه أن يتبيّن في منتصف الطريق جثّة الصديق الصريع الذي ربّما لن يتمكّن من الاحتفال بعيد ميلاده. يدخل عبر نفق الماراثون ويرى كل الجماهير على أقدامهم، يصفّقون؛ يلاحظ بضعة أعلام مكسيكية بين عديدٍ من أعلام البلدان الأخرى. لقد عاش هذا المشهد من قبل، ويُسعده أن يعرف أنه يتمتّع بميزة كافية

على مطارديه لكي يركع ويؤدّي علامة الصليب على بعد أمتار قليلة من خطّ النهاية. يفعل ذلك هذه المرة للنظر من كثب إلى الرجل الذي يفتح عينيه في منتصف الطريق ويقول ماء، ماء؛ حاجتي لشيء أشربه أشدّ منك، يخبره ماتوس، لا تنتحب، قريبًا سيأتون هنا لإنقاذك. يقوم منه ويُقلع مرة أخرى. ساقاه قستا عليه وترفضان التقدّم، لكن روحه أقوى. يضرب فخذَيه عدّة مرّات ويشقّ طريقة بسرعة قصوى على مسار شجيرات المسكيت، والذي بالنسبة له هو مسار استاد باريس في الكولومب. حان وقت اللفّة الأخيرة، وقت سكب آخر قدرٍ متبقٍّ من طاقة.

من الجانب الآخر، كومودورو يُسدّد على رقبته، وإصبعه جاهزًا لسحب الزناد، حتى يصفعه أوبالدو على قفاه. إنّه ماتوس، يا أبله.

ينزلون جميعًا إلى الطابق الأرضي ويفتحون الباب في الوقت المناسب للريّاضي الأولمبي لكي يندفع خلاله دون الحاجة إلى قطع إيقاعه. يدفع صدره وهو يعبر العتبة؛ يتوقّف في أول الفناء ويرفع ذراعيه علامة للانتصار. ابتهجوا، يقول، نحن الفاتحون، ثم يسقط على الأرض كجذع شجرةٍ، شاحبًا، والمتنوّرن يعتقدون بصدق أنه مات.

*

بعد بضع ساعات، يفيق ماتوس؛ يحاول تحريك رجليه لكنهما متشنجتان بشدة. Agua يقول، ماء. آمل أنّه يتحدّث بلغتنا، يقول كومودورو. يشرب ماتوس بانهماك من الزجاجة التي ثقدّمها أثوثينا إليه، ومن ثم يزحف إلى حائط يمكن أن يعتمد عليه ليسند جسده. يجب أن نخرج من هنا في أسرع وقت ممكن، يقول، لن يتأخّر الجيش طويلًا في الوصول. أتصوّر أنّ العجوز يهذي، يهمس أوبالدو إلى كومودورو، ويضيف بصوت عالٍ: ولهذا السبب نحن هنا، للتصدّي لجيش العدوّ، لماذا نهرب الآن وهم يقتربون؟ نحن لا ننتظر العدوّ، وإنّما جيش الشعب المكسيكي البطل، لأنّ أحدهم ذهب وأخبرهم بأننا رجال عصابات؛

كان عليكم ألا ترموا طلقة واحدة قبل الوصول إلى الولايات المتحدة. تجثم أثوثينا وتضع بندقيّتها على الأرض، وميلاغرو يدير ماسورة بندقيته صوب ماتوس. أنت تكذب، يقول له، أنت خائن. كم أعطوك لتمرق؟ عبرنا ريو غراندي المحتشد بأسماك البيرانا يوم أمس، وعبرناه مرة واحدة فقط، دون تذكرة عودة. نحن الآن في منطقة حرب، والقوانين أكثر صرامة هنا بالنسبة للمنشقّين؛ أو إذا كان الأمر يتعلّق بالجبن، فاعلم أن لدينا هنا في ألامو سرير يمكنك الاختباء تحته حتى تنتهي المعركة. أبلغوني بما تودّون القيام به مع هذا الرجل العجوز، يقول أوبالدو، أما أنا في الوقت الحاضر فسأصعد إلى الطابق العلوي لتوفير الدعم لسيريّو، فليس من الصحيح أن تتركه هناك مسؤولًا عن النقاط الأربع الأساسية. سيد ماتوس، يقول كومودورو، بصفتي رئيس مجموعة جيش المتنوّرين، وبصفتي السيد الشابّ الكونديستابلي، أطالبك بأن تقرّر الآن إن كنت في صفّنا، أو إذا كنت تفضّل أن تحمل مشاعر زهيدة لأرض الأجداد، أو أبلغني إن كنت فقدت درب اليقين عندما أطلقوا النار عليك من برج الكنيسة في تلك البلدة.

يتفحّص ماتوس صِبيته بفخر، مجموعة من الرفاق الأشاوس. من أنا لأنكر عليكم أمانيكم، لن أسلّمكم إلى جيش وطني أسوأ من العدو لأنهم سوف ينزعون عنكم كل ذرة من الكرامة، ويعيدوكم فحسب إلى ذلك المعهد الذي يرى أنّ الغاية من حياتكم هي حفظ بعض الأبيات عن ضفدع يقفز، أو تلوين الشمس دائمًا بعيون وابتسامة وأحيانًا بنظارات داكنة؛ الغرينجو، على الأقلّ، سيضعون رصاصة بين أعينكم. أيّها الجنود المكسيكيون، يقول ماتوس، يا أبطال الأمة، أودّ أن أبلغكم بأنكم قد استوليتم على ألامو، وأننا على وشك أن نحاط بجيش القاعدة الأميركية، وإن واجبنا المدني والأخلاقي ألا نخسر هذا المكان، حتّى لو خسِرنا أرواحنا. لقد سمعتم الأوامر، يصرخ كومودورو، فليذهب الجميع إلى مواقعهم. يشاهدهم ماتوس وهم يتراكضون بحماسة، مثل أطفال يلعبون الغقيضة، يسحب نفسه إلى زاوية ويغمض عينيه في انتظار الطلقة الأولى.

*

كومودورو وأثوثينا يتبادلان لعبة الألغاز عندما يقاطعهما صوت ثاقب من مكبّر صوت. نعرف أنكم هناك، اخرجوا متجرّدين من السلاح رافعي الأيدي. يمكنهما أن يتبيّنا من الشرفة ثلاث شاحنات خضراء متوقّفة في نهاية الطريق؛ رجال يرتدون الألوان نفسها يتخفّون وراء بعض مجاري المياه، والأشجار، والصخور. يبدأ أوبالدو بالانتقال من أحد أطراف المنزل إلى الآخر مثل بائع جوّال، مكرّرًا استعدّوا جميعًا، الحرب وشيكة جدًا، استعدّوا جميعًا، احموا شرفكم أولًا ومن ثمّ حياتكم. هي اللحظة التي ننتظرها، يقول ميلاغرو، سيكون هذا أكثر إثارة من الوقوع في الهاوية في السيّارات الرمادية؛ إذا نجوت فسوف أكون معجزة مزدوجة، والمعجزات المزدوجة هي أنصاف آلهة. لا تملؤوا رؤوسكم بأضغاث الأحلام، يقول مكبّر الصوت، إن حكومتنا لا ترغب بمزيد من الشهداء، لذا لن نطلق النار، نحن صبورون، يمكننا الانتظار هنا لأيام أو أسابيع أو أشهر حتى يجبركم الجوع على الخروج. ماذا يعنون بأنهم لن يطلقوا النار؟ يسأل أوبالدو، أيّ نوع من الحرب هي هذه؟ أي نوع من الجيش هو هذا؟ كومودورو ينهار ويتدحرج على الأرض. بحق السماء، قاتلوا كالرجال، اقطعوا رقبتي، أطلقوا النار علي، ولكن لا تجوّعوني حتى الموت، ماتوس كان يعني ما يقول عندما قال إنّ العدو بلا روح. انقذنا، يا إلهي، من هذا الشر؛ احرسيني، أيّتها السيدة الطاهرة. فرط الذعر يُخلّف كومودورو مرتجفًا باديًا بياض عينيه. منذ البداية عرف أوبالدو أن أحدهم سيصاب بالجنون، لكنّه ظنّ أنه سيكون ميلاغرو؛ التفجّع، والرعشات ينبغي أن تكون من شأن ميلاغرو. كان قد جهّز خطبة له عن الشجاعة والبقاء للأصلح، وهو ما كان سيتلوه عليه بينما يمسك به بشدّة من كتفيه ويطلب من ميلاغرو النظر في عينيه مباشرة. كومودورو يتطلب مقاربةً مختلفة. أثوثينا، هل لك أن تصفعيه. تؤدّي مهمّتها مرتين، ثلاث، خمس مرات، حتى يصمت كومودورو ويتوقّف عن الارتجاف. يتخذ جلسة زهرة اللوتس ويمسح عرقه. ذلك لم يكن جبنًا، يقول بصوت مختنق، كل ما في الأمر أن جميعنا

لدينا رعب سري في الحياة. يظن أن الآخرين سيتفقون معه، يربّتون على ظهره ويبادلونه الاعتراف بدورهم برعبٍ من العناكب أو الظلام أو الكلاب أو العجائز أو أيّ شيء. ينطلق أوبالدو وميلاغرو إلى موقعيهما؛ تودّ أثوثينا إخباره بأنها خجلت من رؤيته بهذا الجبن، لكنّها تقرّر أنّها ليست اللحظة المناسبة للحديث.

*

أوبالدو قرب السرير الخشبي وينادي كومودورو للقدوم. بعد عرضك الجبان بات من الواجب عليك حرق هذا السرير، أن تحوّله إلى رماد. في هذه المدافعة عن ألامو لن يكون هناك أي شخص يصرخ ويبكي تحت سرير؛ ذاك كان شيئًا من الماضي وكان من جانبهم. يهزّ كومودورو رأسه موافقًا ويشرع في التفتيش في حقيبته المدرسية حتى يجد علبة الثقاب. يُميّز علامتها التجارية ويعرف أن الكتابة على ظهرها تنبئ عن المستقبل؛ إنه سعيد لأنه لا يعرف القراءة فهو في هذه اللحظة، والجيش يحاصرهم ويهددهم، يفضل عدم المعرفة بأي نبوءةٍ عن المستقبل. جرت العادة أن يعثر على علبة ثقاب فارغة مثل هذه يتركها سانتياغو وراءه في الليالي التي يلعبون فيها الدومينو. يضعها كومودورو في جيبه، وبعد التقاط منافض السجائر والزجاجات الفارغة وغسل الأطباق، سيطلب من ماتوس أن يقرأها له. سوف تذهب في رحلة طويلة وممتعة، يا كومودورو، سوف تكسب جائزة في المكتب، سوف يأتي قريبٌ لزيارتك، روحك المرحة ستكسبك تعاطف من حولك، إحداهن ستعود من ماضيك لتخبرك بأنها تحبّك. كان المستقبل على هذه العلب مشرقًا دائمًا، والموت لم يكن ينتظر أحدًا، ولكن ماذا عسى العلبة التي يُخرج منها عودًا الآن أن تخبره؟ يضرب العود ويقرّبه من أحد عوارض السرير حتى تغدو الحرارة فوق احتماله فيُلقيه. الخشب بالكاد لوّحته الحرارة. سوف تمضي في رحلة، يا كومودورو، رحلة تدوم إلى الأبد، دون عودة. إحداهن ستأتي لزيارتك، ستأخذ يدك فلا قوة بشرية أو سماوية ستسمح لك بالهروب، ستحملك من هنا إلى مكانٍ مظلم، ستغمرُ المجارف المليئة بالأوساخ والملح فيه صرخاتك،

وتغمض عينيك. العود الثاني لا ينجح أكثر من الأول.

ينتفُ أوبالدو فرخ الدجاج الذي تمنّى أن يغدو ملكًا ويضع الصفحات بجانب الأخشاب. حاول مرة أخرى، يقول. هذه المرة نجحت الأوراق الصغيرة في إضرام النار في الخشب. يُناظر كومودورو بأسى كيف يلتهم اللهب صورة الفرخ وهو يقبّل أمّه، بينما يُبلغها أنه قرر مغادرة البيت، وأن الاثنين لن يعيشان معا حتى يتمكّنوا من العيش في قصر على تلّة الديك. أوبالدو يهرع إلى الفناء ويُحضر بعض الفروع الجافّة للحفاظ على النار مستعرة.

إنّها بداية الإظلام. يجتذب الدخان واللهب المتطاير المتنوّرين الآخرين الذين يدخلون الواحد تلو الآخر ويشكّلون دائرة حول السرير المشتعل. يشاهدون النيران في صمتٍ بضع دقائق، يشاهدون النيران في عيون الآخرين. عندما تصل النار إلى أقصى ارتفاع لها، يقف ميلاغرو على قدميه وينحني. أيّها السيدات والسادة من جميع الأعمار، يقول، إنّ البشر يأتون إلى العالم ليواجهوا عناصر الطبيعة، وعندها فقط ينمون ويتكاثرون. ويبدأ في الجري والقفز خلال النيران. يصفق الآخرون عندما يرونه يحطّ على الجانب الآخر، سالمًا، وذراعاه ممدودتان، مبتسمًا نوعًا ما. يُقدّر ميلاغرو الاحتفاء ويكرّر حركته البارعة. وهلة، يتوحّد ميلاغرو والنار ويصيران كيانًا واحدًا: الضوء والنار والإقدام والبشريّ؛ ولكن بأقلّ من طرفة عين، ينكسر الوهم، فليس هناك لحم محترق ولا نيران مدمجة في جسد، إلا في ذاكرة الحضور. حسنًا، هذا يكفي، صرخ أوبالدو محتجًا، لا نريد أن نفقد جنديًا في احتراق عديم النفع، إضافة إلى السماح للهيب النيران بالقتل مع الصرخات المثيرة للشفقة التي ستدفئ قلوب معسكر العدو، وإن احتجتم إلى دليل، فسيريّو يمكنه أن يشهد عن الرعب من النار، لأنه لا يوجد فرق إن كانت تأتي من السرير أو من قاذف اللهب. لم يكد ينهي كلامه حتّى شعر بالحرج منها، فهو يدرك أنّ العقلانية لن تجد لها مكانًا في النفوس العظيمة. تابِع من فضلك، قالت أثوثينا، وذاك الضوء الأصفر والوردي على وجهها، تابِع حتى

يحدث ما يجب أن يحدث. يركض ميلاغرو ويقوم بقفزة أخرى ويهبط على الجانب الآخر، ويقفز مرة أخرى، ويجعل الوقت يتوقّف في كلّ مرة يمرّ بها عبر المحرقة من الجحيم التي هي خشب السرير الذي يتحول شيئًا فشيئًا إلى رماد. اقفز، يا ميلاغرو، احلم، يا ميلاغرو، اقفز وتشقلب في الهواء، في اللهب، لأنّ هذه الليلة لن تعرف أي خوف أو خيبة، والرعشة في ذراعيك هي خفق جناحي صقر وثمانية أضعاف أحد عشر هي اثنان وأربعون. يسمع ميلاغرو النداء ويكرّر حركاته البارعة مرارًا وتكرارًا، مضيّعًا الحساب، إلى أن تصبح الألواح كومة من الجمر الهادئ والدخان. ثم يقع على ركبتيه، منهكًا، وذراعاه تنتفضان أكثر من أي وقت مضى؛ يصفّق المتنوّرون دون توقّف، يتصبّبون عرقًا من كثرة الحرارة، ويسعلون بسبب الدخان، ومنتشين، سعداء ومبهورين، بدموعٍ في أعينهم، محتفين بالإنسان الذي قَهَر النار.

*

يستطيل الليل عندما لا تستطيع أن تغمض عينيك. يتفحّص كومودورو كلّ النوافذ، ولكن كلّ ما يتمكّن من رؤيته هو الجمر البرتقالي لبعض السجائر المشتعلة. يعلم أنّ هناك أكثر من بندقية مسدّدة إلى بطنه وصدره. مواجهة نيران العدوّ لا بأس به، لكن ماذا تفعل مع جيش مصمّم على الجلوس والانتظار حتّى تتضوّر جوعًا؟ لم يتبقّ هناك أيّ علبة جيلو، ولكن خيارة واحدة فقط، ومن يدري ماذا حصل للتموين الذي توجّه ماتوس إلى القرية ليشتريه. إذا لم تتغيّر الأمور، فسيأتي اليوم الذي سيتجادلون في ما إذا كان البغل مدرجًا في قسم الجندي، أو إذا كان بإمكانهم التضحية به في سبيل لحمه. كانت الحياة مملّة في المعهد ولكن على الأقلّ في صباح يوم الجمعة، يجلب المدير لهم سلّة من الخبز. قطعة واحدة فقط، يا كومودورو، وإلا فستصاب بالديدان. وهناك حيث تتحرك الأضواء البرتقالية، من المؤكّد أنّ لديهم سندويشات تاكو ومشروبات، وخنزيرًا يُحمّر ببطء.

على أن ماتوس استعاد الحركة بشكل جزئي في ساقيه، إلا أنّه لم يرغب في الوقوف. يشعر بالحرج من السير بخطوات خرقاء مثل رجل عجوز، ويخاف من احتمال السقوط فيضحكون عليه، أو أسوأ من ذلك، يُشفق جنوده عليه، وهم غير قادرين على تصديق قصة المكسيكي الذي تفوّق على كلارنس ديمار بأكثر من طول أنفه بكثير. اقترب منه كومودورو البدين وداعب خده. لقد ضيّعتُ السيدة الطاهرة، قال، غَرِقَتْ في ريو غراندي لتُنقذني. هذا ما يحدث، يقول ماتوس، واحد في سبيل الآخر. أحجار الدومينو لن تكتمل أبدًا، يصير صوت كومودورو حادًا قليلًا، يبدو مثل صوت المرأة لمّا يستأنف الحديث؛ لن نعود أبدًا إلى البيت مرة أخرى، حيث نجلس حول الطاولة، ونقرّر أيّ حجر سيُمكّننا من الفوز باللعبة، ولن أجلب أبدًا الجعة الباردة من المطبخ ولن تصفعني أبدًا وتنعتني بالأحمق. يفرد ماتوس ذراعيه ويَقبل كومودورو الدعوة على الرغم من رائحته، تلك التي تنبعث من عدّاء مسافات طويلة. يودّ في مواصلة الحديث، ويشعر بالحاجة إلى تذكر الأوقات الطيبة، واليوم الذي أحضر فيه قطعة الورق التي كَتَب عليها اسمه بخط يده وابتسم له ماتوس وقَبّله على جبهته، أيُّ قصةٍ تصدّه عن التفكير في الأضواء البرتقالية التي تدنو لتحرق كل طيّة من جلده؛ ومع ذلك، تتجمّد حنجرته ويصبح غير قادر على إخراج أي كلمة. هناك شيء بخصوص هذا المكان يبعث فيه الشعور بالهشاشة: يفكّر بأنه لا بدّ وأنها الجدران العارية، دون لوحات، دون مفاتيح كهربائية، دون مفاتيح غاز؛ لا يوجد جرس باب في الخارج ليعلن عن قدوم الزوّار. يبكي كومودورو بهدوء، واثقًا في تكتّم الرجل العجوز؛ لا حاجة بأحد آخر إلى المعرفة بهذه الدموع التي لديه سبب وجيه لسكبها، لأنّ كلّ موتٍ محزن، ولكنّ الأكثر إثارة للحزن هو موت شخص بدين.

*

ماتوس، لقد أخبرتنا أنّ هناك أناسًا يقاتلون مع العدوّ ويتشاركون معنا قِيَمنا، تقول أثوثينا، علينا أن ندعوهم إلى الانحياز إلى صفنا. فكرة جيدة، يا أثوثينا،

أحضري ورقة واكتبي ما سأملي عليكِ. تُخرج ما يلزم من حقيبتها المدرسية وتقول إنّها جاهزة. أيها الأصدقاء الأيرلنديون المحترمون، يشرع ماتوس، ويستغرق الأمر من أثوثينا نصف دقيقة لرسم الحرف الأول بين الأسطر الأربعة. أعطِني هذا، يمدّ ماتوس يده بنفاد صبر، جعَلَتني ساقاي غير صالح للقتال المتلاحم يدًا بيد، لا عقلًا بعقل. أيّها الأصدقاء الأيرلنديون المحترمون، في سبيل حبّ كنيستنا الكاثوليكية والرومانية المقدسة، نتوسّل إليكم بعطف أن تُلقوا بأسلحتكم وأن تشاركونا الدفاع عن الشعب المكسيكي. يشهد أوبالدو صياغة الرسالة ويعترض. اشطب العبارة التي تتحدّث عن إلقائهم أسلحتهم. نريدهم مع البازوكا في أيديهم. يتّفق ماتوس مع الملاحظة ويسأل إذا كان لدى أي شخص آخر شيئًا يضيفه. نعم، تقول أثوثينا، بدأتَ بالقول بأننا متساوون في العقيدة، هذا أدنى شيء. هذه كلمات حكيمة، يقول ماتوس، فنحن أيضًا نحبّ الغناء والشراب والبدء في تسديد اللكمات عند أدنى استفزاز. أضف ذلك، ثم، كذلك، اذكر أن هنالك نساء أجمل في المكسيك. يفعل ذلك ويوقّع بشعار، العقيدة، الروح، والمشروبات: متشابهة والأمّة نفسها. زِد ملاحظة أخيرة، تقول أثوثينا، اطلب منهم جلب التفاح. الأيرلنديون يأكلون البطاطس، يوضّح ماتوس. اطلب منهم جلب البطاطا المطبوخة جيدًا إذًا، لأننا على وشك المعاناة من مجاعة حادة. ينسخ ماتوس أربعة نصوص متماثلة ويلفها إلى كرات حول أحجار بحجم مقل العيون. أثوثينا تقلّب في حقيبة أوبالدو المدرسية حتى تجد المقلاع؛ ثم تسأل أين هو كومودورو، هذا الواجب له. رأيته يخرج إلى الفناء، يقول ميلاغرو. تذهب أثوثينا بحثًا عنه وتجده متمددًا في البركة الجافة، بسرواله الداخلي، يتشمس. أنا شديد البياض لأكون مكسيكيًا، يقول. تمسكه من أذنه وتسحبه إلى الداخل. على الأقل دعيني أرتدي ثيابي، يحتج، لكن قرصتها تصبح أكثر شدة. ذراعاك هما الأكثر قوة بيننا، ستضع العرائض بين أيدي الإيرلنديين. يتسلق كومودورو إلى الشرفة على مضض، محمرًا من الشمس وملابسه الداخلية الفاحشة. هاك، يناوله أوبالدو المقذوفات الأربعة، أرسل كل منها إلى مكان مختلف، لأننا لا

نعرف أين تتركز الكتيبة الأيرلندية. يشدّ كومودورو المقلاع المصنوع من مطاط الإطارات الداخلي وينسى خجله؛ يمتلئ حاليًا بفخر كبير لأن ذراعيه كانتا هما المختارتين. يجب عليه التأكّد من أنه لا يخطئ. يغرز قدمَيه العاريتين بثبات، اليسرى إلى الأمام، واليمنى إلى الخلف في وضع متعامد، ثم يثني ركبتيه قليلًا ويدفع صدره مستويًا إلى الأمام. يمدّ ذراعه الأيسر إلى الأمام، قبضته تطبق على مقبض المقلاع بإحكام. ويستخدم يده اليمنى لسحب المقذوف. الآن عليه أن يقرّر النقطة الصحيحة، زاوية الإطلاق. يخفّف الإبهام وإصبع السبابة الأيمن، تصدر نقفةٌ من بعدها تكون رسالة الغواية في طريقها، من ألامو إلى ضمير دبلن، صلّي من أجلنا، أيتها الأمّ المقدّسة، نحن واحد ومتشابهون، على الصليب وعلى القنينة، يعيش القديس باتريك، لنشرب حتى نُضيّع طريقنا ونستيقظ على استعداد لطعن أحدهم بسيفٍ إذا نطق بأيّ شيء يمسُّ أمهاتنا، وإذا ما بصق شخص على قديس أو رفض مشاركتنا خمره، لتأتِ أيرلندا ثلاثية الألوان مثلنا وتُخرج هذا الصبي البدين المسكين من خجله من بياضه. مع كلّ رمية، يُوَتّر كومودورو ذراعيه بقدر استطاعته ويَثبتُ في موقعه بضع ثوانٍ؛ حالمًا بعضلة ذراع بركانية، وأطراف عارمة، ورأس أسود طويل مشعر. بَجِّلُوني، أيّها السيدات والسادة، اعشقوني، أنا ديانا(64) الراغبة في أن تُخلد بالرخام على أيدي أعظم النحاتين.

*

سيريّو ينام على الشرفة. لا وقت للأحلام، تقول أثوثينا وهي تهزّه؛ في أيّ لحظة قد يقرّر الغرينجو الاعتداء على ألامو ومن الضروري أن يكون جميع الأفراد على أهبة الاستعداد. يفتح عينيه للحظة، ويتثاءب ويشير في خطّ مستقيم إلى طريق المسكيت. تراقبه أثوثينا وهو يُنزل وجهه، ويستريح على ذراعه اليمنى، ثم يعود سريعًا إلى النوم. لا فائدة، تقول، علينا الاستغناء عنه، صار وضعه أسوأ بعد مسألة قاذف اللهب. يقترب ماتوس من الشرفة مؤكّدًا لهم

أنّه يستطيع صنع أفضل الجنود من سيريّو. يتمدّد إلى جانبه ويجذب شعره برفق. سيريّو، اسمعني، كتبت لي أمك رسالة، ذكّرت لي فيها أن أحد الأعداء دخل في إحدى الليالي إلى سريرها وأجبرها، هل تفهم؟ أجبرها. يفتح سيريّو عينيه دون أثر للنعاس فيهما ويسحب الزناد. تؤدّي الطلقة إلى ارتداد البندقية وسقوطها من يديه. يحملها مرة أخرى، ويقف، ومسندًا بندقيته إلى درابزين الشرفة، يبدأ بإفراغ مشطها في أيّ اتجاه يظنّ أنّه يرى فيه عدوًّا كريه الرائحة متلفلفًا في ملاءات أمّه. انتظر، يا سيريّو، هذا هو وقت المراقبة، لا الهجوم. لكن أذنيه لا تسمعان أحدًا. تزيد الإطلاقات، دون رحمة، ومع كلّ واحدة تسري الرعشة والاهتزازات في جسد سيريّو؛ أخيرًا، بعد إطلاقه النار بغزارة، يبدأ الردّ من الخارج. بندقية المتنوّر تفرغ سريعًا من الذخيرة وتبدأ تُنقّر. ماتوس يمسك سيريّو من خصره ويقوده إلى الداخل. هل أنت بخير، يا بني؟ يستمرّ سيريّو في الضغط على الزناد إلى أن يقوم ماتوس بنزع السلاح منه ودفعه نحو الأمان. كلاهما يتّكئ على الحائط ويشعران بارتطام جواب المدافع الرشاشة في الطوب؛ بعض الرصاصات تدخل انطلاقا من النوافذ وترفع الغبار من الجدران الجيرية المتداعية. تصعد أثوثينا إليهم، مبتهجة، وتشرع في غمر سيريّو بالقبلات؛ لقد دفعتهم لفتح النار، تقول له، الآن سيقتلوننا بالرصاص بدلًا من تجويعنا حتى الموت.

*

يتواصل تبادل إطلاق النار بضع ساعات، في بعض الأحيان يبدو صوته مثل الألعاب النارية في يوم عيد وطني، ثم تأتي فترات من الصمت، تمرّ فيها أثوثينا على كلّ جندي لتسأله ما إذا كان على قيد الحياة، إذا كان على ما يرام، إذا كان يحتاجها للعناية بجرح. يجيبها كومودورو البدين بأنه لا يحتاج إلى شيء، ويطلب منها أن تتركه وحده. أكثر من مرة يقف أحد المتنوّرين، عادة ميلاغرو، أمام النافذة، ويرمي طلقةً، ثم ينحني. تندفع الطلقات من الجانب الآخر

مجدّدًا بضع ثوان. إذا مات أحدنا، يقول أوبالدو، علينا أن نلقي به من فوره من الشرفة، لأن الجثث تجلب الطاعون والملاريا والمثلية الجنسية. كومودورو لم يرمِ ببندقيته فترة طويلة؛ مشطه فارغ. لم يُعِد تعبئته لأنّ عقله يقول له إنه لا معركة تستحقّ أن يجري سردها طوال الأبدية إذا كان كل ما تراه هو بسالة كل من الطرفين. تتطلب المعركة التي لا تمحى مشاهد يمكن أن تنتقل من فم إلى آخر، من جيل إلى جيل، حكايات تتخطّى مجرد تبادل الرماية، قصصًا عن الرجل الذي ظلّ يقاتل رغم الرصاصات الثمانية في جسده، أو عن الجندي الشجاع قطيع الرّجلين الذي تسلّق جدار الحصن، أو عن الطفل الذي فجر نفسه بالسد الذي ستُغرق مياهه المئات من الأعداء. ولهذا السبب أنا هنا، كومودورو اللامع، الناجي من ريو غراندي، الناجي من أسماك البيرانا، السيد الشاب الكونديستابلي، والمفضّل لدي السيدة الطاهرة، أنا هنا لتزويد التاريخ بالقصص. ينصرف بضع دقائق للتأمل. عليّ أن أفعل شيئًا بسرعة قبل سقوط المعقل أو استسلام العدو؛ لكن عبقريته ذهبت لتناول الغداء فلا يتمكّن من التوصّل إلى عمل جليل، سامٍ، بطوليّ، يمكنه فقط الانخراط في سلوك طفولي لإثبات شجاعته، يخرج على الشرفة ويرفع بندقيته الخالية من الذخيرة بكلتا يديه. أنا خالد، يصرخ، ويقف دون تحرّك، وإن أرعد بارود العدو، أنا خالد، يجيب ويتجمّع سكّان البلدة في الساحة الرئيسة مرة في السنة لإحياء ذكرى هذه المناسبة البطولية، أنا خالد، يرفع صوته قدر استطاعته ويقرّر شخص ما أنّه يجب إضافة مقطع إلى النشيد الوطني يتحدّث عن المحارب الخالد كومودورو، وكان سيكرّر صراخه للمرة الرابعة والخامسة والسادسة لولا حقيقة أنّه يشعر بأثر طعنة في بطنه تؤدي إلى زعزعة قدميه، التفاف كاحليه، وانقلابه على ظهره، مهزومًا، منهكًا، دون المزيد من أفكار الخلود.

*

لقد قتلوا كومودورو، يصيح ميلاغرو؛ ولكن عندما يصل إليه وينظر إلى عينيه

المغرورقتين بالدموع، ويسمع تنفسه المتسارع ويرى دلاء العرق تنسكب من شعره الأشعث وكفاحه ليقول شيئًا لا يتمكّن منه، يُصحّح تقريره، هذه المرة دون الصراخ لأن الخبر الجديد لم يكن مثيرًا، هو بالكاد يتمتم أنه ليس ميتًا، جريحًا فقط، مصابًا برصاصة في أمعائه، وهذا النوع من الجرح لا يموت منه أحد، ليس بغتة، لأن أيّ جرح أسفل الصدر يسمح بوصول الطبيب، أو أنه على الأقل يمنح وقتًا كافيًا للتحدّث بصوت خافت مع الحبيبة، ليقول شيئاً غزليا لها، لترتيب تفاصيل الميراث، وطلب بعض الماء، لتلاوة صلاة والإحساس بالذنب عن خطاياك طوال عمرك؛ وإن كان لديك كلب، فسوف يأتي ليلعق عرقك ويتمدّد إلى جانبك، حيث سيبقى فترة طويلة حتى بعد توقّف جسدك عن التنفس. كومودورو لم يمت، يا أصدقائي، لكن هذا لا يجعل منه معجزة.

يمسك ماتوس بالمصاب من معصمَيه ويجره بعيدًا عن الشرفة وعن خطر الإجهاز عليه. أثوثينا تهرع إلى جانبه وهي تفكّر باحتضانه، على أنها غيّرت رأيها عندما رأت بقعة الدم على قميصه. هل أنت بخير، يا كومودورو؟ ينظر إليها دون جواب. ترفع صوتها للسؤال عما إذا كان هناك طبيب في البيت. كما توقّعت، كل ما تسمعه هو الصمت، لكنّها راضية عن أدائها لواجبها. علينا أن نرى مدى خطورة هذا، يقول ماتوس، علينا أن نقلب الجريح. يمسكون به من جانب واحد ويديرونه إلى يساره حتّى ينقلب على وجهه. يتأوّه كومودورو دون إبداء مقاومة. لا توجد بقع دم على ظهره. إشارة سيّئة، يقول ماتوس، ليس هناك جرح خروج. يُقوّس ميلاغرو حاجبيه مدركًا كم هو سمينٌ صاحبه، ينظر بدهشة إلى مؤخّرته ويتساءل كيف كانوا سيتمكّنون من خوزقته. وعندما يعيدونه إلى وضعه الأصلي، يرون أنّ الأرض ملطّخة بالدم وأنّ الجرح مغطى بالأوساخ. ألم يحضر أي شخص القطن والكحول في حقيبته المدرسية؟ يسأل ماتوس، محدّقًا في أثوثينا، وبما أنه لا يوجد جواب، يضيف، ألا تسافر سيدة شابة مثلك دائمًا مع حشوة من القطن؟ تبقى صامتة. على أيّ حال، أنت من عليكِ العناية بالجرحى، يقول ماتوس، لذا انزعي قميصه، وأحضري بعض الماء واغسلي الدم والتراب، ثم

انفخي عليه مباشرة بعد ذلك ليجفّ. في تلك اللحظة، يهرع أوبالدو إلى الأعلى ويوضح أنه نفد منهم الرصاص. تركتُ بعضًا منه في المطبخ، يقول ميلاغرو. يندفع أوبالدو إلى الأسفل، وسرعان ما تُسمع الانفجارات من كلا الجانبين، فقط بضع لحظات، لأنه مرة أخرى صار أوبالدو دون رصاص وهذه المرة، عندما يعود ويسأل عن المزيد، فكل ما يحصل عليه من رد هو اهتزاز الأكتاف. لم يعد يؤلم كثيرًا، يقول كومودورو، أظنّ أنني أستطيع العودة إلى موقعي. دون ذخيرة، مع شخص جريح، بعديدٍ ضئيل، يقول ماتوس، أظنّ أنه من الأفضل التفاوض على الاستسلام، ألدى أحد منكم شيءٌ أبيضُ يمكن أن يعيرني إيّاه؟ ينظرون إلى سيريّو، ينام وفمه فاغر، بملابسه التي لا تشوبها شائبة، سيتطلّب منهم بعض الوقت لإخراجه من سباته. غيار ملابسه الآخر في حقيبته المدرسية، تقول أتوتينا. لن نستسلم أبدًا، يرفع ميلاغرو قبضتيه، إن كنت تريد، فألقِ سلاحك، وأعلِن بأنك غير كفؤ، وتوسّل العدوَّ الرحمةَ، واحفظ جلدك على حساب كرامتك. أما نحن فهنا حتى النهاية. يصفق أوبالدو لكلامه، فهو يعرف أن مثل هذه الأشياء تقال عند الاقتراب من اللحظة الحاسمة، قبل تدمير الجسر أو تفجير مختبر العدو، عندما يكون كل ما تسمعه هو بعض الطبول البعيدة والبوق اللطيف.

يُفكّر ماتوس أنّ الوقت قد حان لإبلاغهم بأنهم وقعوا في فخّ، وأنهم ما زالوا في الأراضي المكسيكية. إنه موافق على أن يفقدوا حياتهم على الجانب الآخر من الحدود، ولكن القيام بذلك في هذا الجانب سيكون بدءًا، ولسوف يلعنهم التاريخ كالغوغاء الخونة، مثل الثوار دون قضية. إلى ما قبل بضع دقائق، كان عليه أن يمنحهم الفرصة ليكونوا أبطالًا. أمّا الآن فمع نفاد البارود وصبي جريح ممدّد على الأرض المتربة، تغيّرت الظروف. ومع ذلك، فإنّ ما يبدو له الأكثر منطقية يصبح عسيرًا النطق به عندما ينظر إلى وجوه المتنوّرين، وجوه أولئك الذين ليس لديهم ما يخسرونه، الأفراد الذين سيجلسون على طاولة المفاوضات وقول موافقين، إنّنا مستعدّون للتوقيع على هزيمتنا، ولكن لقاء ماذا؟ يدرك ماتوس أنه عليه أن يتركهم وحدهم: عليه أن ينتحي جانبًا في زاوية، وأن

يتخلّى عن القيادة، وأن يتقبّل حقيقة أنه لا يستطيع، ولا ينبغي، أن يطلق النار على جيش المكسيك العزيز. أمّا هم، فمن حقّهم أن يعيشوا ويموتوا وأن يطلقوا النار في أيّ مكان في العالم وأينما يأمُرهم وهمُهم، وبفضل أغلبية الأصوات نحن في ألامو، وبفضل غالبية الشجاعة يجب أن نقاتل حتى النهاية. وبفضل أكثرية الأوهام نحن لم نخسر بعد، لأن كتيبة القديس باتريك الأيرلندية لن تتأخر في الوصول إلى هنا.

*

نحن نعلم أن وضعنا يائس، يقول ميلاغرو، فالذخيرة تبدّدت، والعدو في كلّ مكان حولنا، والتعزيزات لم تصل، ولدينا جندي طريح، وجندي آخر نائم، وجنرالنا يطلب التقاعد. يتعيّن علينا القيام بأحد تلك الأشياء التي تتمّ مرة واحدة في التاريخ. هل تقصد حرق ألامو وتقديمنا جميعًا قرابين؟ هذه ليست فكرة سيّئة، يقول ميلاغرو، ولكنني كنت أفكّر في كسر الحصار، والنجاة بأرواحنا وإعادة تجميع صفوفنا في المكسيك، وتنظيم هجوم آخر. ينظر كومودورو إليه بدموع في عينيه، متمنيًا لو أن عقله لم يكن مركّزًا على الدم الذي يلطخ قميصه لكي يتمكّن من تصميم خطة تتفوق بالتأكيد على مقترح ميلاغرو، ولكن بنصف ذهنه المعطوب بجرحه، فكل ما يمكن أن يخطر بباله هو المشهد الذي يمتلك فيه المتنوّرون أجنحة وينطلقون جوًّا؛ لا يدري لماذا يشبه جناحاه جناحا نسر، في حين أن جناحي سيريّو يشبهان جناحا طائر طنان. هناك طريقة واحدة لكسر الحصار، يقول ميلاغرو، ويأمر أثوثينا وأوبالدو بوضع الجريح والغافي في العربة. يدرك كومودورو أنّ عليه الصعود بنفسه، لذا يتّجه إلى حافة حوض العربة، يجلس ويتدحرج إلى حيث تشكل الحقائب المدرسية والملاءات منطقة ناعمة. تصل أثوثينا وأوبالدو بعد ثوان قليلة مع سيريّو بين يديهما؛ أنزلوه بهدوء، مع الحرص على عدم إيقاظه. كومودورو ينادي أثوثينا بصوت متذمّر، هل تحبينني مع أنّني جريح؟ ظننت أنّك أنت من ستعتني بي، أخبرته، لقد قدمتْ

لأنك توسلت إلي. يُدرك كومودورو أن الرصاصة في بطنه تحط من شأنه؛ العالم الآن منقسم بين النافع وعديم الجدوى، وهو مصباح مستنفد؛ سيأتي الوقت الذي نكون به شاكرين على الضوء الذي زودنا به، لكن في الوقت الحاضر ارموه في القمامة. يستيقظ سيريّو ويرفع رأسه؛ تتوجه إليه أثوثينا على الفور لدعك كتفيه. من الأفضل لك أن تنام، صدقني أنت لا تريد رؤية ما هو على وشك الحدوث. عندما أعطيكم الأمر، يقول ميلاغرو، افتحوا الباب، ثم أدخلوا العربة، عدّوا إلى العشرة، واندفعوا بعدي بأسرع ما يمكن، إلى الأمام مباشرة، دون النظر إلى الخلف. سأخلي الطريق من جنود العدو بحريتي؛ انخسوا البغل لأنه يجب عليه التحوّل إلى غزال ليلحق بي. ثم، عندما نكون بعيدًا عن الخطر، سوف أصعد إلى العربة ولن يتمكّن أحد من الوصول إلينا. هل توافقون على خطتي؟ هل تفهمونها؟ ينظر ماتوس إليهم بكلّ فخر، كيف ستكون أرض الأجداد لو توفر اثني عشر مثلهم في أزمنة أخرى؟ بات الآن يعلم أنّ كثرة جريه حول المدينة في حذاء التنس وشورته الرياضي له فائدة عملية من جديد: سيكون رأس الحربة الأخير، سيركض خلف العربة ليمنع المُحاصِرين من الإطباق عليها، لإعطاء قواته بضع ثوانٍ أو دقائق من التقدّم، الجري والركض ليُخلّف وراءه لا كلارنس ديمار واحد بل مئة مثله مسلّحين بأشياء أكثر من زوج من الأحذية الرياضية. يقترب من ميلاغرو بهيئة النادم، فهو يشعر الآن وكأنه جنرال تم خفض رتبته. إن أذنت لي، أودّ أن أقدّم نفسي بوصفي حامي المؤخّرة، فإذا قمتَ بفتح الباب، فسأمسك به لأمنع الرياح أو أحد جنود العدو من إغلاقه مرة أخرى. يمكننا تحميل العربة بالحجارة، تقول أثوثينا، أنا سأقود وأوبالدو يمكن أن يرميها. هذه فكرة جيدة، ولكن القليل منها فقط، أو قد ينتهي به الأمر بالبغل متدلّي اللسان في منتصف الطريق. دع ماتوس يحمل علبة المسامير، يقول ميلاغرو، يمكنه أن ينثرها حيثما يذهب كي لا يستطيع العدو ملاحقتنا سيرًا على الأقدام أو في سيارة. يفتش أوبالدو في حقيبته المدرسية ويسلّم العلبة إلى ماتوس، مخشخشةً وكأنها جائزة من ذهب. سأبقى هنا، يقول كومودورو، فأنا لست سوى وزن زائد. يقترب منه

ميلاغرو وينظر إليه ممذدًا إلى جوار سيريّو، وكأنهما شخصيتان من الطين في كشك في السوق. عرضك يبدو معقولًا، يقول، ولكن الأمر المؤسف للغاية أننا بالفعل أدّينا قسم بيان الجندية والذي يحتم علينا أن نأخذك معنا طالما ما زالت تتنفّس. يشكر كومودورو في صمت المؤلّف المجهول لهذا البيان، على أنّه يعلم أن احترام القسم سوف يستمرّ فقط طالما أن هنالك عربة؛ ولكن بعجلة مشقوقة أو بغل مصاب برصاصة في الرأس، فمن عسى سيحمله على كتفه؟ المحور محشور، سوف تصرخ أثوثينا، ماذا سنفعل؟ ومن المؤكد أن الأمر سيأتي من ميلاغرو: احملوا سيريّو وتأكّدوا من توقّف كومودورو عن التنفّس، ومن فوره سيُحطّم ذراعان صخرةٌ عملاقةٌ على جمجمته. أثوثينا، يقول كومودورو، إذا كنتِ تريدين تركي وراءكم، فلا أطلب منك سوى ألا تهشمي رأسي. ابتعد عن سيريّو لأنك ستلطّخ ملابسه والدم يستحيل إخراجه. يحاول كومودورو صياغة رد ممتعض، فهم سيُخرجون دمه بالتأكيد، لكنه لا يستطيع التوصل إلى أي شيء مبتكر لذا يؤثر التزام الصمت. لا أحد سيتخلص منك، تتابع أثوثينا، لذا ادرس فكرة القفز خارج العربة، وبهذه الطريقة سيمضي البغل أسرع مرتين ولن يخرق أي منا القسم لأننا لن ندرك تضحيتك حتى عبورنا النهر وأقامتنا معسكرًا في محطة الاستراحة، وبينما نحن نحمّص حلوى الخطمى على نار المخيم، سيسأل أحدهم: بالمناسبة، ماذا حدث لذاك الفتى كومودورو؟ وعندها فقط سوف ندرك أنك اختفيت وسنبحث عنك في كل مكان دون جدوى إلى أن تشرق علينا الشمس، وفي تلك اللحظة بالذات ربّما يجري تعذيبك في إحدى ثكنات الغرينجو، وسوف تفكّر أنه كان من الأفضل لك الموت مخوزقًا بين أسماك البيرانا المفترسة. شفة كومودورو السفلى ترتجف لمجرد التفكير في غرينجو يغرز إصبعه في ثقب الرصاصة خادشًا كبده بأظافره الطويلة القذرة: أوكي، أيّها البدين، أخبرني أين يختبئ أصدقاؤك.

تفتح أثوثينا وأوبالدو الأبواب المليئة بثقوب الرصاص، ويراقب ميلاغرو الطريق المحدد بالمسكيت الذي يفصلهم عن الحرية. يعرف أنه يجب عليه

اختيار الخط المستقيم، على أن الدوران فقط هو الذي سيضمن له السلامة. أحضروا لي مسدسي، أشعر بحماسة بالغة، اجلبوا لي رصاصات معدّة لإطلاق النار، أحضر لي خنجري، ناظروا ودقّقوا، شاهدوني أقاتل ولا أتعرق، لن تروني أبكي، لن تروني أفرّ، ولن أوقف يديّ المرتجفة، إلى أن نستولي على ولاية النجم الوحيد(65) هذه، لنجعلها بيتًا وموطنًا. يصالب نفسه وهو جاثٍ بركبة واحدة على الأرض، يقوم، يتنفّس بعمق، ويتمنّى أن يكون هناك مصوّر بينهم لالتقاط اللحظة التي يبدأ فيها جريه. اللحظة التي يقوم فيها ميلاغرو بصولته المجيدة، سيُكتب أسفل الصورة، لاحظوا القوة التي يحمل بها الحربة، وبروز الأوردة في كل عضلاته، العزيمة على محيّاه، والوقفة الجريئة التي ستُلهم كل الأجيال القادمة من المكسيكيين؛ لاحظوا أيضًا، خلف بطلنا، نظرة الإعجاب من أثوثينا وإيماءة الخضوع من أوبالدو؛ ولاحظوا، أخيرًا، في حوض العربة، نتوء الرأس البائس لكومودورو البدين، الذي يقبض بيده عاليًا العلم المكسيكي المجعّد. أنا أعجوبة، يصرخ ميلاغرو متوعّدًا ببندقيته وحربته وهو يندفع بشكل متهوّر نحو الأمام، أنا أعجوبة. يُطلق العدو وابلًا من الرصاص لا يصيب هدفه لأن ميلاغرو، بخراقته واهتزازه، يترجرج إلى الأمام في خطّ متقطع ويثير الإعجاب بقدرته على المراوغة. أنا أعجوبة، وتكساس لنا، واللعنة على كل من يرفع أسلحته في وجه جيش المتنورين، وليلعن كل من يضع رصاصة في بطن كومودورو ألف مرة. تسارع أثوثينا وأوبالدو في الصعود إلى العربة وعندها فقط أدركت أنّها لا تعرف كيفية العد إلى العشرة. تسمح البوّابة بدخول شمس ساطعة بالكاد يكسفها الشبح الأصغر لميلاغرو. لقد تأخّرنا، يقول أوبالدو، لنجعل البغل ينطلق. تضرب أثوثينا كفله بالعصا، لكنّ البغل يخفق في التحرّك إلى الأمام، وعوضًا عن ذلك يجفل ويتراجع من دوي البارود. آمُرُك، يُثخّن أوبالدو صوته، بداعي الإنسانية التي تكمن في كلّ حيوان، للمضي قُدُماً برشاقةٍ ومهابة.

لا شيء.

توقّف إطلاق النار لأن شخصًا ما يعطي الأوامر على الجانب الآخر قد خلُصَ إلى أن الولد حامل الحربة نافد الرصاص، ومع اقترابه أكثر، يخلص أيضًا إلى أنّ الولد حامل الحربة ليس إنسانًا طبيعيًا. يواصل ميلاغرو الجري والادّعاء بأنه معجزة، مهدّدًا بحربته، ويتقدّم بقصد كسر حصار العدو إلى أن توقّعه لكمة صريعًا على الأرض.

لا يدرك كومودورو أيًا من هذا لأنه أغلق عينيه بإحكام لتجميع شجاعته متخيّلًا أن العربة تتقدم بسرعة سفينة حربية. عندما يظن أنها اللحظة المناسبة، أو ربّما عندما يستجمع شجاعته بشكل كافٍ، يقرّر التضحية بنفسه ليضمن حياة أصدقائه؛ ينهض ويقفز بأذرع مفتوحة صارخًا، تذكّروا ألامو. يراه ماتوس ساقطًا ويقرّر أنه من الأفضل أن ينتحي جانبًا.

لا تدرك أثوثينا أيًا من هذا، وهي تحاول التحدث إلى البغل بمودة.

سيريّو لن يدرك أيًا من هذا.

*

حلّ الليل عندما يضعونهم في حوض معدني كبير لمركبة خضراء. بمقاعد خشبية تدور على جانبيها، دون أيّ نوع من الوسائد، حيث يجلس الجنود مذعنين، وتستريح بنادقهم على أعقابها متوجهةً نحو السماء. أوبالدو يحسب سبعة خصوم، بالإضافة إلى اثنين يركبان في المقصورة. ميلاغرو يريد أيضًا أن يحسبهم، لكنه يُضيّع الحساب لأن يديه محشورتان في جيبيه؛ هناك أصابعه محاصرة بقبضتيه ومن الصعب عليه أن يلمسها واحدًا تلو الآخر بإبهامه، لكن يديه على ما يرام هناك، ممّا يقلّل من ارتعاش ذراعيه، والذي يمكن ملاحظته مع ذلك. ليس السبب بأنه خائف، يودّ أن يشرح لأعدائه، ولا بسبب البرد. أُجلِس بين اثنين من ذوي الرائحة الكريهة، الذين يرتدون زيًا غليظًا وشائكًا، وخوذات مملوءة بالقمل دون شك. يرى أبالدو في المقدّمة، بين اثنين منهم كذلك،

وميلاغرو يقوم بإشارات له ويحرك كتفيه للتواصل معه؛ يريد أن يخبره أنه من بين العديد من العتاد العسكري إلا أنهم لم يفكّروا قطّ بخوذاتهم، ربما لو أنّهم جرى تجهيزهم بأزياء أفضل لكان مصيرهم مختلفًا، ولكان جالسًا في مقصورة هذه المركبة، المليئة بالسجناء، محاولًا فك الشيفرة لآلية تشغيل المحرك. أوبالدو يشاهد إيماءات رفيقه ويفهمها بطريقته الخاصة: يمكننا أن نتغلب عليهم، يجب علينا القضاء عليهم والفرار. وهذا ما جعله يشير إليه بيده، انتظر، هذه ليست اللحظة المناسبة، دع المركبة تنطلق وتسير على طريق غير ممهد ويبدأ العدو في الإغفاء؛ حينها سنقوم بسرقة أسلحتهم، وتحت تهديد السلاح سنقوم بإنقاذ الفتاة وسيريّو وننزل إلى الحرية، وأولئك الذين يقومون بالقيادة لن يعلموا ما حدث حتّى يصلوا إلى مقرّهم ويكتشفوا رفاقهم مربّطين ومكممين في حوض المركبة. هذا إن لم تصرخ أثوثينا كما تفعل كل الفتيات، لأنه يعلم أنه عندما يحين الوقت للإلقاء بأنفسهم من المركبة المتحرّكة، قد تتردّد؛ سيمسك بيدها حتى يتمكّنا من الطيران في الهواء معا. الشيء الطبيعي أنه سيكون سقوطًا بطيئًا وهي تصرخ طول الطريق، ولكن حينئذ يلزم أن يكون هناك تغيير في الخطط لأن الرجال الجالسين في المقصورة سوف يسمعونها ويوقفون السيارة، وسيضطرون إلى قتلهم، ليس فورًا ولكن بالقنابل اليدوية.

أثوثينا ليس لديها سوى رجل واحد على يمينها، لأن المقصورة إلى يسارها؛ جهودها لحبس بكائها واضحة.

تنطلق السيارة وتميل أجساد المجموعة إلى جانب واحد في انسجام تبعًا لذلك. كومودورو لا يركب معهم، وضعوه في شاحنة صغيرة غادرت من فورها. وماتوس لم يكن بينهم أيضًا على متن المركبة، وأثوثينا تدعم روايته للأحداث: إنه قائدنا، فمن الطبيعي أن يأخذوه إلى غرفة التحقيق. أو لعلّه باعنا، يقول ميلاغرو، ربما أبلغهم بموقعنا، وكم هو عددنا، وكمية الأسلحة ونوعها، والآن بدلًا من أن يقوموا باستجوابه، يجلس على طاولة مغطّاة بقطعة قماش حمراء،

يشرب النبيذ. ويقطع شريحة من لحم الخنزير. اخرسوا، يأمرهم أوبالدو، ألم تدركوا أن العدو أتقن لغتنا؟

سرعان ما سئم زوج الجنود الذين يرافقون سيريّو من إبقائه معتدلًا، جالسًا في مكانه. استيقظ، هل تريد بعض الحلوى؟ من أين يمكن أن تأتي لأي شخص فكرة جلب طفل مثل هذا إلى منطقة العمليات بين الرجال ذوي الأيدي الخشنة؟ ساعدني، يا فيسينتي، يقول أحدهما للآخر، وبحرص شديد يضعونه في منتصف السرير، إلى جانب جزمهم الطويلة المغطاة بالأوساخ. كن حذرًا، لا تدعس عليه، والرجل الذي يُدعى فيسينتي ينزع قميصه ويصنع منه وسادة لرأس سيريّو. لطالما رغبت في مثل هذا، يهمس لرفيقه، وهو يحدّق في حذاء سيريّو الأبيض البارز معلقًا في الهواء، خارج السرير، وهو يفكّر، آملاً أن تكون الأربطة مشدودة.

يشعر أوبالدو بالإهانة لأن الجنود لم يربطوا أيديهم خلف ظهورهم، مع أغلال في الكواحل وأكياس من الخيش فوق رؤوسهم، مما يجعل تنفّسهم صعبًا، وأنّهم لا يلكمونهم بين الضلوع كلّ خمس دقائق. لا يستطيع أن يرفع عينيه عن المسدس الذي يحمله الرجل إلى يساره. يرتديه على خصره في حافظة جلدية غير مغلقة، بطريقة متفاخرة بحيث لا يمكن تجنّب الوقوع في إغراء السعي للاستيلاء عليه. وإذا لم يفعل ذلك إلى الآن فلأنّه لم يقرّر بعد ما إذا كان ينبغي عليه أن ينتزعه بحركة سريعة أو بطيئة. تتميّز السرعة بمزية السبق، لكنّه غير متأكّد فيما يتعلّق بالتفاصيل: يمكن أن تنتهي يدك ملفوفة بالكامل حول المؤخّرة، مع عدم وجود إصبع السبابة للقبض على الزناد، أو ما هو أسوأ، يمكنك القيام بحركة خاطئة وينتهي المسدس على الأرض، بحيث يستطيع أي جندي وضع حذائه فوقه؛ لقد سقط إلى جانبك، يا سيريّو، استولِ عليه وأجهز عليهم، يفتح الطفل عينيه ويحاول العثور على وضع أكثر راحة للعودة إلى النوم. ومن ناحية أخرى، فإنّ البطء يمتلك الخلسة في صالحه ويقين الحركة. لا يمكنك أن تفعلها وقتما تشاء، يجب أن تستفيد من سهو الجندي، وبلادته، ذهنه وهو ينجرف بعيدًا

إلى المرأة ممتلئة الصدر التي تزوره عبر السياج في القاعدة العسكرية؛ يشرعان بالقبلات، المداعبات، وفقط عندما يبدأ بفك أزرار قميصها، سيحمل أوبالدو المسدس في يده، وماسورته تشير إلى جبين أحد الأعداء، وهو يضبط سلطته على كلماته بعناية: ألقوا أسلحتكم وأغمضوا عيونكم. إذا لم يسحب الزناد فذلك لأنه سمع أن المسدسات لها أقفال تأمين، وسيكون مهينًا إصدار نقرة عوضًا عن دوي البارود. أثوثينا وميلاغرو يستوليان على البنادق، والآن يمكن أن يمضوا في خططهم، أو أفضل من ذلك، سوف يطرق على نافذة الكابينة ليطلب من السائق التوقّف. ستكون وجوه الأعداء جميعًا حينها إلى الأرض، وأيديهم خلف رقابهم. قبل هربهم، سوف يسأل إلى أي مستشفى أخذوا كومودورو؛ لا يتوقع ردًا فوريًا، لذلك سيهدّد بقتلهم جميعًا، الواحد تلو الآخر، إلى أن يتحدّثوا؛ بعد إيقاف أولهم أمام شجرة والتسديد صوبه، سيضعف أحدهم، حسنًا، أنت الرابح، وسيُدلي بالاسم والعنوان ورقم الهاتف، وسوف يقسم بأمّه أنه لا يعرف رقم الغرفة. لا يحتاج أوبالدو إلى الكثير من التفاصيل، فهو يعلم أنه من السهل إلهاء ممرضة الاستقبال للاستدلال على مكان كومودورو بدقّة في كشوفها الخاصة، وهو يتخيّل مدى سهولة إنقاذه إذا أخفيته في سلة غسيل قذر.

يقرر كيف سيستولي على المسدس: بحركة تشبه الحرباء، بطيئة في نهجها ثم سريعة في التمدد النهائي. يتظاهر بفرك مُنفرجه كنقطة انطلاق قبل تحريك يده إلى فخذه. ويستمر في رفعه فوق خصره، وعندما يوشك على دفعها نحو المسدس، يلتفت جندي العدو ويصفعه. اجلس ساكنًا، يأمره، ثم يعود إلى وضعه المستريح، دون أن يغلق الحافظة.

أهين أوبالدو بحقيقة أنه لم يكتّف ولم يُكمّم، لكن الإهانةَ الأصعب كانت بالصفعة والنظرة على وجه أثوثينا: التي لا يمكنها احتواء ضحكها.

*

تصل الشاحنة الخضراء إلى نقطة توقّف ويصحو المتنوّرون من سباتهم. أين

هو سيريو؟ تسأل أثوثينا. من؟ يقول أحد الجنود. الصبي الذي يرتدي الثياب البيضاء، يرد أوبالدو، الذي يرتدي ربطة عنق زرقاء فاتحة ويرقد على الأرض. ينظر الجنود بعضهم إلى بعض باستغراب، ثم يتهمون بعضهم بعضًا بعدم الانتباه، ويتلاومون. أحدهم يركض إلى المكان الذي قدِمَت منه المركبة؛ ربما وقع الحادث في الأمتار الأخيرة، ويمكنهم العثور عليه حيث سقط، مع نتوء على رأسه. تحوّل سيريو إلى شبح واختفى، تقول أثوثينا. وسيعود لمعاقبتكم جميعًا، يضيف ميلاغرو، مشيرًا إلى خصومه بإصبعه المرتجف. يضربه جندي على مؤخّرة عنقه بيده المفتوحة ويخبره بأنه في قاعدة عسكرية، وأنه غير مسموح له بالتحدّث إلا عندما يؤمر بذلك.

*

كومودورو يتشبث بظهر سريره ويرفض أن يتمّ إجراء عملية له قبل أن يرى أثوثينا أولًا. حاولت الممرضات إقناعه دون جدوى؛ بتن يناقشن الآن استخدام القوة أو تخديره. لماذا لا ننفذ له طلبه؟ تقترح أحداهن. في النهاية، الطبيب أثاييل دلغادو لم يأت وغرفة العمليات ليست جاهزة بعد. الجنديان اللذان أحضراه بقيا عند المدخل. من هي أثوثينا؟ أحدهما تسأل. إنها فرد من جيشي، يقول كومودورو، يمكنكم التعرف عليها بسهولة بسبب جمالها.

*

يعلن المعلق في الإذاعة أن الجوائز ستُمنح للفائزين في سباق مئتي متر. ويتحدث عن الفائزين، اثنين من الغرينجو وأسترالي، وعن أوقاتهم التي كانت جيدة، ولكن من دون كسر أي أرقام قياسية عالمية. ومن ثم أعلن أنهم سيقفون دقيقتين في صمت احترامًا للنشيد الوطني للولايات المتحدة، الذي هم على وشك سماعه. ينهض ماتوس ويصيح من زنزانته، وهو يمسك بالقضبان مثل مجرم وضيع، أطفئوا هذا الشيء، غيّروا المحطة. ينظر الحراس إليه بابتسامات ساخرة. يذهب أحدهم إلى الراديو ويرفع الصوت أعلى. يُغطّي ماتوس أذنيه

بيديه بمجرد سماعه للنغمات الست الأولى، لكنه لا يزال غير قادر على إيقاف الصوت، فيُسقط يديه لأنه يتقبل أن الأذن خاضعة، تسمع ما تريد وما تُنكر، ما تهمس به امرأة في الفراش وما تصرخ به الجارة على أطفالها؛ تستيقظ الأذن في الصباح لأن راكب دراجة نارية يقرّر النزول إلى الشارع. طوبى للعيون والأفواه التي تبقى مُطبقة، اللمسة التي تكون ملتبسة، الأنف الذي يمكن أن يُقرص فيغلق. عندما تتوقف الموسيقا أخيرًا، يتهاوى ماتوس مجدّدًا على سريره. يتكلّم المعلّق عن اثنين من الأمريكيين السود اللذين صعدا حافيا القدمين على المنصة، ويتحدّث عن كيفية خفضهما لرأسيهما، وكيف رفع كلّ منهما قبضته وهو يضع قفّازًا أسود خلال عزف النشيد الوطني(66). ينفجر ماتوس ضاحكًا، يا للأولاد المساكين، ذلك شيء عندما تستخدم جيسي أوينز(67) دعاية ضد العنصرية النازية، ولكنه أمر آخر عندما يريد زوجان من السود إدانة العنصرية المحلية. يشعر بالأسى من أجلهما، على أنه يعلم أنه سيكون من المستحيل كسبهما إلى صفّه بالشراب والأغاني.

يدخل النقيب آرغوييس بلفتة ودية. يقترب من زنزانة ماتوس ويحييه. آخر مرة كان لدينا سجين هنا كان الأمر يتعلّق بامرأة. كانت زوجة أحد الرقباء على علاقة بملازم، وكما يمكنك أن تتخيل أنه لم يكن الملازم هو الذي تم حبسه. ينظر ماتوس إليه دون أن يقول شيئًا، إلى أن تتحول تعابير النقيب إلى الجدية. لدي أخبارٌ جيدة بالنسبة إليك، يقول، سأسمح لك بالرحيل. يبدو أنك اخترت أفضل وقت لمغامرتك، لأنه مع كل ما يجري في العاصمة مكسيكو سيتي، فإنّ آخر ما نرغب به هو المزيد من جذب الانتباه إلى الجيش. نحن لا نلاحق أشخاصًا مبدئيين، مثلك أنت وأطفالك، نحن فقط نحاول الحفاظ على النظام. هل تفهمني؟ يهزّ ماتوس كتفيه. سيكون من الخير لك أن تنسى أنك سُجنت هنا، وتنسى أنك رأيتنا وكل ما تحدثنا عنه، وقبل كل شيء آخر أن تنسى الغرينجو. فكّر في الطريقة التي أنقذنا بها حياتك، لأنك لو عبرت الريو غراندي، فستجد

نفسك في تابوت، ويمكنك أن تثق من أن أحدًا لن يتحدث عن ميليشيا بطلة تهدف إلى استعادة أرض الآباء والأجداد، إنما مجموعة من العمال غير الشرعيين الذين يبحثون عن وظيفة، بعض الأوغاد المتضوّرين جوعًا والذين غريلتهم رصاصات الشرطة لمحاولتهم سرقة مزرعة. يصرّ ماتوس بأسنانه، فهو لم يتفوّه بكلمة عن غزو تكساس ويسأل نفسه من ترى يكون الواشي من بين المتنورين. يفترض أنه كومودورو، لأن رصاصة في الجسد تليّن الطباع، خاصة عندما تجد نفسك محاطًا بالأطباء الذين يحقنونك بالأمصال والأدوية. يضع قميصه دون أن يزرّره. وسيريّو؟ يسأل، محبطًا، أما زلتم تبحثون عنه؟ ما نبحث عنه هم رجال العصابات الحقيقيون، لكن إذا عثرنا على جنديك الصغير، فسوف نعيده إليك سليمًا معافى. ليس لديك حسابات مفتوحة مع الجيش، ولكن يبقى أن نرى ما إذا كان والِدا أحد هؤلاء الأطفال قد يقدّم شكوى لدى السلطة المدنية. سنسلمك حقائبهم المدرسية ومقتنياتهم الأخرى، التي لا تحوي أيّ شيء محظور بموجب قوانيننا، أو أي شيء يهدّد السلم العام. يضع ماتوس قدمَيه في حذائه دون أن يربطه. أيمكنني الذهاب؟ الأمر ليس بهذه السهولة، يا سيد ماتوس، لا يزال يتعين علينا العناية بقضية الشخص الميت، وما زلنا بحاجة لمعرفة ما أو من نتهمه به. أي رجل ميت؟ ألم يُبلغك أحد؟ يرد النقيب آرغوييس، وماتوس يصلّي ليكون هو الرجل الذي كان على وشك الاحتفال بعيد ميلاده.

*

أخبروا ماتوس بأن الرصاصة لم تقتلني، ولكنها أيضا لم تكن من مرتبتي بوصفي أحد المتنوّرين، ولأنه يعلم أنه لم يصل دوري إلى الآن. ولكن كيف، بعد صمودي حتى النصر، يمكنني العودة مهزومًا هذا العالم المليء بالمستنقعات والذي حاولت تركه ورائي؛ كيف، بعد أن فتحت ألامو، سيُصار إلى اختزالي في التقاط الرماد وأعقاب السجائر وزجاجات الجعة الفارغة وفقدان حريتي حتى أثناء عبور الشارع؛ كيف يمكنني، بعد حمل بندقية، أن أكون على استعداد لتحمّل

صفعة على الرأس، وأمرٍ بالعودة إلى المعهد، وعلبة من الألوان لرسم الأشجار والقطط والغيوم والشموس والمنازل التي تعلوها المداخن دائمًا؛ كيف يمكنني الاستماع إلى المزيد من القصص عن الكتاكيت الصغيرة التي ترغب في أن تكون ملوكًا بهدف وحيد هو إعلامنا بأن حتى الكتاكيت تحقق أشياء لا نتمكّن منها نحن، فأين هو تاجي، وأين هي ميدالية ماتوس، وأين هو نصب سيريّو، أين هي عباءات البارونة غونزاليز، أين هي القصة الحقيقية لجيش المتنوّرين الذي لا يقهر والذي أرهب أعداءه بهجمات خيّالته المتعطشين للدماء، أين هي خرائط الجمهورية المكسيكية مع الحدود الداخلية من ريو غراندي؟ لن أقبل بذلك، لقد فقدت الإرادة لأن أكون مثل غيري من المتنورين، لن أسمح لهم بإذلالي من أجل لا شيء، لا حجر الدومينو الذي لا أعرف كيف ألعبه، ولا لأنني لم أكن أعرف كيف أطأطئ قبل تلقي رمية من الجانب الآخر، ولا بسبب طبقات شحومي الثلاثية، ولا لبناطيلي المهترئة دائمًا عند المنفرج؟ ليس بعد أن كرّستُ نفسي لمهمة ضحيت فيها بدمي، ليس بعد أن أصبحت أقوى في الروح والشجاعة من كل الآخرين الذين يريدون أن يحكموا عليّ، وأن يصنفوني، وأن يدينوني.

وداعًا، يا كومودورو، تقول أثوثينا، مبارك أنت بالرصاصة في بطنك.

*

تراقبهم أثوثينا وهم يأخذون كومودورو في ممرّ أبيض على سرير ذي عجلات. تقترب ممرضة وتقدّم لها قطعة حلوى. سمعتُ ما قاله صديقك الصغير، لكن لا داعي للقلق، إن حالته ليست خطيرة، إنها عملية روتينية والطبيب أثاييل دلغادو هو أفضل جرّاح في المدينة. تنزل أثوثينا الدرج حتى تصل إلى الطابق الأول. تجد الكثير من الكراسي هناك، معظمهما يشغلها أناس ينتظرون. إنها تفترض أن هذه هي وظيفتها: الانتظار. تستقر في كرسي بلاستيكي وتمدّ قطعة الحلوى إلى طفل يحدّق بفضول في وجهها.

*

في السجلات الفوضوية للمستشفى الإقليمي لمدينة مونتيزي، يمكن العثور على تقرير طبّي جرى توقيعه من قبل الطبيب أثاييل دلغادو، الطبيب المناوب، والذي يمكن انطلاقا منه تجميع المعلومات التالية: وصل المريض كومودورو إلى المستشفى بجرح رصاصة مع نقطة دخول بزاوية شُزسوفِيّة(68). انقسمت الرصاصة إلى شظيتين، أحداهما سكنت القولون المستعرض والأخرى في النسيج الكبدي. وكلتاهما كانتا مهددتين للحياة، ولهذا السبب تم إلغاء إمكانية إزالتهما في عمليات منفصلة. استغرقت العملية أكثر من ثلاث ساعات بقليل، وكانت معقّدة بسبب الطبقة السميكة من الدهون التي كان لا بد من التعامل معها من أجل الوصول إلى الشظايا المذكورة. تتبع ذلك جملة غير واضحة في التقرير، فيها كلمة وحيدة معروفة هي مخدر. في نهاية المستند، بخط مختلف، هناك ملاحظة تفيد بأن الأمر استلزم إحدى عشرة وحدة من الدم من الزمرة O سالب.

Telegram:@mbooks90

*

لن تتحدث أثوثينا أبدًا مع ماتوس مرة أخرى، ولا تنوي أن تكشف له كلمات كومودورو لأنها كانت هي من رأته يسقط في ألامو، ورأته يبكي من الألم، ورأت الدماء تلطخ قميصه؛ تعرف أن زوجها لن يتركها أرملةً بداعي غضبه جرّاء هزيمتهم؛ لأنه لم يعد بهما إلى مكان يُعيدان فيه تركيب أحجيّات الصور المكوّنة من أربع وعشرين قطعة، وفي أيام الجمعة يُسمح لهم بأخذ قطعة خبز من السلة. إنها تعرف تمامًا أن زوجها توفي من جرح ناجم عن رصاصة، تقتُل بطلًا قوميًا أو مثير مشكلات سكير، على السواء.

*

توجد شكوى بتاريخ 15 أكتوبر 1968 في ملفات الشرطة القضائية في نويفو ليون. وفيها، يفيد السيد لويس إفاريستو دافيلا سانشيز بأن مزرعته الواقعة في مقاطعة إل بيريكو، بلدة أناواك، قد تعرضت للتخريب من قبل

أشخاص مجهولين. وشملت الأضرار التي لحقت بالمبنى ثقوبًا متعددة بسبب الرصاص أثرت على مقدمة المنزل، وكسرت الزجاج، وحطمت الأبواب الخشبية والنوافذ، وكان على أحد الجدران الداخلية رسم لعلم مكسيكي مشوّه مع كتكوت إمبراطوري في مكان النسر، وذلك، كما يفهم، جريمة فيدرالية.

من الواضح أن الشكوى لم تسفر عن شيء، لأن الجزء الأكبر من الضرر كان سببه الجيش المكسيكي نفسه. يمكن للمرء أن يفترض أن دافيلا سانشيز قدّمها استجابة لنصيحة محام: بهذه الطريقة تغسل يديك من أي مسؤولية، وتوضح لهم بأنك لم تسلّم ملكيتك إلى هؤلاء المتمردين.

ومع ذلك، فإن الوثيقة مفيدة لتحديد موقع جماعة المتنوّرين، الذين كانوا لا يزالون على مبعدة أربعين كيلومترًا من الحدود. في هذه الحالة، لا بدّ وأن يكون النهر الذي عبروه هو جدول كامارون، والذي أصبح الآن جافًا معظم أيام السنة.

في إطار تقدير الأضرار، لم يذكر دافيلا سانشيز السرير الذي تحوّل إلى رماد.

*

منذ أن عرف ماتوس بموت كومودورو، تخيّل دفنه في يوم رمادي وممطر، ليس مطرًا خفيفًا، بل بغزارة شديدة مع الرعد والبرق التي تكتم أصوات البكاء والصلوات؛ إلا أنه ومع ذلك، فالسماء زرقاء والشمس تضرب دون رحمة، كما لو أنّ المدينة لم تفقد أكثر أبنائها إقدامًا. يتقدّم ماتوس ورامون أمام التابوت. وسانتياغو وموظّف في دار الجنائز في الخلف، لأن إيبانييز يرفض المشاركة. يُضحّي كومودورو بحياته لبلاده ولا يكسب حتّى امتنان أربعة أزواج من الأذرع لحمله. إذن كيف يمكن لوالدة سيريّو أن تنتظر تمثالًا لابنها؟ تمامًا مثل الآخرين سوف تنتظر عبثًا لفقرة وجيزة أو حتى سطرين في الفصل الثامن من الكتاب المدرسي لتاريخ المكسيك. صورة لخمسة أشخاص متنورين بجانب الجنود الفتيان في الحرب المكسيكية-الأميركية. قل لي، يا معلمي، من كان كومودورو

البدين؟ من هو سيرڤو، أوبالدو، وذاك الشخص الذي يدعى المعجزة؟ يتخيل ماتوس نفسه مجذدًا في المدرسة، ولكنه الآن مع طلاب متفتحين ومعجبين به بشكل غير محدود، ولا يشتكون لأمهاتهم. وهو يكرّس اهتمامًا خاصًا لتعليمهم عن تضحية كومودورو البدين، الذي استمرّ في إطلاق النار حتى ذابت البندقية في يديه؛ ويدحرج لهم أسطورة سيرڤو، فيقول إن هناك حيث وَقَعَ توجد شجرة جوز صلبة كالصخر؛ وقد تحطّم لعمال الغابات أكثر من فأس في محاولة إسقاطها، إلى أن قرّروا، خاضعين، بناء مذبح حول الجذور؛ وقبل أن يتحدّث عن الجنود الآخرين، يقاطعه طالب: معلمي، من كانت أثوثينا؟ لا تقل لي إن تاريخنا الوطني يشمل امرأة أخرى وليس فقط السيدة خوسيفا(69)؟ وماتوس، الذي يوقع الآن باسم الجنرال ماتوس، يعرف أن الوقت قد حان لمنح أثوثينا مكانتها المميزة، وهي الصفحة الأولى من سلسلة مخصصة للنساء. السيدة خوسيفا دخلت التاريخ لأنه من الضروري إتاحة المجال للمرأة، على أنها في نهاية المطاف لم تكن أكثر من سيدة متطفّلة عجوز لم تقم بأيّ شيء، والله وحده يعلم ما إذا كانت نزعتها إلى القيل والقال هي التي أزرَت بأجدادنا الأوائل. ولهذا السبب، سيتم استبعادها، لن نحتاجها بعد الآن، تمامًا كما لا نحتاج إلى مارغاريتا ماسا دي خواريز(70)، وهي امرأة أخرى عديمة الفائدة لا تمثّل سوى المرأة البيضاء التي دنّسها الهنود. الآن يمكن أن تكون أثوثينا هي الشخص الذي يملأ هذه الصفحات الأساسية، بحيث لا يستطيع أحد الادّعاء بأن التاريخ يصنعه الرجال فقط، كما أن الصورة الجانبية لأثوثينا هي التي سنشاهدها على عملة السنتات الخمس.

لا أستطيع السير أبعد من ذلك، يقول رامون، وهم يبحثون عن ضريح يضعون التابوت عليه. سمعت أن الموتى يزنون أقلّ من الأحياء، لكن كومودورو يناقض القاعدة. أنا واثق بأن السبب هو الرصاص الذي لا يزال يحمله في جوفه، يقول سانتياغو. يمكنني طلب المساعدة، يقول الموظّف في دار الجنازات،

الذي يتصرّف وكأنه في عجلة من أمره للعودة إلى دار الجنازات. أرجوكم، يقول رامون، إن ظهري يتكسر. ينظر ماتوس إلى أصدقائه موبّخًا. ما سيكون طبيعيًا هو موكب من مئات أو آلاف المشيعين الذين يتناوبون في كل دقيقة حمل النعش كحرّاس شرف، والمئات من كلمات الإطراء التي يتلوها الأصدقاء والسياسيون وقادة النقابات، مع قبر لا يمكنك أن تلقي به أيّ تراب لأنه مليء بالزهور؛ ما سيكون طبيعيًا هو ألا يكون في هذه المقبرة في مونتيزي، ولكن في العاصمة، في مستديرة الرجال اللامعين. لكن ماتوس لا يهتمّ بالمراثي، فمجرد وجوده هنا مستريحًا على هذا القبر المجهول هو انتصار، لأنّه بعد تبادل موسع للكلمات مع النقيب آرغوييس، استطاع أن ينقذ كومودورو البدين من المدفن المتواضع غير المميز الذي اختاروه له في القاعدة العسكرية. لم يتبادر إلى ذهنه أبدًا أنه سيضطر إلى التذلل بهذه الطريقة؛ تحدث ماتوس بلطف، ووعد النقيب بأن كل شيء سيكون متحفظًا، دون إعلان في الصحف ولا دعوات عبر الهاتف. كان يخفض رأسه في كل مرة يقول بها أرجوك، لن يكون هناك سوى أربعة منا اللازمين لحمل التابوت. تظاهر النقيب آرغوييس بأنه يفكّر في الأمر، لأن ماتوس كان يعلم أن القرارات يتم اتخاذها من قبل رئيس لم يره وجهه قطّ. سأقدم لك إجابة في وقت لاحق، قال، وفي وقتٍ لاحق كان الرد بالإيجاب. حسنًا، وافق النقيب، لكننا سنراقبك. لهذا السبب عندما أبلغه موظف دار الجنازات بأنه وجد رجلين لمساعدتهما، وأن الأمر سيستغرق دقيقة واحدة فقط لأنهما كانا يصلّيان من أجل أمهما المتوفاة، يعرف ماتوس أنهما جنديان تم إرسالهما من القاعدة العسكرية لضمان التحفظ في الدفن. تكلم عن روح الراحل، قال النقيب آرغوييس، وتجنّب الخطابات الوطنية.

يصل الشابان ويستلمان النعش من الأمام، الجزء الأثقل؛ ويأخذ ماتوس والموظف بالطرف الآخر ويبدأ الموكب. فقط لكي لا يشعروا بأنهما عديما الفائدة، يقوم سانتياغو ورامون بسرقة زهور طازجة من بعض القبور.

عندما يصلون إلى قبر كومودورو، يجدون بانتظارهم هناك اثنين من حفاري القبور. قاما بإزالة الغطاء وفتحا زوجًا من الأشرطة الجلدية التي سيتم استخدامها لإنزال المتوفى؛ على الرغم أنهما يرتديان ملابس العمال، إلا أن ماتوس لا يثق بهما ويشك بأنهما جنديان متنكران.

*

لقد كان من دواعي سروري مساعدتكم، يقول أحد الرجلين، إذا كنتم بحاجة إلى أي شيء آخر، فسوف نتلو بضع صلوات أخرى عند قبر أمي. يبادلهم ماتوس بابتسامة ساخرة. ولأنه ليس واثقًا تمامًا، ولاحتمال بعيد بأنهم يزورون قبر أمهم حقًا، فإنه يمتنع عن البصق في وجوههم. يتمنى لو أنه اعترض على إجراءات دار الجنازات؛ لربما كان بإمكانه أن يطلب إتمام الدفن في وقت لاحق، عند الغسق، بحيث يمكن للضوء الباهت للقمر أن يكوّن تأثيرًا يماثل الصور التاريخية القديمة، وهو أمر قد يعيد الاعتبار لمثل هذا الحدث الكئيب، إذ إن الحاضر لا ينسجم أبدًا مع أيّ من قيم البلاغة أو المهابة. الحاضر يبدو له ساذجًا ومبتذلًا. في واحدة من تلك الحواضر، يوبّخ المعلمُ في المعهد كومودورو لأنه يرمي الفتات، أو يوبخه ماتوس لأنه لا يضع حجر الدومينو في مكانه الصحيح. وعندما يصبح كومودورو جزءًا من الماضي، لا يعود لحجر الدومينو أو الخبز أي أهمية؛ المهم هو الرصاصة في جسد كومودورو وأنفاسه الذابلة لأن، نعم، أيها السيدات والسادة، والأولاد والبنات، هذا المحارب أراد أن يكرّم الوطن، وكان يحلم بأنه كان يكرمه. الحاضر يُقزّم، لأن الإنسان لا يخرج لاستكشاف العالم، وذلك لأن زوجته تطلب المال من أجل نفقات البيت؛ الشباب لا يشتركون في الجيش لأن لديهم اختبارًا في الجغرافيا غدًا؛ لا يتم تدريس التاريخ لأنه لا قيمة له في معادلات الجمع والطرح؛ الزوجة لا تؤدي ما لا تفعله عادة في كل الأحوال لأن عليها أن تجلب الخضار. إن مطالب الحاضر لا علاقة لها بالتاريخ، كما يُحدّث ماتوس نفسه، وكومودورو البدين هو تاريخ المكسيك في أربعة مجلدات، من سقوط تينوتشيتتلان(71)

حتى الوقت الحاضر.

دعوني وشأني، طلب ماتوس، وهو يركع على حافة القبر. لم يكن الأمر عبثًا، يا كومودورو، ألامو لنا، تكساس تتحدث الإسبانية والغرينجو لا يزالون يفرّون ويختبئون، مرتجفين تحت الأسرة الخشبية. بلاد الآباء والأجداد تحييك، يا كومودورو، المكسيك تنام اليوم بسلام، آمنة من العُقبان. فلتكن مباركًا أيها الجندي. يقف وينضم إلى أصدقائه. لا يبقى لرؤية العمال يضعون غطاء القبر في مكانه. ارقد بسلام، يا كومودورو البدين، السيد الشاب الكونديستابلي، حبة الفاصوليا التي لا تقهر؛ ارقد بسلام مُطبقًا عينيك بإحكام في وجه الظلام الأبدي لأنه لم يكن لدينا غطاء زجاجي.

*

عزيزي سنيور(72) ماتوس، ربما تعرف أن زوجي توفي قبل عشر سنوات، أو ربما لم تحصل على هذه الأخبار في بلدك البربري. على أننا لم نردّ على رسائلك، إلا أنك كنت دائمًا في أذهاننا، أكثر مما كنا نحب، فمنذ عام 1924، في كل مرة كان كلارنس يركض في ماراثون بوسطن كان فيها ينافسك. اعتاد أن يقول لي إنه ليس بحاجة فقط للفوز ضدّ جميع المشاركين، ولكن أيضا ضد سنيور ماتوس. أحيانًا دعاك بالاسم، وأحيانًا أشار إليك باسم المكسيكي أو العداء من مونتيرّي. كان كلارنس عداء طوال حياته، ودعاه الناس السيد ماراثون، وفاز سبع مرات في بوسطن، حيث كان الميدان أكثر صعوبة من ذاك الموجود في باريس. هناك انحدار حادّ في النهاية يعرف باسم تلة سحق القلب، وأؤكّد لك أنك لن تتحمّله. يقول التاريخ أن لا مكسيكي فاز في بوسطن أبدًا وأعرف أن لا أحد سيفوز.

أنا أخبرك بذلك لأنك، مهما حققت في حياتك، فلم تصل قطّ إلى القدر الذي بلغه حبيبي كلارنس.

ركض ماراثونه الأخير في عام 1954، وهو في عمر يناهز الخامسة والسبعين.

ثم مرض، السرطان ملأ جسده بالديدان.

في إحدى الليالي، وهو طريح الفراش، وقال لي: إذا عقدت الألعاب الأولمبية في يوم من الأيام في المكسيك، ابعثي بميداليتي إلى سنيور ماتوس. لم أكن أعرف قطّ ما إذا كان يمزح أم يهذي؛ لم يكن هناك وقت لمعرفة ذلك لأنه توفي في اليوم التالي. لذا، فأنا مضطرة للامتثال لرغبة زوجي الأخيرة.

استمتع بالميدالية، واستمتع بانتصارك المختلق، واستمتع بالمكان الفارغ في صندوق معروضاتي؛ أخبر أصدقاءك، إن كان لك أصدقاء، أو زوجتك، إذا كان هناك من أحبّك يومًا، أن يَذعُوا الصحافة، ودعنا نرى ما إذا كانوا مهتمين بقصة الكتاب الهزلي للرجل الشاحب، لأنني لا تساورني ذرة من الشك: إن كنت على قيد الحياة، فلا بدّ وأن تكون رجلًا مسنًّا بائسًا، غير قادر على عبور خط النهاية مرة أخيرة وذراعيك في الهواء. هاكها، يا سنيور ماتوس، استمتع بميداليتك عن المركز الثالث، ارفع نخبك من الخمر الرخيصة.

مع الودّ، مارغريت ديمار

*

ألن تفتح الصندوق؟ بالتأكيد سأفتحه، يقول ماتوس. كلمات السيدة ديمار الساخرة غير مهمّة؛ هذه الميدالية لي، ودائمًا كانت كذلك. يطوي الرسالة ببطء ويعيدها إلى الظرف. يحدّق في الصندوق على المنضدة، جلده الخارجي، والمشبك الذهبي، ويسأل نفسه إذا كانت الميدالية الأصلية بداخله أو إن كانت زوجة كلارنس، في فورة استيائها، ربما قررت إرسال نسخة مقلّدة عنها، أو ليست حتى نسخة مقلّدة بل ميدالية حصلت عليها من إحدى محلات التذكارات، بالنتيجة فالمكسيكي الغبي لا يستحق، وبالنسبة إليه كلّ ما يلمع هو برونز. وفي هذه المرحلة يدرك ماتوس أنه على أيّ حال لا يملك فكرة عمّا تبدو عليه الميداليات التي جرى توزيعها في باريس، وليس لديه خيار آخر سوى فتح

الصندوق والثقة في نزاهة تلك المرأة التي لا يعرفها ولن يعرفها، والتي تبعث بموذتها التي ليست بموذة، وأن يثق، أول مرة في حياته، بشخص ولد شمال ريو غراندي ويقيم هناك، أن يثق بامرأة تدعى مارغريت وميزتها العظيمة لا تعدو خبز فطائر الأحد في سوق كنيستها والتصفيق من الخطوط الجانبية لخطوات زوجها. لنَرَ، يا عزيزتي مارغريت، إن كنتِ أهلًا لثقتي. يفتح ماتوس الصندوق؛ المشبك لا يطق، ولا صرير من أيّ نوع يصدر من المفضّلات الصغيرة، وانظروا: هناك عملة هائلة عليها صورة رجلين عاريين، أحدهما واقف على قدميه، والآخر يجلس على الأرض، يتصافحان الأيدي، وتحتهما الحلقات الأولمبية. كان ماتوس يتوقع أن يكون هناك ثقب في الأعلى يمرّ خلاله شريط الطوق، مثلما كان يتوقع أن هناك شريطًا أزرق اللون. يدير سانتياغو الميدالية. كلاهما يتأملها بإعجاب لفترة وجيزة ويتفق على أنه يفضل هذا الجانب. صورٌ لمعدات رياضية: كرات، قرص الرمي، مطرقة صغيرة، رمح، قرص الهوكي، وأدوات أخرى غير معروفة؛ هناك كلمة باريس ورقم 1924، لا يوجد مثليان متشابكا الأيدي. يحدّث ماتوس نفسه بأنها أصلية، وأن مارغريت لم تحاول خداعه. وعلى الرغم أنه لا يستطيع تمييز البرونز، إلا أنه يرى أنها ليست ذهبًا أو فضة.

انتظرتُ أربعة وأربعين عامًا ثم حصّلت عليها، وذلك بفضل توصيات رجل ميت، شخص لا يمكنه أن يكون أكثر من عظام مهشّمة تحت واحدة من تلك الشواهد الرخامية العادية، في مقبرة خضراء في فصل الصيف وبيضاء في الشتاء؛ هنا يرقد كلارنس ديمار، الذي حلَّ رابعًا في دورة باريس للألعاب الأولمبية، وسمح لنفسه بأن يتعدّاه فنلندي، وإيطالي، والجنرال إغناثيو ماتوس، الذي في النهاية، أظهر شجاعة فائقة، مقاومًا الألم، باعثًا الأوامر إلى الساقين اللتين كانتا غير قادرتين على المضي قدمًا، وعبر أمام المنافس الأمريكي الذي يعدُّ الأثير لدى الكثيرين، ونجح في خطف أربع وعشرين ثانية من الغنيمة ليأتي في المركز الثالث. أيها السيدات والسادة، يعيش الجنرال ماتوس، يعيش هذا الرياضي العظيم الذي جاء من مونتيرّي، الذي منح بلدنا ميداليتها الأولى

في صراع الأولمبياد. يرفع ماتوس ذراعيه وسانتياغو يلتقط الميدالية. إنه من دواعي فخري ورضاي أن أمنحك هذه الشارة الثمينة تقديرًا لاجتهاد ساقيك والنضال الشجاع لقلبك، ولسوف ترتديها حتى آخر أيامك، من أجل متعتك الشخصية ومن أجل هيبة بلدك. ولأنه لا يوجد شريط، يقدّمها سانتياغو إليه بين إصبعيه الإبهام والسبّابة، كما لو أنه يمنح صدقة لشحاذ. يشبك ماتوس ذراعيه ويرفض أخذها. لا، يقول، أربعة وأربعون عامًا وقت طويل، وعليّ أن أثبت للعالم أنني ما زلت أهلًا لهذا التقدير المهمّ.

*

يرنّ الهاتف عدة مرات لكن ماتوس ليس لديه الرغبة في الردّ عليه؛ لو علم أنّها المرأة التي تعلن شارة الساعة من اليوم لكان التقط سماعة الهاتف. مرحبًا، من على الخط؟ عند الإشارة تكون الساعة 12:30 ظهرًا، الساعة 4:15 صباحًا، الساعة 10:00 صباحًا. صوت لا يوجّه أسئلة ولا يوبّخ ولا يهدّد، قادر فقط على التعبير عن 720 ردًا على السؤال نفسه، ما هو الوقت أو كم هي الساعة، أو أي مرادف من هذا القبيل يُعدّ، في النهاية، نفس الشيء، ولا يستطيع ماتوس التفكير في سؤال لا يشير إلى الوقت ويمكن أن تجيب عليه تلك المرأة. يشرب المتبقي من جعته ويصيح على كومودورو. أحضر لي زجاجة أخرى، يا كومودورو، لماذا لم تُجب على الهاتف، يا كومودورو؟ لو لم تكن بدينًا، لكانت الرصاصة دخلت وخرجت وستبقى على قيد الحياة ولن أكون وحدي وسآخذك غدًا بيدي إلى المعهد لتتعلم بعض الألحان وتختنق في الجيلو، لكي يُعيد المعلم عليك أنك لست أحمق ولكنه يستمرّ في معاملتك كما لو أنك كذلك، ومرعوبًا لأنك يومًا ما ذهبت إلى الحرب عوضًا عن قراءة ذلك العنب الذي يبدأ بالحرف ع. يرن الهاتف مجدّدًا، إحدى عشرة رنة قبل أن يتوقّف. لا يبدو غريبًا بالنسبة له أن الهاتف اخترع في نهاية القرن التاسع عشر، عصر الاستبداد، عندما لم يكن لأحد أن يحلم بأن الجهاز قد يعلن عن نفسه بصوت قيثارة، كان من اللازم أن يكون

ساحقًا، مدمرًا لأعصابك، أن يكون قادرًا على قطع لعبة دومينو، محادثة، أو مواقعة؛ يمكنك بسهولة أكبر تجاهل صرير أم آريتشاڤاليتا. دقّ المعدن بالمعدن سيكون كافيًا بالنسبة لي، ضربة واحدة، صوت يشبه الصوت الذي سيصدر في غضون بضعة أسابيع أو شهور أو سنوات من بطن قبر كومودورو. سوف يُنهش جثمانه تمامًا إلى أن تتحرر الرصاصة التي قتلته؛ سوف تسقط بصوت الرصاص الذاوي على الخشب وتُفزع بعض الحشرات التي جعلت من كومودورو بيتًا لها. سيكونون هم وحدهم الذين يسمعون، لأن الصوت لن يكون مرتفعًا بما يكفي للهروب من القبر، ولأن تسمعه أرملة تمر بالجوار وتظن بأنه لا بدّ وأن يكون هناك طفل يحاول الخروج. أنا كومودورو البدين، أخرجوني من هنا، طلبتُ قبرًا زجاجيًا. يبدأ الهاتف في الرنين مرة أخرى ويقوم ماتوس لأن الصوت يسلبه خياله. يقرر الذهاب إلى المطبخ من أجل جعة ثانية. وماذا لو كانت هي المرأة التي تعلن شارة الساعة؟ ماذا لو كانت أول مرة تخرق روتينها وتتصل بي؟ يا سيد ماتوس، إنها 8 أو 9 أو 10 وأنا أحبك وأعذرني لأنني كنت دائمًا جافة معك، إنها 11 وأريدك في سريري، إنها 12 إلى بقية حياتنا، 12:01. يركض إلى الهاتف ويلتقط السماعة. بعد بضع ثوان من الصمت يسأل ما هو الوقت؟ بضع ثوانٍ أخرى وستكون 10:15، يقول صوت أنثى، أكثر نعومة وأكثر ترددًا من المعتاد. هل أنت المرأة التي تحكي الوقت؟ لقد أخبرتك للتو ما هو الوقت، سيد ماتوس، أنا أم سيريّو. رد الفعل الأول لماتوس هو أن يغلق الخط: لقد فكر كثيرًا في الوقت الذي سيتحدث فيه مع هذه المرأة، لكنه لم يجهّز بعد تفسيرًا واضحًا ومتماسكًا. يوّد لو يتحول إلى الذكر الذي يحكي الوقت، ولا يجيب على أسئلة لرجال جيش أو أمهات أو متنورين، ما لم يتمكن من الإجابة عليهم بالوقت. إنها10:16، يُخبر المرأة. أعلم، تردّ، وأعلم أيضًا أن ثلاثة من الأطفال عادوا إلى المعهد، واكتشفت أن كومودورو لن يعود وأفترض أن ابني لن يعود كذلك. يميل ماتوس إلى الجدار ويرخي ساقيه إلى أن ينتهي بالجلوس على الأرض. لست جاهزة بعد للحصول على التفاصيل، أخبرني فقط إذا كان سيريّو قد سقط مثل

بطل. يفكّر ماتوس أن الفعل سَقَطَ له دلالة أخرى عند المرأة، لأنه بالنسبة إليه يستدعي اللحظة التي سقط فيها سيريّو من المركبة العسكرية بينما كانت ترتجُّ في الطريق؛ يتخيل قيوطًا جائعًا يتلذذ بقطعة اللحم الباكية المتجعّدة في مكانها مرتدية البياض، وكانت تريد تهويدة، ولكنها حصلت على أنياب ضارية بدلًا منها. نعم، يا سيدتي، نادرًا ما شوهدت مثل تلك البسالة البالغة في مُقاتل. تنتهي المحادثة ويترك ماتوس سماعة الهاتف مرفوعة. إنها الساعة 10:17 هناك الكثير من الليل المتبقي لسيريّو ليسقط مئات المرات، ولكومودورو لأن يُثقب بشظايا لا تحصى.

*

التقرير الطبي للطبيب أثاييل دلغادو أخفق أيضًا في ذكر أنهم عندما ظنوا أن المخدر بدأ مفعوله وبينما كانوا يستعدون لبدء الشق، استخرج كومودورو البدين خيارة من مئزره أو طيّة من طيات جلده وقضمها بصوت صاخب. وسارعت ممرضة إلى انتزاعها من يده.

في النهاية لم يسأل أحدٌ ماذا يُفعل بالجثمان، لأن كل شخص في المستشفى كان يعرف الإجراءات. كان سؤال الممرضة ماذا أفعل بالخيارة؟ هز الطبيب دلغادو كتفيه وقال: لا أعرف، ارميها في القمامة أو كُليها. وضعتها الممرضة على قمة كومة من الفضلات، وقطع مدماة من الشاش والكرات القطنية والخيوط الجراحية. ولم تكن تعرف السبب في أن مرأى هذه الخيارة المقضومة يزعجها أكثر من الكفن المنتفخ فوق طاولة العمليات.

*

أمضت أثوثينا اليوم صامتة حبيسة غرفتها؛ لم ترغب في تناول الطعام أو مشاهدة التلفزيون. أمها في غرفة المعيشة تشرب القهوة مع بعض الصديقات. وتتحدث عن آخر نزوات ابنتها. طلبت مني فستانًا أسود، وتقول إنها تريد لبسه

كل يوم مدة عام. تبتسم النساء. إحداهن تشرب قهوتها وتقول إن مثل هذه الفتاة الجميلة لا ينبغي أن ترتدي ألوانًا حزينة.

*

سيد ماتوس، أنا الآن مستعدة لجميع التفاصيل. لم يكن ليظن قط أن هذه المحادثة ستجري عبر الهاتف، فقد تخيل أنها ستجري في مطعم، في كنيسة صغيرة، على مقعد في حديقة مهجورة ليلًا، ومع ذلك فهو يفضلها بهذه الطريقة: هي على بُعد بضعة كيلومترات، مع عدم وجود أي خيار آخر عدا سماع صوته، لا ضجة؛ ربما بعض البكاء، ولكن دون دموع، ربما غضب ولكن دون نظرات جارحة، ربما ردود أفعال ثائرة دون فرصة لاستعمال أظافرها أو صفعه. التفاصيل مؤلمة، يا سيدتي، هل أنت متأكدة أنك تريدين سماعها؟ ألا يكفي أن تعرفي أن سيريّو كان شجاعًا؟ لست بحاجة إلى حرب للتعرف على الشجاعة، يا سيد ماتوس؛ الآن أريد أن أعرف قصته. أنت ملزم بإبلاغ أمهات القتلى بالحقائق، خاصة وأنك لم تُعِد جثمانه إليّ، لأن خيالي قد يكون أسوأ، خيالٌ يرسل الجميع هاربين لإنقاذ جلودهم، بينما بقى ابني وحده في خندقه النتن يطلق النار حتى نفذت ذخيرته؛ ثم وقع في الأسر وعُذّب حتى الموت دون أن ينبس بكلمة واحدة، كل ذلك لحماية مجموعة من الجبناء الذين فرّوا مع أول إطلاقة. بالطبع، يا سيدتي، أرجو فقط أنك لا تكوني واقفة. يضع ماتوس السماعة جانبًا بينما يذهب إلى المطبخ من أجل قنينة؛ يعود إلى الهاتف ويأخذ جرعتين بتأنٍّ. أما زلتِ هناك؟ ليس هناك على الطرف الآخر سوى نفخة، كافية لكي يشرع ماتوس؛ لقد عبرنا ريو غراندي دون مشكلات، بشكل عام كان سيريّو على رأس القافلة، وكان قد فاز بهذا المنصب بسبب نظرته الحادة وحواسه المتيقظة على الدوام. وكان قد أثبت بالإضافة إلى ذلك أنه أفضل الرماة في المجموعة، بما أن يدي ميلاغرو ترتجفان، وأوبالدو كان مندفعًا ويطلق النار قبل أن يسدد، وكومودورو البدين يتعرق بغزارة إلى حدٍّ يجعل رؤيته غائمة. أنا أخبرك بذلك لأنه حتى وإن كانت

سمات سيريّو مقدّرة كثيرًا في جندي، إلا أنها كلفته أيضًا حياته، حيث صار على عاتقه تولّي المهام الأكثر خطورة. يأخذ جرعة أخرى من القنينة ويغلق عينيه. أما زلتِ هناك، يا سيدتي؟ وهناك نفخة على سبيل الجواب. بعد مسيرات قسرية، وتضوّر من الجوع، وموت من العطش، والإرهاق، صرنا على بعد مئة متر من ألامو، فاختبأنا في منزل مهجور يمكننا انطلاقًا منه شن هجومنا الحاسم. الخطة كانت سهلة للغاية ولكنها لا تخلو من المخاطرة؛ كان على ابنك أن يصعد إلى السطح لاستطلاع الفضاء المؤدي إلى بوابات ألامو؛ كنا ننطلق كالسهام نحو البوابة التي افتتحها الجنرال سانتا آنا منذ عدة سنوات، وإذا ظهر أي غرينجو، فإن سيريّو سيقضي عليه برصاصة بين عينيه. كانت المشكلة أننا سنترك وراءنا جنديًا، حتى لو لم يكن ذلك يعني التخلي عنه. وبمجرد أن نتحصّن في ألامو، سيتم عكس الأدوار، ونُغطي من الشرفة انطلاق سيريّو نحو رفاقه. المرحلة الأولى جرت بشكل مثالي، ورأينا عددًا من الأعداء يسقطون أمامنا، لكن إطلاق النار لم يكن مكتومًا وسرعان ما أثار انتباه القاعدة العسكرية لأميركا الشمالية بأسرها. لو كان لديّ اتصال لاسلكي، لكنتُ أبلغتُ ابنك بتغيير في الخطط، كنت سآمره بالخروج إلى الجبال ليؤدي عمل الحزبيين ويتناول الجوز طوال المدة التي يكون فيها ذلك ضروريًا. كان من المستحيل علينا التواصل بعضنا مع بعض، وشخص مثل سيريّو جُبِل على احترام الأوامر. إنه ابني، تقاطعه المرأة، وأنا ربّيتهُ على الطاعة. كان هناك تبادل للرصاص لعدة ساعات، وعلى أن خسائرهم يمكن أن تقدّر بالعشرات، إلا أن وحدات جديدة مستعدة ومجهزة تجهيزًا أفضل كانت تصل كل دقيقة. وظهر أحدهم مجهزًا بقاذف لهب. وضعت أثوثينا يديها على وجهها وشرعت في الصلاة؛ وأنا، يا سيدتي، لو كانت زاوية رمايتي هي الصالحة، أقسم لك أنني كنت سأطلق النار بين عيني ولدك، ففي النهاية كان قد امتثل لواجبه المقدس والجنرال يلحظ إن كان من مصلحة الإقدام أن يُعدم أبناء شعبه. ما إن رأى هذا الرجل قادمًا ترك سيريّو السقف وهرع إلى داخل المنزل المهجور، حتمًا كان قرر الوصول إلى الطابق الأرضي، والخروج إلى الشارع،

وإطلاق النار في طريقه انطلاقا من شقّ جدار. لكن الأوان فات. فتح حامل قاذف اللهب النار على الباب ويمكن أن تُرى ألسنة النار منبعثة من جميع النوافذ. ثوانٍ بعدها وظهر سيريّو. لم يعُد هناك أي بياض في بدلته الصغيرة البيضاء والنعل المطاطي لحذائه يطلق دخانًا كثيفًا. سار والبندقية لا تزال بين يديه، بخطوات بطيئة، شعره قد اختفى بالفعل وعيناه تبدوان وكأنهما الشيئان الوحيدان اللذان بقيا سالمين، ولم تعودا تطرفان. استمرّ في التقدّم نحونا، وجزئيًا كان قد حقق هدفه لأننا سرعان ما استنشقنا اللحم المحترق، لكن الجنرال المقابل لم يهتم كثيرًا بالشرف أو الجهد البشري، وأعطى أوامره بإطلاقة ثانية من اللهب. توخش الجندي مع سيريّو، وأفرغ خزانه تمامًا عليه، وما إن انطفأت النيران، حتّى كان كل ما يمكن رؤيته على الأرض هو ما يتبقّى من نار المخيم بعد يومٍ في الغابة. استمرّت المعركة، وكان لابنك أن تحمله الرياح، والآن أصبح رماده جزءًا من تلك الأرض التي نعرف أنا وأنتِ أنها المكسيك. أشعر بالتحسن الآن لأنني عرفتُ الحقيقة، يا سيد ماتوس. أريدك أن تعلم أنني لا أحمل ضغينة ضدك لإعطائك تلك المهمة لابني؛ وإذا لم يكن هنالك جثمان، فما الذي سنفعله؟ لحسن الحظّ، التقطتُ بعض الصور في ذلك اليوم الأخير، له وهو يبدو مثل رجل حقيقي بشعره المرتب المسرّح بعناية. الآن يمكنني أن أُحبّ صُوَره، على الخصوص تلك التي يُلوّح لي بها وداعًا انطلاقا من سياج المعهد، وسوف أتمكن من عقد مزاد علني على لُعَبِه في أحد بيوتات لندن. أجل، يا سيدتي، الآن اتركيني أحصل على بعض الراحة، فقد أجهدت نفسي في سرد هذه القصة بقدر معايشتها؛ ابنك محترقًا مرةً ثانية، ومرةً ثانيةً فقدتُ جنديًا. فقط أخبرني بشيء آخر، يا ماتوس، هل أبلغت سيريّو بما فعله الغرينجو بي؟ أجل، يا سيدتي، أخبرته بالكاد قبل أن أتركه وحده على ذلك السقف. إذن، كنتُ أنا أيضًا هناك، تقول المرأة وتغلق الخط. يأخذ ماتوس جرعة أخرى ويبحث عن الحقيبة الصوفية التي استخدمها سيريّو حقيبة مدرسة. ويرى ملابسه الداخلية هناك، غسول الفم بنكهة النعناع، الورنيش الأبيض لحذائه، بودرة التلك وكريم الأطفال؛ يجد أيضًا، مغسولةً ومكويةً بشكل

جيد، بزّته الثانية البيضاء. يُخرج ربطة العنق الزرقاء الفاتحة ويثبتها على ياقته. أنا جندي رشيق وسريع البديهة، أنا ابن امرأة غير عادية، أنا أكثر المخلوقات شقاءً. يعبُ الزجاجة حتى يأتي على آخرها. لا حاجة به لموسيقا لقضاء بقية الليل في الرقص.

*

الميدالية البرونزية حاليًا في حوزة متحف مونتيزي الرياضي. وهم لا يعرضونها علنًا؛ يتم الاحتفاظ بها في صندوقها في درج في القبو. يقول ملصق من الورق المقوّى فقط: إغناثيو ماتوس، ماراثوني 1968 -1903. جلبها رجل عجوز فيما مضى، كما توضّح المديرة، وأخبرنا أن صديقًا له، هذا الماتوس، قد فاز بها في دورة باريس الأولمبية بحلوله في المركز الثالث في الماراثون. الميدالية برأيي تفتقر إلى الذوق؛ فالميداليات التي وزّعوها منذ أمستردام وصولًا إلى التي وُزّعت في المكسيك أفضل بكثير، فقد قام بتصميمها فنان من فلورنسا. وعند سؤالها عما إذا كان هذا هو السبب في عدم عرضها، تبتسم المديرة. أنا لا أدير متحفًا للفنون؛ قراري يستند بشكل صارم إلى الرياضة. توضح أن الوفد المكسيكي الذي شارك في ألعاب عام 1924عاد خالي الوفاض. لقد أرسلنا ستة عشر منافسًا، تقول، لم يشارك أي منهم في الماراثون. كان هنالك أربعة أفراد مسجلين لسباق الضاحية، ومَكَثَ أربعتهم في الفندق لأن درجة الحرارة بدت مرتفعة للغاية في نظرهم. في النهاية، تنافس مكسيكي واحد فقط في سباق المسافات الطويلة، سباق عشرة آلاف متر، وقد وصل متأخرًا كثيرًا بعد الفنلنديين الطائرين الذين فازوا بالسباق، لأنه في ذلك الوقت فاز الفنلنديون بجميع السباقات من ألف وخمسمئة متر فأكثر. لا أعرف لماذا أرسلت حكومتنا مثل هذه الحزمة من الخاسرين كل تلك المسافة. إذا كنت ستذهب لتخسر فيمكنك أيضًا أن تبقى في البيت.

تُخفضُ مديرة المتحف من صوتها عندما تقول: أنا متأكدة من أن الميدالية

تعود إلى جوني ويسمولر؛ نحن نعرف أنه فاز ببرونزية في كرة الماء في نفس الألعاب الأولمبية، وكما تعلم أنه توفي مدمنًا على الكحول ومريضًا عقليًا في أكابولكو. لا شك بأن الرجل المسن الذي أحضرها إلينا كان يتسكع على الشاطئ هناك وحصل عليها مقابل زجاجة من الويسكي؛ بعد ذلك، اختلق قصة صديقه ماتوس في المركز الثالث في سباق الماراثون، ولكن كل ما عليك فعله هو قراءة التقرير الرسمي لمعرفة أنه لم يتنافس أي شخص يدعى ماتوس عن المكسيك، وأن المركز الثالث في هذا السباق ذهب إلى الأميركي كلارنس ديمار. يقوم المحامي بالأعمال الورقية بإضفاء الطابع الرسمي على الميدالية بوصفها ممتلكات للمتحف، وبمجرد أن يسلّمنا الأوراق سنضعها في صالة العرض. لدي بالفعل واجهة معدّة من الصور الفوتوغرافية وبيانات السيرة الذاتية لويسمولر. سيأتي كثير من الناس لرؤيتها لأن لها علاقة بهذا الغرينجو الشهير... أناسٌ أكثر بكثيرٍ مما لو كانت عائدةً إلى عدّاءٍ من مونتيزّي فاز بها في باريس بفضل قوة ساقيه.

*

يُفرغ ماتوس حقيبة سيريّو المدرسية. ويقوم بتعليق بذلته البيضاء على مسمار مثبت من الجدار، حيث كانت هناك مرآة قبل سنوات. النافذة مفتوحة، ومن حين لآخر يأتي النسيم ويرجرج ربطة العنق ذات اللون الأزرق الفاتح، وينفخ السراويل القصيرة والقميص قليلًا. يتساءل ماتوس عن المبلغ الذي قد يدفعه لقاء تمثال عرضٍ بحجم الملابس، أو ما إذا كانت فكرة سديدة أن يطلب من أحد صانعي المصوّرات الدينية أن ينحت له طفلًا مقدسًا، أيضًا بحجم سيريّو.

*

صندوق جديد من أحجار الدومينو، اشتراه سانتياغو ليحلّ محلّ الذي تنقصه السيدة الطاهرة، موضوعٌ على الأرض. أهذا حقاً ما تودّ أن تلعب؟ يسأل ماتوس. يهزّ رامون كتفَيه. أنت تذهب إلى الحرب، أنت تُسابق في الأولمبياد، لكننا نراقب

الساعة. نهضوا من مقاعدهم منذ فترة واستراحوا على الأرض. تدور زجاجة بين الثلاثة؛ يشرب أحدهم جرعة ويمررها إلى رفيقه الذي على يساره. ينفخ سانتياغو على سيجارته ويتمدد على بلاط الأرضية البارد. حيث يمكنه رؤية ربطة سيريّو المترجرجة. يمكننا استخدام ذلك مكان الشريط الأزرق لميداليتك، مع قليل من الحظ قد يكون صنع في فرنسا. يلتقط ماتوس صندوق الدومينو، يفتحه وينشر الأحجار على الأرض. بعد رؤيا أوبالدو، لا أريد أن يكون لي أي علاقة بعد اليوم بهذه اللعبة، يقول، كنا جميعًا متفقين على الترتيب الذي سيتم به لعب الأحجار، توافقنا في قراراتنا. بالطبع، يسفّ رامون شربة قبل أن يتابع، ما يدل على أننا خبراء. ينهض ماتوس ويُنزل البدلة البيضاء، يضعها قبالة صدره. يتخيّل ماتوسَ العتيق، صغيرًا، يركض في لندن متمسكًا بيد دوراندو بييترى. الوقت فجر، والمدينة غارقة في ضباب كثيف ومن المستحيل العثور على خط النهاية في العديد من الشوارع المتعرجة الفارغة. لا تقلق، يا صغير، يُهدئه دوراندو بصوت متكسّر، ربما سنجده في الزاوية التالية، إذا استدرنا إلى اليمين أو اليسار. سنعثر عليه قبل استبعادنا. عندما تكون متخلّفًا، يرمي ماتوس البذلة على الكرسي، يمكنك الاختيار بين الطرق المختلفة للعب، ولكن عندما تكون خبيرًا تعرف ما هي اللعبة الصحيحة، لا يوجد خيار أو بديل، فقد تم تحديد اللعبة منذ أن تم توزيع البلاط، وهذا ما يسمّى فرصة. لم يقل أوبالدو ذلك مطلقًا، يلتقط سانتياغو حجر الخمسة المزدوجة (73) ويعيده إلى داخل الصندوق. سنوات كنا نلعب فرادى أو أزواجًا، يقول ماتوس؛ نحن نفعل ذلك فقط لأن التقاليد تقول أن لعبة الدومينو هي لعبة رجال، لعبة نثمل أثناءها فنفترض أننا لا بدّ وأن نكون أذكياء للعب حجر. كومودورو كان محقًّا، العباقرة يخرقون القواعد ويلعبون أي حجر يريدون.

يمر الوقت في صمت. يشرب ثلاثتهم رشفات صغيرة من الزجاجة، إلى أن يرن الهاتف. أول رد فعل لماتوس هو النظر إلى الساعة. من هذا الذي يتصل بعد منتصف الليل؟ بمجرد أن يلتقط السماعة، يتعرف على صوت لوز المتعب. متى

ستحضر من أجل صبيك الصغير؟ لقد سئمت وتعبت منه، عليّ أن أحممه في الزيت، وأغسل ملابسه دومًا، وأزرر قميصه، وأمشط شعره بالجل، وأمسح له بعد كل مرة يدخل فيها إلى الحمام، وكل ما يريد فعله في المساء أن يمض حلمتي. ينقطع الخط ويتجه ماتوس إلى الكرسي حيث رمي بذلة سيريّو البيضاء. يغمرها بالقبلات، وفوق الياقة، كما لو أن رأسًا هناك، يُمسّد الفراغ المرّة تلو الأخرى.

*

أثاييل دلغادو؟ أفضل جرّاح في المدينة؟ يستريح الطبيب برناردو كواندراو في كرسيه ويضحك بصوت عالٍ. درسنا في كلية الطب معًا، ولم يعرف أحد كيف حصل على شهادته؛ يقول بعضهم أنها أتت من خلال معارفه، لأنه ابن أخ لمسؤول حكومي كبير. عمِل لفترة في المستشفى العسكري في نهاية الستينيات، لكنهم فصلوه بسبب أدائه الرديء. لم أسمع منه بعدها.

*

يضُفُّ ماتوس سيارته على ناصية خوفنتينو روساس(74) وآنخيلا بيرالتا(75)، كالعادة يقود السيارة التي أعاره رامون إيّاها. أعلمُ أننا بالقرب من منزلك، هل يمكنك أن تخبرني أي طريق نأخذ؟ يُخرج سيريّو رأسه من النافذة ويبتسم. أجلس في مكانك، ألم يُبلغوك أبدًا عن الطفل الذي قَطعت رأسه سيارة أخرى عابرة؟ ينعطف ماتوس يسارًا في شارع آنخيلا بيرالتا ويرى أن ابتسامة الراكب معه تبدأ في الأفول. لم يتمكن قطّ من الاستدلال على نوع اللغة التي استخدمها سيريّو لإخبار والدته عن غزوة تكساس، ولكن لعله يستطيع استخدام ابتسامته مؤشر على مدى قربهما. إذن، نسيتَ بالفعل حلمة البلدة الصغيرة وبتَّ ترغبُ في العودة إلى البيت؟ يعود إلى الناصية ويتوقف. يستدير إلى خوفنتينو روساس ويتقدم ببطء، بما يكفي ليستخلص أن تعبير سيريّو فقد

حرارته. يتراجع مرة أخرى، وهذه المرة يعود إلى آنخيلا بيرالتا متقدمًا في الاتجاه المقابل. تتحول الابتسامة من فورها إلى قهقهة، وقبل أن يجتاز مئة متر يُمسك سيريّو مقبض الباب. دع هذا، أنت لا تريد السقوط مرة أخرى كما فعلت من الشاحنة، ولا يمكنني اختلاق قصة ثانية لأمك عن قاذف اللهب، لأن إحدى الجارات ستخبرها أنها رأتك جريحًا تنزف في وسط الشارع. يركن السيارة في أول المواقف الشاغرة ويطفئ المحرك. هيّا، يقول، خُذني إلى أمّك. يُمسك بيده ويسيران على الرصيف ويجوزان ثلاثة منازل. يتوقف سيريّو تمامًا مليئًا بالترقب أمام الرابع. يتفحص ماتوس شعر الصبي ويسوّي ياقة قميصه، أبيض مثل يوم خروجهم. على أن ربطة العنق مرتخية قليلًا، لا يسعى لتضييقها، فهو لا يريد خنقه في هذه الأمسية الدافئة. يَقرع الجرس ويسمع شخصًا يركض للإجابة على الباب. يظهر وجه رجلٍ شاب وكل ما يقوله ماتوس هو مساء الخير. يختفي الوجه وبعد ثوانٍ قليلة تظهر والدة سيريّو بشوكة في يدها. يكرر ماتوس تحيته، والآن بخُيلاء شخص يتوقع التصفيق. يتراجع سيريّو قليلًا كما لو كان يمارس رقصة النقر بالأقدام؛ لا يهرع إلى أمّه، واقفًا على الرصيف، يضغطُ على يد ماتوس. واللحظة التي يتوقّعها ماتوس لا تأتي، مشهدٌ من العناق والدموع. يتوقّف سيريّو عن الرقص. تفتح المرأة الباب كاملًا وترجعُ خطوة إلى الوراء. لقد خدعتني، تصيح، غير عابئةٍ من لفت انتباه الجيران، إنه حيّ، إنه أكثر حياة من اليوم الذي أخذته فيه. تسقط منها الشوكة على الأرض، يفهم ماتوس أنه دخل عليهم أثناء تناولهم وجبة العشاء، ولكن ماذا يهمّ إذا كانت بعض الفاصولياء ستبرد، يودّ الحديث معها عن بطولات سيريّو، ويشير إلى الحروق على وجهه من آثار قاذف اللهب. لقد خدعتني، ابني على قيد الحياة. تَرِدُ جلبةٌ من داخل المنزل مترافقة مع غناء غير متسق. يقبض سيريّو على يد ماتوس بشدة أكبر؛ يسحب ماتوس يده بعيدًا. ويدفعُ الطفل من كتفيه نحو الباب، صوب أمه، ويغادر دون وداع. عليك اللعنة، تصرخ المرأة، وهي تلتقط الشوكة وتلقيها في الشارع، إنه حيّ ويرتدي البياض. ترتفع أصوات الغناء. يصعد ماتوس إلى السيارة، ودون

النظر في المرآة الخلفية، ينطلق بأقصى سرعة. يشعر بالحاجة للهروب أسرع مما لو كان فوجٌ من العساكر في أعقابه.

*

يا كومودورو البدين، غدًا هو يوم السباق. اثنان وأربعون كيلومترًا في مكسيكو سيتي. سيكون هناك غرينجو وفنلنديين ولاتينيين طامحين. سيكون هناك أفارقة من كينيا وزامبيا وسيراليون ونيجيريا وتنزانيا وبالطبع إثيوبيا. لقد حصلتُ على زيّ العدائين الخاص بي، وحذاء التنس الخاص بي، يا كومودورو، لكنني ربما سأرتدي الزيّ العسكري لأن الأولمبياد هو حرب أخرى تراهن فيها أيضًا على حياتك ويكون بها فخر البلاد على المحك.

يا كومودورو البدين، يا شفيع عدائي الماراثون. صلِّ من أجلنا.

*

يمكنك في بعض الأحيان مشاهدة رجل أصلع غير مرتّب الهندام في المنزل رقم 406 الذي يقع في شارع تابيا. وهو يشتم العابرين من وراء سور النافذة، غير عابئ عما إذا كانوا رجالًا أم نساءً أم أطفالًا. أهل البيت هم من أقربائه الذين يعتذرون بخجل ويقودونه إلى داخل البيت. يضعونه في السرير ويغطونه ببطانية من مادة اصطناعية حتى عندما يكون الفصل صيفًا. لا تتحرك، يأمرونه، ويقومون بتشغيل التلفزيون لإبقائه منشغلًا. ولكن الرجل يتمكن بطريقة ما من العودة إلى النافذة في اليوم التالي واستئناف شتائمه. تقول سيدة عجوز تعيش في المبنى إنها اعتادت على صراخه إلى الحد الذي لم تعد حتى تسمعه. كان المسكين على هذه الحال سنوات عديدة، منذ أن كان طفلًا. الشخص الذي يتضايق منه أكثر هو صاحب متجر الخردة على الناصية؛ يصرّ على أنه يخيف زبائنه. يصرخ الرجل الأصلع علينا بأننا جبناء، لا نساوي بنسًا، بينما هو قيّم، لأنه حارب من أجل بلدنا. يصرخ أنه معجزة.

*

بعض الأشياء لم تتغير منذ أربعة وأربعين عامًا، يقول رامون: الكرونومتر نفسه، المسدس نفسه، والعذاء نفسه. الكرونومتر يعمل كمعجزة، المسدس لا يصدر عنه إلا نقر معدني، وسنرى إذا كان صاحب المركز الثالث ما يزال قادرًا على عبور خط النهاية. لن يكون هناك أي شك هذه المرة حول اللحظة التي ستنطلق فيها رصاصة البداية، سواء جاءت متأخرة دقيقة أو ساعتين وثلاثًا وعشرين دقيقة، لأن الراديو الذي شغّلوه في سيارة رامون يستقبل تفاصيل حية عن الماراثون الأولمبي. يؤكد المذيع أن هذا السباق أصبح في حكم المِلكية الخاصة لأبيبي بيكيلا(76)، الذي يخطط اليوم للفوز بمداليته الذهبية الثالثة على التوالي؛ يذكرُ أسماء المنافسين المكسيكيين ويعلن عن استراحة إعلانية. معتوه، يصرخ ماتوس، قد ينطلق العدّاؤون في منتصف إعلانٍ للصابون. يهدّئ سانتياغو من فورته، لا يزال هناك دقيقة للانطلاق يا ماتوس، بالإضافة إلى الوقت الذي قد يضيفه الحكّام إذا لم تغرب الشمس. ثُم بعد إعلانٍ عن قميص، يُعلن الصوت في الراديو عن بدء السباق بنفس النغمة التي يتم استخدامها في مضامير سباقات الخيل. يبدأ ماتوس في الجري ويشغّل رومان الكرونومتر. يتصرف سانتياغو كما لو أنه أصيب بالدهشة ويستغرق الأمر منه بضع ثوان لسحبة زناد غير مجدية. في هذه المرة، عُكِس المسار: نقطة البداية في خط بييدراس نيغراس للسكك الحديدية، وخط نهاية السباق سيكون في مونتيرّي. عندما يصلون إلى فيّا دو غارثيّا، سيتبع ماتوس مسارًا دائريًا من أربعة كيلومترات قام بتصميمه بحيث لا يكون خط النهاية أمام الكاتدرائية، حيث زادت حركة المرور في المدينة منذ عام 1924؛ وهذه المرة، وبدلًا من السخرية المنبعثة من المارة، سيجد سيارات تنذر بدعسه وإشارات مرور حمراء. وضع الراية البيضاء التي تُمثّل خط النهاية على بعد عشرين مترًا من مصنع السجائر، بجانب سكة القطار؛ على بعد بضعة أمتار من هناك سيصل إلى أول تقاطع خطر، واحدة من إشارات توقف القطار. مع أنه يرتدي قميصًا دون أكمام، إلّا أنه لا يرتدي

زيّ عذاء: فهو يضع جزمةً عسكرية عالية وبنطالًا بلونٍ أخضر زيتوني.

اثنان وأربعون كيلومترًا، قال ماتوس ذلك الصباح، هي نفس المسافة التي فشلنا في قطعها للوصول إلى ريو غراندي بالضبط؛ لهذا السبب لدي اليوم ما هو على المحك أكثر من الرياضيين في مكسيكو سيتي. هم سيصلون إلى خط نهاية؛ أما أنا فسأغزو بلدًا.

خطوات ماتوس قصيرة وغير مستقرة، مثل خطوات أحد المشاركين في سباق المشي. يسير دون قلق، فهو يعلم أن لا غرينجو بين المرشحين للفوز، ولا وريث لكلارنس ديمار؛ كل ما يحتاج إليه في هذه المرة هو قطع المسافة للحصول على الميدالية. لا يهم إذا كان سيصل آخرًا، والحالة البدنية التي يصل بها أيضًا لا تهمه. إذ لا يمكن لِأحد أن يدّعي أبدًا أنه لا يستحق الميدالية البرونزية المتدليّة من عنقه.

مجدّدًا أنا في وضعٍ غير مؤاتٍ، قال لسانتياغو. من الذي فكّر بجدولة سباق الماراثون في الساعة 3:30، كما لو أنهم لم يأخذوا العبرة من باريس؟ قد تكون درجة الحرارة مقبولة في العاصمة؛ هنا الشمس ستقليني. إنهم يجرون هناك على ارتفاع ألفي متر عن سطح البحر، يجيب سانتياغو، ربما هذا سيؤدي إلى إلغاء الميزة. يُقرّ ماتوس بأن الظروف متكافئة، لكنه الآن وهو يفكّر بساقيه النحيلتين، البطيئتين المستنفذتين، يَخلُص إلى أن العدائين الذين هم على وشك مغادرة الملعب الأولمبي الآن يتمتعون بسنوات من التفوق عليه. فوفقًا لما قرأ، أبيبي بيكيلا هو الأكبر سنًا في المجموعة، وحتى مع وجوده هنالك فرقٌ في الأعمار يبلغ ثلاثين عامًا تقريبًا.

هذه المرة لا يرافقونه على ظهور حصان، بل في سيارة؛ لن يتابعوا إلى جانبه طوال الطريق لأن بعض التضاريس لا يمكن اجتيازها، ولأنه، وبهذا البطء، سوف ترتفع حرارة المحرك بسرعة. اتفقوا على الالتقاء في كل نقطة يتقاطع بها المسار مع شارع أو طريق سريع؛ وبهذه الطريقة سيزوده رامون وسانتياغو بالأخبار

عن تطورات السباق ويقدمان له الماء. وداغا، يقول سانتياغو، سنلتقي في فيّا دو غارثيا، ويدعس على دواسة البنزين. ماتوس لا يردّ، فهو يركز على وتيرته، محاولًا أن يلمح أيًا من المتسابقين الستة والسبعين الذين خلّفوه وراءهم، وراءهم بكثير.

*

في صفحات المجتمع لصحف 20 أكتوبر 1968، يوم الماراثون نفسه، هناك صورة لآريتشاڤاليتا: مرتديًا الثياب الرسمية للمعهد الفرانكو-مكسيكي، وكما هو حاله دائمًا، يبدو متغطرسًا معيدًا شعره الأملس إلى الوراء. ميدالية ذهبية، يقول العنوان، ويشرح المتن أن هيئة حكّام تتألف من معلمين من مؤسسات مختلفة وافقت على منحه المركز الأول في دورة الألعاب الأولمبية المدرسية، حيث تلى هذا الطالب المتميز دون تلعثم وبحماسة وطنية بالغة المواد الخمس الأولى من دستورنا. ومع ذلك، كانت هناك لحظة اضطر فيها زعيم المستقبل إلى التزام الصمت، عندما قاطعه الحضور بتصفيقهم للمادة الثالثة(77) منه. في منتصف الخبر، هناك جملة من رئيس هيئة الحكام، يؤكد فيها أن ما يحتاجه بلدنا هو المزيد من المواطنين مثل آريتشاڤاليتا.

*

الهواء يثير بالغبار بين شجيرات الصبّار والنباتات الشائكة. يفكّر ماتوس أن طريقه بعيد عن سحر المسار الأولمبي، يمكن له تشبيهه بالمكان الذي يتدرب فيه الأفارقة. ومع ذلك، فماتوس ليس هناك، في صحراء مونتيرّي، بل في العاصمة مكسيكو سيتي؛ في هذه اللحظة بالذات، صحبة أحد المتسابقين الذين يتقدمون في شوارع غريبة عليهم، مليئة بالحفر، برائحة التورتيّا والنترات والحمامات العمومية، شوارع يصطف بها الباعة المتجولون والنساء الصائحات والأعلام ذات الخمس حلقات، وعلى جنباتها تماثيل لأبطال دون مبادئ، مختلفون كثيرًا عن جيش المتنورين؛ لكن على الأقل هناك حيز للجري. إذا تقرر في يوم من الأيام

عقد الألعاب الأولمبية في مونتيزي، فسيتعين عليهم بناء مستديرة مرورية بعرض كيلومتر كامل؛ يتوسطها منتصبًا التمثال المهيب لكومودورو البدين. حسنٌ جدًا، أيها السادة، اثنان وأربعون دورة ومئة وخمسة وتسعون مترًا، في 13يوليو، على حرارة 40 درجة مئوية.

عند الانتهاء من نصف الساعة الأولى، يصل ماتوس إلى الطريق السريع المؤدي إلى فيًا دو غارثيًا. يرى سيارة رامون متوقفة على جانب الطريق. إنه يشعر بالهدوء، لا آلام، وتنفسه ليس ثقيلًا؛ يعلم أن سرعته لن تجعله يلهث، لكنه لا يستطيع أن يمضي أسرع من ذلك، ليس في سنه هذه. بالنتيجة، هو يجري اليوم في سباقٍ للطاقة على التحمل.

يناوله سانتياغو اسفنجة مبللة بالماء. يلتقطها ماتوس ويشرب منها؛ ثم يعصرها فوق رأسه. يتحول إلى اليسار على الطريق السريع لبدء دائرة الأربعة كيلومترات. يشغّل رامون السيارة ويتبع أثر صديقه. ثلاث وثلاثون دقيقة، يطلُّ برأسه من النافذة ويُبلغه، ولديَّ بعض الأخبار السيئة لك: كينيث مور، من الولايات المتحدة، هو في المقام الأول. يتبعه بلجيكي ومكسيكي.

يتجهم ماتوس؛ يعلم أنه في هذه المرة سيغلبه الغرينجو حتمًا ولا دواء لذلك، وهو لا يلحق به بل متسابق آخر. يرفع رامون صوت الراديو. يبدو أن أبيبي بيكيلا خارج المنافسة بعد ظهر هذا اليوم، لأنه ليس حتى بين المتسابقين، ولكن ما ينبغي أن يثير اهتمامنا، مستمعينا الأعزاء، هو أن المكسيكيين يقومون بعمل رائع. يلي ذلك مرة أخرى إعلانات للصابون والقمصان، يطلب ماتوس من صديقه: إذا بقي الغرينجو في المركز الأول، فادعسه بالسيارة. بكل سرور، يقول رامون ويزمجر بمحرك سيارته ذي الست أسطوانات. وبعد ثوانٍ، انتهت الإعلانات التجارية، وبصوت مذعور يعلن المذيع مستمعونا الموقرون، لقد وقعت مأساة للتو، الرياضي من أميركا الشمالية كينيث مور تعرض للدعس من قبل سائق مخمور ظهر فجأة من العدم، وبهذه النتيجة يكون المكسيكي إغناثيو ماتوس قد

تولّى زمام الصدارة.

*

تقول المعلمة إن إشارة المرور لها ثلاثة ألوان. هل يعرف أحد ماذا يعني اللون الأحمر؟ ترتفع يد بسبابة تشير إلى السقف. ماذا تعني؟ تكرّر، وصوتٌ يتكلّم على حين غرّة أن اللون الأصفر يشبه الشمس أو مثل البول أو مثل الصفحات القديمة أو شعر امرأة سويدية أو فستان... تُقاطعُ المعلمةُ وتُوضح أنها لا تسأل عن الضوء الأصفر وأنها لا تبحث عن مقارنات. أسألُ ما المقصود باللون الأحمر، ومن المهم بالنسبة إليكم أن تعرفوا، إنها تفاصيل يمكنها إنقاذ حياتكم. نفس الصوت الذي تحدّث قبل بضع ثوان يحكي عن الدم، وبعض السيارات، والفساتين الأخرى، وعصير الطماطم. مرة أخرى تُقاطع المعلمةُ، وعندما ترى أن لا أيدي مرفوعة، توجه سؤالها إلى الوجه الذي تظن أنه لا يعيرها أدنى قدر من الانتباه. أخبرني، يا كارالامبيو، ماذا يحدث إذا كنت تسير في الشارع ويتحول ضوء إشارة المرور إلى اللون الأحمر؟ ينظر إلى الصورة التي تعرضها المعلمة، المستطيل مع الدوائر الملوّنة الثلاث، هو متأكّد من أنه يعرف معناها، كم مرة أخبروه عن إشارات المرور؟ تقريبا عدد المرات نفسه الذي أخبروه فيه عن خرطوم الفيل أو حروف العلة التي تستخدمها في الصراخ. يصالب ذراعيه، ويشبكهما بأقصى طاقته، ويحني رأسه إلى الأمام على الطاولة. يُدرك أن حياته ستأخذه إلى تقاطع أبدي أحمر، وهو يكره المعلمة لعدم قيامها بمراجعة حروف العلة، في تمام اللحظة التي يحتاج إليها بشدة.

*

الغرينجو يتراجعون إلى المؤخرة، يبلغهُ سانتياغو، وقد انسحب أبيبي بيكيلا بالفعل. الأخبار تُبهج ماتوس، وعلى أن الأمر غير محسوس لأصدقائه، إلا أنه يدرك أنه زاد من سرعة خطواته. سأقهر أبطال روما وطوكيو، وسأهزم أيضًا أي شخص، بغض النظر عن صغر سنّه وعدد الألقاب التي لديه، ويفتقر إلى الإصرار

على إكمال هذه المسافة، وبالطبع سينهار غرينجو واحد على الأقل، وقد غلبه الوجع في ركبته، أو الحزّ في كاحله، أو لاشتباك ساقيه: إصابات لا تعدُّ شيئًا يذكر في الحرب، ولم يكن بمقدورها أن تقهر كومودورو البدين.

*

هناك العشرات من الصور لفتى ميت معلقة على جدران غرفة نوم أوبالدو. في بعض منها ترى الجسد مستلقيًا فقط، وفي أخرى تغطيه دماء أو جرى التمثيل به: في كل منها، العينان هما صُلبان. تشعر أم أوبالدو بالقلق إزاء المرحلة الفنية الجديدة لولدها، ولهذا السبب مَزّقت بعض الصور، تلك التي تصفها بأنها الأكثر دموية، وتقترح عليه العودة إلى أيام رسم الأرانب والأبقار والأشجار. يرفض ويقضي الساعات معجبًا بإبداعاته من القَطع المتوسط. يشعر بفخرٍ خاص بتلك التي تُظهر كومودورو ممددًا على وجهه في بركةٍ مائيةٍ دامية؛ المئات من الأسماك الملونة تسبح حوله أو تقضمه، ووتد مغروز يبرز من مؤخرته. يداه وقدماه هما أطراف هيكل عظمي؛ خده أرجواني. وفي الوسط، فوق المياه، يحلق سيريّو مثل حمامة.

*

قبل منتصف المسافة بقليل يحصل ماتوس على المزيد من المياه والأخبار. لقد عبر الفائز، يُبلغه سانتياغو، هو أيضًا من إثيوبيا. يبتسم ماتوس لنفسه. إثيوبي آخر: بلا شك، تماما مثل بيكيلا، عسكري ثانٍ بأوامر من إمبراطوره، عسكري آخر يكسب نياشينه بالركض لبلاده عوضًا عن الدفاع عنها.

التضاريس مستوية ويمكن للسيارة أن تمشي إلى جانب السكّة بضع دقائق. سانتياغو يتكئ على حافّة النافذة وينادي بالمزيد من الأخبار. مامو وولدي(78) هو اسم الفائز، ويوشك ياباني يحمل اسمًا يصعب النطق به(79) على الوصول. ينتظر ماتوس بصبر نافد وصول صاحب المركز الثالث؛ بوسعه

أن يعد ذلك نصرًا إذا لم يكن هناك أي غرينجو على المنصة. مايكل ريان، يخبره سانتياغو، وماتوس يُلوّح بيده وكأنه يطلب من الجماهير أن تقف على أقدامها: إشارة لا معنى لها في تلك اللحظة، لكنه لا يتمكّن من الإتيان بأي كلمة، فكل ما لديه من هواء بالكاد يكفي لتنفّسه. يفهم رامون أخيرًا. يريد ماتوس أن يعرف من أين هو. نيوزيلندا، يصرخ سانتياغو، ويبتسم ماتوس على الألم الذي يشعر به في كاحله الأيسر. قرأ في مكان ما أن الفائزين في الماراثون يصبحون أبطالًا نتيجة للساعات العديدة المكرّسة للتدريب؛ في يوم السباق، من ناحية أخرى، يبدأ الأبطال في الوصول بعد أربع ساعات. اليوم، يُحدّث ماتوس نفسه، سأكون بطلًا.

في غضون الدقائق التالية، سيصل تركي، بريطانيان، إثيوبي ثان، ياباني ثان، كندي، وعداءان يُعرّفهما رامون فقط على أنهما أوربيّين. وكتفًا إلى كتف هناك غرينجو ومكسيكي يصلان معًا إلى خطّ النهاية، يزيد ماتوس سرعته عندما يسمع هذا النبأ وليس لديه أدنى شك في من سيصل إلى هناك أولًا(80).

يوقف رامون السيارة لأن الطريق تقطعه محطة كهرباء فرعية بجوار السكة. نبرة المعلق الإذاعي محايدة، لا أحد يتحمس لوصول المزيد من العدّائين، وكلماته فيما يخصّ الإقرار بجهد وعزيمة الرياضيين بالكاد تبدو صادقة؛ يرتفع صوته بشكل ضئيل عندما يصل المكسيكي الثاني في المركز السادس والعشرين. يزداد عدد الإعلانات ويتساءل سانتياغو بينه وبين نفسه متى سيقطعون البث. ما يزال يمكنه رؤية رأس ماتيوس المتمايل انطلاقا من الزجاج الأمامي، تجاوزت الساعة السادسة مساءً والشمس تصبّ الظلال في اللا نهاية. يرفع رامون الصوت عندما يصل عداء إيرلندي، مايكل مولي، بوقت من ساعتين وثمانية وأربعين دقيقة. وقت ماتوس في باريس منحه المرتبة الحادية والأربعين. العدّاء يختفي ببطء في المسافة. يفتح رامون صندوق الميدالية ويتأملها تحت شمس الأصيل الباعثة على التوزّد. تبعًا للوقت الذي سيسجله ماتوس هنا، يقول، لم يكن ليحصل حتى على البرونزية الزائفة.

في المحطة التالية سيخبران ماتوس عن وقت الأيرلندي، وسوف يتخيّل نفسه يصِل خط النهاية إلى جانبه، يُغنّيان ويَشربان ويُصلّيان، وسيعرف أن الرسائل التي أطلقها كومودورو وصلت إلى كتيبة القديس باتريك المجيدة.

*

سيريّو مرتديًا جلبابًا، ومستلقيًا على بطنه على طاولة خشبية في غرفة المعيشة في منزله. تضرب والدته خمس نوتات على البيانو بإصبعها السبابة وتتحول لمواجهته. (81) Ave María (السلام عليك يا مريم)، تتمتم أمامه بأسنان مطبقة، gratia plena (يا ممتلئةً نعمة). يحاول سيريّو أن يبتسم ولا ينجح إلا في مطّ شفتيه. تترك أمه لوحة المفاتيح وتضع يديها على وجهها.

*

إنها الساعة التاسعة ليلًا تقريبًا وماتوس يقترب من خطّ النهاية. لم يَشكّ لحظة في أنه سيفعلها لأنه في سنّه هذه لا يعود الألم عائقًا؛ ما بدا له في الماضي فخذًا متشنجة هي الفخذ التي يصحو عليها كل يوم. في سنّه هذه، الاستسلام هو الموت. ربما كان يخشى من أن يُخلع مفصل ركبته، لكنه قد يتمكن من جر نفسه أو القفز على قدم واحدة. لم يعد يركض، يقول سانتياغو عندما يراه يمر، حتى إنه لا يسير. توقف ماتوس عن التطويح بذراعيه، وصار يمسك بقبضتيه بالقرب من صدره، إحداهما بجوار الأخرى، وكأنه يحمل سبحةً بين يديه. اجتاز جادة غونثاليتوس التي تجعله على بعد 400 متر من علامة الهدف. هذه النقطة هي بوابة الماراثون، والآن كل ما عليه القيام به هو تحية الجمهور، وقذف القبلات، وإكمال الدوران حول مسار الترتان. هل دخل التنزاني(82)؟ يسأل ماتوس. ألا تستطيع رؤيته؟ يقول رامون، إنه بجانبك، وإذا لم تسرع في وتيرتك، فستكونُ آخر الواصلين. لا تخيب الناس الذين يصيحون باسمك واسم بلدك. يستغل ماتوس دفقة من القوة لتسوية خطواته؛ تزداد سرعته قليلًا، ولكن على

الأقل يبدو الآن وكأنه رجل. يعرف رامون وسانتياغو أن العداء من تنزانيا وصل قبل نحو ساعتين، وهو يعرج أيضًا وسط تصفيق أخوي من أولئك الذين كان لديهم الصبر لانتظاره، بين حكّامٍ متململين، مُتثائبين، مُتمنين لو أنه انسحب في منتصف الطريق حتى يتمكّنوا جميعا من الحصول على جعة. ومع ذلك، فالكذبة ضرورية، إذ يجب دفع ماتوس لزيادة سرعته لأنهم يستطيعون أن يتبيّنوا من بعيد ضوء قاطرة وما يتمكنون من سماعه ليس تصفيق الجمهور، بل الصافرة التي تُنذر بعبورها من تقاطع آخر، ذاك الذي تركه ماتوس وراءه قبل بضع دقائق. يصعدون إلى السيارة، وسانتياغو، يجلس من جديد قرب النافذة، يصرخ عليه ليتعجّل، لا يصحّ أن يسمح لأفريقيّ هزيلٍ أن يُخلّفهُ في المركز الأخير.

يعرف ماتوس أن العديد من العدائين خرجوا بالفعل من السباق: أبيبي بيكيلا انسحب قبل نقطة المنتصف، ومكسيكي بالكاد اجتاز الكيلومتر العاشر، وكان فنلندي أول من استسلم، كما لو ليعلنوا أن المكسيك ليست باريس، وأن العالم ليس كما كان قبل أربعة وأربعين عامًا. تسعة عشر رياضيًا سقطوا بأجمعهم، من بينهم أمَلَين لأميركا اللاتينية؛ لكنني لم أعد أتنافس مع أولئك الذين يُلقون بأسلحتهم ويطلبون الرأفة عند أول شدّ عضليّ أو بُثور أو نزف أو علامة على الإرهاق، لأن شخصًا يتخلّى عن سباق الماراثون يُظهر أنه ليس لديه أي فكرة عن الماراثون، أيًا يكن عدد الميداليات التي لديه في سيرته الذاتية. عَجّل، يا ماتوس، أركض، حلّق، لأن الرجل الأسود من تنزانيا يلحق بك. وماتوس يستطيع أن يتبيّن، على مسافة مئتي متر أمامه، عصا المكنسة مع راية القماش: خط النهاية بعد خمس ساعات، وأربع وأربعين سنة وحرب في وقت لاحق؛ خط النهاية والانتصار النهائي على كلارنس ديمار، يا عزيزي كلارنس، المتخشّب في قبرك دون صليب؛ علامة الهدف وكومودورو يلقي بنفسه من العربة ليضحّي بنفسه لأننا يجب أن نكسر الحصار ونستعيد ألامو وشرفنا، وليُخلّد جيش المتنوّرين الذي أعاد لنا البلاد والكرامة؛ خطّ النهاية والبرونز الذي على الأرجح لا يساوي الكثير. اركض، يا ماتوس، لأن الرجل الأسود من تنزانيا في أعقابك،

Telegram:@mbooks90

والرجل الأسود الهزيل من تنزانيا يزن أطنانًا ويزمجر وينعق ويطلق دخانًا أسود بلون بشرته. اجرِ، يا ماتوس، هذا أقل ما يمكنك القيام به لأن أثوثينا تتحضن في غرفتها وأوبالدو يرسم الآن أولادًا ميتين وميلاغرو يصيح ثمانية في أحد عشر، اثنان وأربعون، دائمًا اثنان وأربعون، مسافتك الأبدية، مسافة الإنسان؛ واركض، يا ماتوس لأن سيريّو ينام دون حراك مرتديًا ملابس بيضاء إلى جوار أمٍّ تنتحب، ولم يعد يُرول، فقد صار حجرًا أبيض يُشهره كومودورو في اللحظة المناسبة للفوز باللعبة.

اركض، يا ماتوس، طِر مثل أولئك الفنلنديين من الماضي. لم يتبق سوى مئة متر، هتف رامون أو سانتياغو أو الاثنين معًا، وأحدهما يُظهر الميدالية البرونزية المعلقة من الشريط الأزرق الفاتح. انظر، يا ماتوس، جائزتك، وخلودك لقاء الحروب التي ربحتها والكيلومترات التي جريتها، لإحيائك الدائم لذكرى آلامو. تفعل التعويذة سحرها ويتحوّل العدّاء على سكة القطار إلى فتى رشيق، من وقتٍ مضى وتجربة متنورة، يخفق بذراعيه بأناقة ويتنفس بانتظام، ويُطيل كل خطوة بركبتيه اللتين ترتفعان في الهواء وصدره مدفوعٌ أمامه، في شوارع باريس وأثينا ولندن وروما والمكسيك؛ وعلى الرغم من صافرة القاطرة وصراخ المعدن، فإن سانتياغو ورامون سيقسمان لاحقًا أنهما كانا فوق كل شيء يسمعان ضحك العداء الخالد من مونتيزّي، وقهقهة إغناسيو ماتوس ذاك، الذي أبقى مرفقيه عاليين وأظهر قبضتيه وحمل بندقيته وقاد قواته نحو ذلك العلم الأبيض وخط النهاية للنسور الهرمة(83)، نحو تلك الحدود، النائية للغاية، والمستحيلة، والسرمدية مثل نهر ريو غراندي.

---

(1) Cerro de la Silla: أثرٌ طبيعيٌ يقعُ على أطراف مدينة مونتيزّي ويعدّ رمزًا لها. سمّي بذلك لأنّ شكلَه الجانبيّ يشبه السرج. (المترجم).

(2) بعض الأسماء المكسيكية لها معانٍ، وبعضُها لا. وهنا تركنا تبيانَ دلالة الأسماء إلا فيما يدخلُ في صُلب الحكاية. فكومودورو Comodoro مثلاً، تعني: القائد. (المترجم).

(3) يطلق عليه في اللّغة الشعبية في كثير من البلدان العربية (دور بياض)، وكلمة (دور) من فارسية، كما أنّ تسميّات أحجار اللعبة جاءت إلى العرب من بلاد فارس.

(4) الولد الذي أسقطته أمّه، أو ولد ميتًا. والجذر (مَلَصَ) بمعنى زَلَقَ.

(5) قرص دائريّ من الخبز، يستخدم في الصلاة الكنسية.

(6) أحد الأنهار الرئيسة في جنوب غرب الولايات المتّحدة وشمال المكسيك. ينبع في جنوب وسط ولاية كولورادو بالولايات المتحدة ويصبّ في خليج المكسيك، ويشكل جزءًا من الحدود بين البلدين.

(7) دون غاسبار دي زونيغا يا آثيفيدو (1606 - 1560): الكونت الخامس لإقليم مونتيزي، والحاكم التاسع لإسبانيا الجديدة نيابة عن الملك منذ عام 1595 حتى وفاته.

(8) Grengo غرينجو، لفظ يطلقه أغلب شعوب أميركا اللاتينية على المواطنين الأميركيين؛ إذ يثقل على من يقيمون في قارة اسمها (أمريكا) اختزال صفة (الأمريكان) على شعب الولايات المتحدة فقط! وهو لفظ غير عنصري، يقال إنّ أصله يعود إلى غزو جنود الولايات المتحدة بثيابهم الخضراء للمكسيك في حرب الحدود بين الدولتين عام 1910، حيث خرج الناس في مظاهرات هاتفين: Greens Go Home ثم اختصرت إلى غرينجو. وباتوا يطلقونها على كل قوقازي شمالي أبيض غير لاتيني. (المترجم).

(9) أنطونيو لوبيز دي سانتا آنا، وغالبًا ما يُعرف باسم سانتا آنا، أو لوبيز دي سانتا آنا. شخصية مبهمة ووطنية ومثيرة للجدل، سياسي وجنرال مكسيكي حارب للدفاع عن الملكية الجديدة في إسبانيا ومن ثم من أجل استقلال المكسيك. وقد أثّر بشكل كبير في السياسة والحكومة المكسيكية في وقت مبكر. هيمن على التاريخ المكسيكي في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى درجة أن المؤرخين غالبا ما يشيرون لزمنه على أنه "عصر سانتا آنا". كان يطلق عليه "رجل المصير الذي يلوح في الأفق على وقته مثل تمثال ميلودرامي". عارض سانتا آنا أول مرة الحركة من أجل الاستقلال المكسيكي من إسبانيا، لكنه قاتل في وقت لاحق لدعمه. على أنه ليس أول قائد عسكري للمكسيك المعاصر، إلا أنه يمثل "الكوديلو" النمطي في التاريخ المكسيكي، ومن بين الأوائل. تمتع سانتا آنا بقوة كبيرة في المكسيك. خلال فترة مضطربة

امتدت أربعين عامًا. شغل منصب قائد الجيش في مراحل أساسية وخدم مدة اثنتي عشرة فترة رئاسة غير متتالية على مدى اثنين وعشرين عامًا. في الفترة الزمنية التي لم يكن فيها رئيسًا، تابع خدمته العسكرية.

(10) حصن إرسالية آلامو للروم الكاثوليك. كانت معركة ألامو 23)فبراير - 6 مارس (1836حدثًا محوريًا في ثورة تكساس. بعد حصار استمرّ 13 يومًا، شنّت القوات المكسيكية تحت قيادة الجنرال أنطونيو لوبيز دي سانتا آنا هجومًا على بعثة ألامو بالقرب من سان أنطونيو دي بيكسار(سان أنطونيو، تكساس، الولايات المتحدة الأمريكية)، ممّا أسفر عن مقتل المدافعين عن تكساس. ودفعت قسوة سانتا آنا خلال المعركة العديد من سكّان تكساس -مستعمري تكساس والمستكشفين الأميركيين - للانضمام إلى جيش تكساس. هزمت حامية تكساس الجيش المكسيكي في معركة سان جاسينتو، في 21 أبريل 1836، مدفوعة برغبة في الانتقام، بهدف إنهاء الثورة.

(11) يسيل لعابه.

(12) الصندل البلاستيكي المعروف، ويسمى: هواراشي، كما يطلق عليه بلغة السكّان الأصليين: بوربيشا. (المترجم).

(13) machete: بلطة كبيرة تستخدم لقطع فروع الأشجار غالبًا.

(14) نوع من الدواجن البرّية، شبيه بالحجل.

(15) عقدت الألعاب الأولمبية الصيفية في المكسيك عام 1968 بين الثاني عشر والسابع والعشرين من شهر أكتوبر. وفازت الولايات المتحدة بالمركز الأول فيها من حيث عدد الميداليات.

(16) العملة المكسيكية، وتبلغ قيمته اليوم 1:19دولار أميركي، و 1:22 من اليورو تقريبًا.

(17) يشر الكاتب إلى الحرب المكسيكية-الأمريكية، وهي نزاعٌ مسلّح بين الولايات المتحدة الأمريكية والولايات المكسيكية المتحدة(المكسيك) دام قرابة العامين، من 1846 إلى 1848 وجاء في أعقاب ضمّ الولايات المتحدة لجمهورية تكساس المستقلة في عام 1845 وكانت المكسيك بقيادة الجنرال أنطونيو لوبيز دي سانتا آنا تعدّ تكساس ولاية تابعة لها ولم تعترف قطّ بجمهورية تكساس التي انفصلت قبل عقد من الزمان. في عام 1845، أرسل الرئيس الأمريكي

المنتخب حديثا جيمس ك. بولك قوات إلى المنطقة المتنازع عليها وبعثة دبلوماسية إلى المكسيك. بعد أن هاجمت القوات المكسيكية القوات الأمريكية، استند بولك على ذلك في طلبه من الكونغرس إعلان الحرب.

سرعان ما احتلت القوات الأمريكية العاصمة الإقليمية لسانتا في دي نويفو المكسيكية على طول منطقة ريو غراندي العليا ومقاطعة ساحل المحيط الهادئ في ألتا كاليفورنيا، ثم انتقلت جنوبًا. في هذه الأثناء، حاصر أسطول المحيط الهادي التابع للبحرية الأمريكية ساحل المحيط الهادي في أقصى الجنوب في منطقة باها كاليفورنيا السفلى. في نهاية المطاف استولى الجيش الأمريكي بقيادة الميجور جنرال وينفيلد سكوت على مدينة مكسيكو إثر مقاومة شديدة.

أنهت معاهدة غوادالوبي هيدالغو لعام 1848 الحرب وفرضت تخلّي المكسيكيين عن المناطق الشمالية من ألتا كاليفورنيا وسانتا في دي نويفو المكسيك إلى الولايات المتحدة. وبموجبها وافقت الولايات المتحدة على دفع تعويضات عن الأضرار المادية للحرب، واعترفت المكسيك بفقدان ما أصبح ولاية تكساس وقبلت ريو غراندي حدودها الشمالية مع الولايات المتحدة.

تركت الحرب المكسيك في حالة متردية من الاضطرابات المحلية وخسائر في الأرواح والأراضي وأثرت على الروح المعنوية والمكانة الوطنية في ضمائر المواطنين وصل ببعضهم إلى وصفها بـ»بلاد التدهور والأنقاض»

(18) يطلق على الحجر أيضًا في بعض البلاد العربية، بالعامية: (البلاطة). ومن يتوفق على خصمه ولا يربح إلا هذا الحجر، قد يرد الخصم: امسح بها البلاط! (المترجم).

(19) أحد أحياء العاصمة المكسيكية. سمّي نسبة للرئيس المكسيكي الـ 37، والذي اغتيل عام 1920.

(20) أو يُخصّبون نساءهم.

(21) يعيش (هتاف بطول العمر).

(22) الكرونومتر. ساعة لحساب السرعة.

(23) على اسم الجنرال خوان زوازوا، الذي يلقّب بـ»جندي الإصلاح". قاد زوازوا المقاومة ضد دكتاتورية سانتا آنا ، في عام 1854 أثناء حرب الإصلاح.

(24) سمي الشارع باسم الضابط المكسيكي سانتاغو تابيا الذي أوكل إليه الجنرال سانتا آنا

مهمة العودة إلى المكسيك والإبلاغ بالنصر في معركة آلامو.

(25) شارع في مونتيزي، باسم اسحاق غارزا، رجل الأعمال الذي ترأس إحدى التكتلات الصناعية في المكسيك ومجلس إدارة شركة مونتيزي للحديد والصلب.

(26) Clarence Harrison DeMar. (1888 - 1958): كان يلقب بـ "دي ماراثون" وفاز بالميدالية البرونزية في ذلك السباق.

(27) Stade Olympique de Colombes : أو الكولومب اختصارًا، ويطلق عليه أيضًا ملعب إيف مانوار الأولمبي، وهو ملعب رجبي وألعاب الساحة والميدان، وكان الموقع الرئيس للألعاب الأولمبية الصيفية عام 1942 في باريس.

(28) José María Pino Suárez(1869 - 1913): نائب الرئيس السابع في تاريخ المكسيك. سياسي وقانون وشاعر وصحافي. خصص قسماً كبيراً من حياته للمطالبة بالديموقراطية والعدالة الاجتماعية. اغتيل بعد عامين من تنصيبه.

(29) بدأت أسطورة العدائين الفنلنديين بـ"ملك المضمار" Hannes Kolehmainen ولم تنته مع Paavo Nurmi الذي فاز بخمس ميداليات ذهبية في سباقات المسافات الطويلة والمتوسطة في أولمبياد باريس 1924. وقد شارك خمسة عدائيين ضمن الفريق الفنلندي في ذلك السباق. الذي فاز بذهبيته Albin Stenroos بعد انسحاب Kolehmainen. منذ تلك الحقبة ولقب "الطائِرين" يرتبط بالعدائين الفنلنديين. كما رسخ الأدب هذه الشهرة، كما ورد في رواية التشويق (رجل الماراثون) للروائي وكاتب السيناريو لأميركي William Goldman حيث يتخيل البطل نفسه في مشهد فراره من معذّبه وكأنه يحلق إلى جانب Nurmi في الماراثون.

(30) المصطلح العسكري المستخدم هو: take roll وتعني حرفيًا: خذ الرول! (المترجم)

(31) أو (الاستعراء): وهو انحراف يتميّز بنزوع الى إظهار العورة، أملًا في حبّ الظهور. (المترجم)

(32) يُجري صلاة سريعة بيده.

(33) حفلات الباناياتا جزء من التراث الشعبي المكسيكي، الذي غزا العالم الغربي. كانت تقام للأطفال، وتتمثل في كسر زينة ورقية/كرتونية معلقة تحوي الهدايا أو الحلوى عادة. ويتم ذلك

بعصا طويلة. ما قبل القرن التاسع عشر كان لهذه الاحتفالات صبغة دينية.

(34) شخصية كرتونية.

(35) عاصمة إقليم كو-واويلا في شمال شرقي المكسيك وأكبر مدينة فيها.

(36) وتعني (الفحم الأسود) بالإسبانية، وهي مدينة حدودية في إقليم كو-واويلا.

(37) Charles Pierre de Frédy (1863 - 1937): بيير دي كوبرتان (بارون كوبرتان)، معلّم ومؤرخ فرنسي، مؤسس اللجنة الأولمبية الدولية. وثاني رئيس لها. يعدّ أحد آباء الألعاب الأولمبية الحديثة، أوصى بدفن قلبه في اليونان بعد وفاته.

(38) شراب كحولي يشبه التكيلا. يستخرج من جنس النبتة نفسه: الصبّار.

(39) Palacio del Obispado بالإسبانية، وهو بناء حجري على الطراز الباروكي بني أثناء الحقبة الإسبانية، واكتمل بناؤه في نهاية القرن الثامن عشر.

(40) El Milagro : المعجزة باللغة الإسبانية.

(41) Tula: مدينة أثرية، تقع في شمالي غرب المكسيك، في ولاية هيدالغو. كانت عاصمة حضارية ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهي بذلك سابقة لحضارة الآزتك. في مركز المدينة كمية وافرة من النقوش الفخارية والأهرامات والأعمدة الحجرية . سقط حكمها في القرن الحادي عشر بعد الميلاد، ولم يتوقف أثرها الديني والروحي.

(42) وتعني الخلفية/ الأرضية بالإسبانية. وللكاتب رواية أخرى حملت هذا الاسم عنوانا، وترجمت إلى العربية عن دار الحوار عام 2011. (المترجم)

(43) السير نائمة.

(44) العلم الإيطالي، ونسبة طوله إلى ارتفاعه هي 4:7، وهو قريب من العلم المكسيكي، الذي نسبته 2:3 وفي منتصفه شعار الدولة الذي يصور نسرًا ذهبيًا مثبتًا على صبار الكمثرى الشائكة ويمسك بثعبان في منقاره ومخالبه. ويرمز إلى أسطورة بناء العاصمة. (المترجم)

(45) Poncho: عباءة الرعاة في أميركا اللاتينية والجنوبية. بها فتحة من المنتصف تدخل منها الرقبة وليس لها أكمام. (المترجم).

(46) ماخا (أو مانولا): للمؤنث، وماخو ومانولو: للمذكر هم أصلًا أبناء الطبقات العاملة في مدريد في القرنين الثامن والتاسع عشر، ولاحقاً صاروا جزءً من الثقافة الإسبانية التي غزت العالم. أمّا في إسبانيا، فانحصرت الماخا في راقصة التانغو، والماخو في مصارع الثيران. من أشهر لوحات الفنان فرانسيسكو غويا لوحتي (ماخا العارية) و(ماخا الكاسية)، وهو لوحتان للمرأة نفسها معروضتان جنباً إلى جنب في متحف برادو في مدريد.

(47) ocho: ثمانية، once: أحد عشر، بالإسبانية.

(48) النقنقة والقوقأة: صوت الدجاج. (المترجم)

(49) صاحب التصريح قبل السباق: إما أن أفوز أو أموت. كان أول الواصلين إلى خطّ النهاية، إلا أنّه أغمي عليه وسقط أكثر من مرة بسبب الإعياء. وسحبت منه الميدالية، في حادثة تاريخية، بعد أن اتهم الكاتب الإنجليزي المعروف آرثر كونان دويل، صاحب سلسلة شيرلوك هولمز الشهيرة، بمساعدته على القيام. (المترجم).

Telegram:@mbooks90

(50) جمع سرّطان البحر.

(51) أكبر العناكب المكسيكية الحمراء وأطولها عمرًا. (المترجم).

(52) جمع فكّ.

(53) الثور الأميركي.

(54) كلّ ثوب رأسه منه.

(55) نبات شائك.

(56) مطرقة كبيرة وثقيلة.

(57) الحقو، الأربية: أصل الفخذ.

(58) قبعات عريضة كانت شائعة في القرن الثامن عشر، مكفوفة الزوايا إلى الأعلى. (المترجم)

(59) اسم ويلزي وأيرلندي. وفي اللغة الشعبية يعني الفطر المهبلي.

(60) Condestable: وفي بعض معانيها الحاكم والشرطي وموظف القصر.

(61) ماء بالإسبانية.

(62) الوشق، من فصيلة النمور التي تقع بين القطّ والنمر المرقّط. ونظره الخارق للطبيعة، الذي يخترق الأجسام الصلبة، مجرد أسطورة من بين أساطير عدّة ترتبط بهذا الكائن. (المترجم)

(63) غراب أبقع طويل الذيل.

(64) إلهة رومانية للصيد والقمر والطبيعة. غالباً ما صوّرها النحّاتين قابضة على قوس ونشاب.

(65) Lone Star state: وهي تكساس.

(66) الحادثة الشهيرة جرت في أولمبياد المكسيك 1968، عندما مشى الرياضيان الأمريكيان الأسودان الفائزان بسباق الجري 200 متر، Tommie Smith و John Carlos إلى منصة التتويج حافيين بجوارب سوداء (كإشارة إلى فقر السود)، ووشاح أسود على رقبة سميث (كإشارة إلى الاعتزاز بنضال السود) بينما فتح كارلوس بذلته الرياضية لإظهار شعار التضامن مع نقابات العمال. بينما اشترك معهم الفائز بالميدالية الفضية، الأسترالي Peter Norman ارتداء شعار مناهض للعنصرية. وأثناء عزف النشيد الوطني للولايات المتحدة كان اللاعبان الأميركيان يرفعان قبضاتهما، بقفاز أسود، ويخفضان رأسيهما طوال عزف النشيد. تعتبر الحادثة أشهر إعلان سياسي في تاريخ الألعاب الأولمبية. إلا أنه في سيرته الذاتية، ذكر سميث أنّ الحادثة لم تكن دعماً مباشر لحركة الفهود السود التي كانت معروفة في فترة الستينيات والسبعينيات في الولايات المتحدة.

(67) من أشهر أبطال ألعاب الساحة والميدان الأميركيين السود. شارك في الألعاب الأولمبية التي أقيمت في برلين عام 1936 إبّان حكم هتلر، بهدف نقض نظرية التفوق العرقي الآري، إلا أنه، وفي الإطار نفسه، وجهت إليه حركة الحقوق المدنية الأميركية دعوات لمقاطعة البطولة

(68) فوق معدنية.

(69) خوسيفا أورتير دو دومينغيز (8 سبتمبر 2 - 1768 مارس 1829): وتعرف بالسيدة (دونا) خوسيفا. كانت ابنة قائد فرقة عسكرية، وزوجة حاكم ولاية، وتذكر على أنها من الثوار الداعمين لحرب استقلال المكسيك عن إسبانيا.

(70) مارجريتا أوستاكيا مازا بارادا (أو مارجريتا مازا دي خواريز)،(29مارس1826 2-يناير 1871) كانت زوجة الرئيس المكسيكي بينيتو خواريز والسيّدة المكسيكية الأولى.

(71) عاصمة إمبراطورية الآزتك. وتقع في وادي المكسيك في مركز العاصمة مكسيكو سيتي اليوم. شيّدت على الماء. واحتلها الإسبان عام 1521.

(72) السيد بالإسبانية، ونستخدمها كما وردت في رسالة مدام ديمار. فهي تظنّ أنّ ذلك هو اسمه الأول. (المترجم)

(73) الدوبيش (دبش) بالعامية.

(74) Juventino Rosas(1868 - 1894): بدأ العزف في الشارع، والجيش، وانتهى في الأوركسترا. من أشهر عازفي الكمان والمؤلّفين الموسيقيين المكسيكيين. تعد مقطوعته (over the waves/ Sobre las Olas) أشهر عمل موسيقي لاتيني في العالم. عاش جزءً من حياته في مونتيرّي، وأطلق اسمه على هذا الشارع في نوفاليون.

(75) Ángela Peralta Castera(1845 - 1883): أشهر مغنية سوبرانو، لقبت بالعندليب المكسيكية، وغنت في أشهر القاعات الفنية الأوربية وهي لم تتجاوز العشرين من عمرها. كانت أيضاً مؤلفة موسيقية وتعزف على الهارب والبيانو. أطلق اسمها على مسارح وأحياء وشوارع، من بينها هذا الشارع.

(76) Abebe Bikila(1932 - 1973): كان ماراثون أولمبياد المكسيك 1969 هو آخر سباق يشارك فيه العداء الأثيوبي الشهير بعد أن حاز ذهبيتي أولمبياد روما 1960 وطوكيو 1964. حيث عانى من مضاعفات شرخ في عظم الساق الخارجي واضطر للخروج من السباق بعد 16 كيلومتراً من خط البداية. منحه الإمبراطور هالي سيلاسي لقب جنرال. تاريخيًا هو أول أثيوبي يفوز بميدالية ذهبية أولمبية.

(77) واحدة من أطول مواد الدستور المكسيكي لعام 1917 وتتعلق بأسس التعليم الثلاث: (الحرية، الإلزامية، العلمانية).

(78) Degaga Wolde (1932 - 2002): ويلقب بـ "ماموّ". وهو عسكري خدم في الحرس الإمبراطوري الأثيوبي، وكان من ضمن قوات حفظ السلام في شبه الجزيرة الكورية بين عامي (1953- 1955). اعتقل لاتهامه بالإعدامات الجماعية إبان حكم الطاغية منغستو هيلي ميريام.

(79) الفائز في المركز الثاني كان الياباني Kenji Kimihara وكان توقيته: 2:23:31

(80) بالفعل، سبق العدّاء المكسيكي Alfredo Peñaloza زميله الأميركي Kenny Moore بفارق ثانية واحدة، وجاء في الترتيب الثالث عشر.

(81) ترتيلة بسيطة وشهيرة، معروفة في جميع أنحاء العالم، وقام بأدائها العديد من الفنانين، من بينهم آندريا بوتشيلي وماريا كالاس ولوتشيانو بافاروتي، استناداً إلى موسيقى فرانز شوبيرت Ellen's Third Song.

(82) John Stephen Akhwari: عانى من التشنج بسبب الضغط الجوي وعند نقطة الكيلومتر 19 تداخل بعض العدائين فأصيب ووقع، ما تسبب في خلع ركبته، وإصابة كتفه لسقوطه على الرصيف، ولكنه واصل السباق ليصل بعد مغيب الشمس ويحل في المركز 57 والأخير من بين 75 عدّاء، بعضهم لم يكملوا السباق. عندما سئل لماذا تابعت المسير، أجاب: (بلادي لم ترسلني 5 آلاف ميل للبدء في السباق، بل لإنهاء السباق).

(83) تقول الخرافة أن النسور تشعر بدنو أجلها فتصعد إلى حافة الهاوية، ثم تجد لها مكانًا في مواجهة الشمس مباشرة، وتغرز مخالبها. لتبقى هناك إلى أن تموت في مواجهة الشمس، إلى أن تسقط في الجرف.